

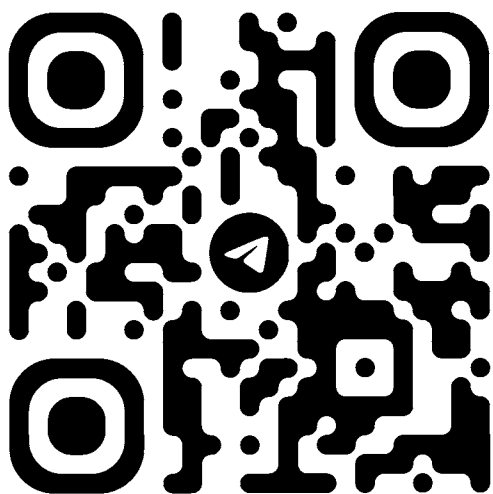
د. كفاح أبو هنود

مكتبة

يوسف

أيها الصديق

عصير
الكتب



سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

يوسف
أيها الصديق





إدارة التوزيع

00201150636428

لمراسلة الدار:

email: P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

● العنوان: يوسف أيها الصديق ●

● تأليف: د. كفاح أبو هنود

● تدقيق لغوي: نهال جمال

● تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

● الطبعة الأولى: أغسطس 2025 م

● رقم الإيداع: 17775/2025 م

● الترخيم الدولي: 5-558-992-977-978

مكتبة

t.me/soramnqraa

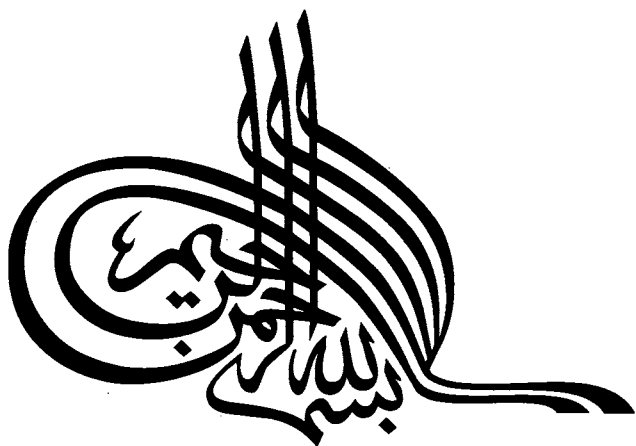


د. كفاح أبو هنود

يوسف

أيها الصدِّيق





مكتبة

t.me/soramnqraa

المجنويات

- 11..... المقدمة
- مقدمة المعنى
- 15..... الإنسان الكامل الذي ينتظره عرش الخزان
- شيفرة البداية
- 29..... خارطة الحرف - من «الر» إلى معنى الرحلة كلها
- مفتتح الرؤيا
- 37..... أحسن القصص - هنا، خارطة الفهم: من الحرف إلى التمكين، من الر إلى العرش!...
- مشهد الرؤيا
- 43..... إني رأيتُ - خارطة الرؤيا تشع بصيرة في قلب الصغير
- وصية يعقوب
- 49..... لا تقصص رؤياك - حين تهدد الرؤيا بفجعة الحسد
- مؤامرة الإخوة
- 59..... ﴿أَلْقَوْهُ فِي غَيَّبَتِ الْجُبِّ﴾ ٥٩ - بداية الهاوية، أو سُم الأقدار
- ﴿يَتَأَبَّأْنَا مَالَكُ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَنصِحُونَ﴾ ٦٠
- 65..... اللغة حين تنطق بالخيانة!
- أقصى خذلان عرفته البشرية
- 77..... ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَّبَتِ الْجُبِّ﴾ ٧٧
- قميص الدم
- 85..... ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ ٨٥ - الحزن يبدأ بالخدعة
- وبدا السفر إلى التأويل
- 97..... ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ ٩٧

- ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ﴾ 105
مِصْرُ هي تضاريسُ مرحلة التمكين
- ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ 113
يوسف نموذج النضج الذي يليه التمكين في سننية كونية
- فتنة القصر**
- ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ (٣٢) - خفقت الشهوة على مشارف العفة 119
﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوًى﴾
- يوسف قصة شاب تجذّر في الثبات، يدنو من الله كلما دنت منه الفتنة! 133
وبين سباق المكائد، ومعارج الصعود كانت السماء تحصي له،
أنه كان يستبق النجاة في قلب الفتنة. 137
﴿حَسَّ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ (٣٣)
- فقد كان إنساناً يمتحن البشرية كلها، عبر عروجه! 149
﴿لَيْسَ جُنَّتُهُ﴾
- هكذا وفجأة من سعة القصر إلى ضيق السجن! 167
- يَا يوسف**
- كان المكان فارغاً من تاريخك، فكتبت أبجدية حضورك بإحسانك 179
وكان يوسف يعلمهم
- بأن من لا يقبض على جمرة التغيير، سيكون ساقياً، أو رأساً للخراب
﴿تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ﴾! 193
- بين (اذكرني عند ربك) و(ارجع إلى ربك)
- هو الفارق الزمني ﴿فَلَبِثْتُ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ (١٥) 197
- مُدّر الجفاف ولغز الرقم والسنابل
﴿يَا كُلُّهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ (١٦) 205
﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾
- الوعي ينبثق في زلزلة التأويل 215
- لا يقدر على الأمل إلا من مهد له السبل!
- ولا يقدر على صناعة البشرية إلا من امتلك قوانين السنن 225

﴿ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾

231 سجين تستشرف الدولة كلها رؤيته، لكنه يقرر شروط مجيئه!

﴿اَتُّونِي بِهِ أَتَخْلِيصُهُ لِنَفْسِي﴾ ٥١

245 بحير هذا المعنى، كتبت الأقدارُ آخرَ المرحلة!

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ ٥٢، والجوع فُحُ القصاص!

255 وكانوا له منكرين، إذ كان التمكين فوق ما يتوقعه خيال الذاكرة.

﴿اَتُّونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ ٥٣

261 يوسف يُدير الخطّة، ويبدأ بناء تفاصيل المحكمة.

وفي انتشار الحرائق تشيع الحقائق

275 وفي سواد الألوان اختمار أقدار خفية.

﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ ٥٤

289 بُكاءُ النبوة، بين احتراق الصبر في محرابِ الفقرِ وحزن مأهول باليقين.

﴿يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ ٥٥

305 الحنين إذ يغدو فعلاً نبوياً موقناً.

﴿أَنَا يُوسُفَ﴾

309 سيد الغربة وسيد المنفى وسيد المشهد وسيد الكلمات.

قميص الشفاء

321 ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا﴾ ٥٦ - وما القميص إلا رائحة المعنى في الرؤيا.

ورفع أبويه على عرش التأويل

329 ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ ٥٧

عفو يوسف

337 ﴿لَا تَرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ ٥٨ - النبوة في تساميتها تمسح آثار الجراح.

الخاتمة التأويلية

347 من الرؤيا إلى العرش - خريطة المعنى: الإنسان في سورة.



إهداء

إليك في مرقدك الأخير

أهديك قلمي، وكل الكلمات!

فأنت الذي أوقفتني على عالم الوعي يوم جعلت الكتاب رفيق الطريق.

وبددت ضباب التيه عن قلبي وفي ذاكرتي كنت الزمن الجميل.

وفي مكتبك أودعت عقلي في المكان الآمن وبدأت بدايتي.

صغيرة ولا أفهم الكثير من الأوراق المنتثرة بين يدي وغالب ما كان

على الأرفف، لكنني مع كل صفحة كنت أقطع مسافة للوعي.

وعلى صهوة الفكر ثبتَّ لي اتزانِي ومنحتني وعي المسير.

إليك يا أبتِي في مثواكَ الأخير كل الدعاء بأن يتقبل الله هذا الجهد وأن

يجعله في موازين حسناتك،

وأن يجعلني صدقتك الجارية إلى يوم الدين.

ابنتك

كفاح كامل أبوهنود



المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

لا أدري كيف امتلكت الشجاعة وشرعت في معاني القرآن، لا أدري كيف خضت غمار ما يفوق العقل والإدراك، ولكنها ربما محاولة قلم يشتهي لو يغمس يراعه في مداد بحر ينفد ولا تنفد الكلمات.

ولقد حاولت كتابة طرح يتجاوز السرد إلى التأمل الوجودي، لقصة شاءها الله أحسن القصص، وفيها نرى يوسف نموذجاً لإنسانية مصطفىة، يتجلى فيها معنى الاختبار، والاجتباء الإلهي، والتمكين بعد كل مرحلة من مراحل القهر والتغيب.

فجاء الكتاب، «يوسف أيُّها الصديق»، تأويلاً بالرؤية، لا بالرواية. ولقد أردت من صفحاته ألا تكون قراءةً في قصة يوسف عليه السلام فقط، بل أن تكون رحلة تأملٍ مفتوحة على اتساع الحرف والروح، تعيد رسم الخطى على طريق لا يُمهد إلا بالصبر وسنن التمكين.

لذا لم يكن هذا النصُّ تفسيرًا، ولا تأريخًا، ولا سردًا تقليديًا، بل تأملًا أدبيًا معرفيًا، يُعيد النظر في قصة يوسف عليه السلام بوصفها مرآة وجودية للإنسان الذي يُمتحن كي يُطهر، ويُغيب كي يُظهر، ويُكاد له كي يُمكن.

وأؤكد أن هذا الكتاب ليس دراسة أكاديمية، ولا موعظة عاطفية، بل بوصلة داخلية تهتدي بسورة يوسف لا إلى «ما حدث»، بل إلى «ما قد يحدث فينا»!

كتاب أردته وعيًا صامتًا لكل رحلة يوسف، لا ليشرحها، بل ليصغي إليها!
 في كل فصلٍ من هذه السورة يتوارى الحدث، ليظهر السرُّ:
 كيف يتجلَّى المعنى في قاع البئر؟
 كيف تُبنى العفَّة في وهج الفتنة؟
 وكيف يُصبح السجن مقامًا للصدق، والعفو مقامًا للتمكين؟
 وبين النون في «سجين» والياء في «أنين»، تكتب السورة إيقاعها، ويكتب
 يوسف مقامه، وتكتب الروح دربها إلى {هذا تأويل رؤياي}.
 وفي كل هذه الصفحات، حاولت أن أُمسك بالخيط الرفيع الذي يربط بين
 الحرف والنبض.

وأن أدوّن -بمداد الروح لا الورق- كيف يصبح العمر سورة.
 وكيف يتحوّل الإنسان إذا سلّم، وارتقى، وغفر، إلى يوسف.
 حيث يمضي هذا الكتاب في خطٍّ تصاعدي من الحرف إلى الروح:
 من «ألر» إلى العرش.

مكتبة

t.me/soramnqraa

من «إني رأيت» إلى «توفني مسلمًا».

من الجبِّ إلى خزائن الأرض.

ويوسف، من الرؤيا إلى التأويل.

وبين تلك المحطات، حاولت صياغة المعاني بلغةً أدبية لا تقف عند ظاهر
 الألفاظ، بل تستنطق السورة من داخلها، وتفتح أبوابها الرمزية والصوتية
 والنفسية.

هذا الكتاب ليس شرحًا لسورة، بل تجربة وجودية.

فيه يحيا يوسف ليس فقط نبيًا، بل إنسانًا كاملاً يجسّد رحلة كل نفس
 نحو التمكن، حين تمر عبر فتنة، وحلم، وخذلان، وعبر غفران.

هذا الكتاب «يوسف أيها الصديق»، كتاب يحاول أن يعيد كتابة القصة فينا.

وفي كل بعد صوتي ونغمي حاولت بيان معنى أن سورة يوسف إيقاع للروح يُتلى، وصوتٌ داخليٌ يبكي.

وسعيت لكشف البعد القدري والفلسفي للابتلاء والرحلة، بلغة تعانق أحوال النفس وهي تُدفع من حافة الحلم إلى حضيض الألم ثم إلى سنام التمكين.

وفي تأطير للبنية السردية في السورة. وضحت كيف أن القصة لا تسير بخط مستقيم نحو النصر، بل تتعرج ما بين رحمة وابتلاء، وما بين احتضان وغربة.

فقد كانت كل مرحلة رخاء تأتي محمولة على نقيضها، و«القبض» هو الصيغة التعبيرية للألم الذي يسبق كل علو، تمامًا كفكرة «التمكين بعد المحنة».

وبوشاح من التأمُّلات المطرزة بحروف الألم والدهشة في العطاء، يُلملم القلم معاني سورة يوسف في رؤية أدبية، تسير بين أطراف اللغة وعمق المعنى بقلم يكتب بنبض قلبه.

ربما لا أملك القول إنني أبدعت في كشف مخبوء المعاني ولكن حسبي أنني حاولت.

ومن الله القبول والتوفيق والعفو وكرم الإحسان.





مقدمة المعنى

الإنسان الكامل الذي ينتظره عرش الخزائن



يُوسُفُ أَيُّهَا الصَّدِيقُ

..

من الاصطفاء أن يجعلَ اللهُ عُمرَكَ آيةً، ومن الاجتباء أن يجعلَ اللهُ
عُمرَكَ سورةً!

أن تكون أنتَ الزمن وفوق الزمن.

وأن يكونَ عُمرُكَ خارطةَ الطريقِ إلى التمكينِ!

وأن يجعلَ اللهُ المراحلَ يوسفَ، والتأويلَ عرشَ الخزائنِ!

ومن الاجتباء أن يَبْسُطَ اللهُ لك، ثم يَقْبِضَ، وأنتَ في ذلك مَعْنَى الحِكْمَةِ،
واختبارُ الاختيارِ.

وهو عليمٌ أنك للتمكينِ أهلٌ.

وفوق ذلك، زِدْتَ المعنى يومَ كنتَ أنتَ، حتَّى كأنَّكَ الدليلُ، واليقينُ.

والسُّرُّ الذي لأجله كانت الكلمات سورةً، وعمرُكَ يُكتبُ وحياً!

سورة يُكرَّر فيها اسم يوسف صريحًا عشرين مرة، وبالضمير الغائب والمستتر خمس وثلاثين مرة.

ويا لها من مهمّة شاقّة أن تظلّ حاضرًا!

وهم يريدونك خارج المعنى، خارج المتن، وعلى هامش الهامش.

وعلى قارعة النسيان!

هكذا إذن.

يُحاولون تغييبه، فيُبقيه الله سورةً في اللوح المحفوظ، وعلى سطور المصحف!

وهذا معنى خلود الحضور!

لذا كان أكثر اسم تکرَّر في السورة هو: الله، بمجموع بلغ اثنتين وخمسين مرة.

ولولا الله، لظلّ يوسف منسياً في عمق الغياب!

قل لي:

هل في إنسانيّة الحياة طفلٌ تجتمعُ عليه عُصبةُ رجال، كلّهم إخوة.

ليقتلوه!

وهل في اختبار الاجتباء..

فتى تجتمعُ عليه معاني نسوة الأرض، فتنةٌ وحُسنًا، ويتوهجنَ خُفيّةً وعلانيةً، وكلهنَّ عليه القوم.

ليفتنوه!

رجُلٌ يُلقي وحيدًا غريبًا في سجن، والأمرُ كلُّ الدولة.

ليسكتوه!

يُلقي في السّجن، فتضطرم روحه بشُعاع النّبوة.

ومعه، ما كان غير مُمكن صار مُمكنًا، وما كان ينبغي أن ينتهي، لا ينتهي!

ومع يوسف كل الثنائيات متناقضة لكنها تُشكّل بناء الرحلة.

وعبر كل التناقضات..

الفتوة والبراءة، السجن والعظمة، الجمال والعفة، القهر والتمكين، يبلغ مقام «الصديق»!

وفي قسوة السجن يقا تل بالكلمات حتّى أقصى المكارم، فيبلغ في وحشة الظروف

مقام: (يُوسُفُ أَيُّهَا الصَّدِيقُ)!

و لقد كان يوسفُ هو المعنى كُلُّهُ

يَحْمِلُ عزائمه، ويأبى الخروج من السجن، يمسك بأطراف أنقاضهم ويأبى أن ينتهي اسمًا آخره السكون! ومن انكسار الصباح على قمح عمره، ومن احتراق الوقت فيما تبقى من كل أيامه.

جاءهم معناه كُلُّهُ في أمرين، ﴿أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسَأَلَهُ مَا بَالَ الْإِنْسَانِ﴾ ﴿٥٠﴾! فإن كان في أعينهن مَلَكًا فقد صار بقوة نفسه مَلَكًا.

وكان يوسف وحده من بلغ أن يكون مَلَكًا وَمَلِكًا! وفي توازن مثالي بين الدنيا والآخرة ظل يحرس الحلم!

كان ملء القلوب، فلما أبى الخروج من السجن صار ملء الوجود، بل رمزًا إنسانيًا عالميًا.

ثم هو على خزائن الأرض في جلال وعيه وقداسة روحه فوق فتنة المال. والناس في سعة عطائه وهو في سعة نفسه متفردًا!

يرى الكواكب بين يديه يسجدون فيحيلها نجومًا ويشعل ما انطفأ فيهم.

يغادر ضلالهم ويمنحهم أمان المتاب، ويرتل في تسامٍ عجيب ﴿مِنْ بَعْدِ

أَنْ تَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ ﴿٥١﴾

وعلى مهل يزيح الغموض، ويغادر حزن التفاصيل، ويختصر الطريق إلى
نحيب الاعتراف.

فقد كان الشيطان، فقط الشيطان!

يروض قلبه على اللاشيء من الانتقام، ويصعد يوسف!

(ولقد كان اختبار الاجتباء في حياة يوسف ارتقاءً روحياً ومكانياً لغد ما
بعد الفجائع، غد كله تأويل!).

ومن شبه الجملة إلى متن النص، وبين ضالّة الروح في العصبية والنسوة
وما بعد المحنة.

ومن لون الماضي إذ يصبح الماضي معنى القاضي، وفي مآثم انهيار
الحب، والقلب إذ يكاد يتلف.

وفي خفة الأفكار.

كان يوسف هناك طيلة الوقت منهمكاً في بناء المعنى لنا!

كان يوسف كي لا يخلو الوجود من المعنى!

لذا كان يوسف قصة مكتملة، تتوزع مشاهدتها على عداد البشرية
جمعاً، وفيه تجتمع كلها!

ويوسف وحده من اجتمع فيه كل ما تفرق على البشرية كلها!
وفيه يصدق.

(إنما هو أنا)، (ويوسف هو القصة وحدها).

وكان لهذا أحسن القصص.

هنا سُورة يوسف، حيث الألمُ سلّم للتمكين، والحروفُ مرآة
للمحنة!

وحيث تَغزِلُ المأساة طَريق التَّمكين، وفي الهلاك كل أسباب النجاة.
السورة.

تَلْمَسُ الْمَعَانِي فِيهَا جِرَاحَ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَةِ فِي تَوَافُقٍ عَجِيبٍ.
 وَبَيْنَ الْأَلَمِ وَبَيْنَ الْأَمَلِ، وَبَيْنَ خَفَايَا الْقَلْبِ وَبَيْنَ قَسْوَةِ الدَّرَبِ.
 يَفِيضُ الْأَلَمُ فِي السُّورَةِ، حَتَّى كَأَنَّ (الطَّرِيقَ إِلَى الدَّمُوعِ فَسِيحًا).
 وَالْعَجِيبُ أَنَّهُ يَفِيضُ، كُلَّمَا قَارَبَ يَوْسُفَ لِحِظَةَ التَّمَكُّينِ!
 وَعَلَى مَشَارِفِ نَهَايَةِ السُّورَةِ تَبْدُو الْمَشَاهِدُ، أَشْبَهُ بِجُرْحٍ مَفْتُوحٍ، وَكُلَّمَا
 سَكَتَ الْأَلَمُ مِنْ قَبْلِ، اسْتَأْنَفَ الْوَجْعَ مِنْ بَعْدُ!
 لَا رَاحَةَ إِذْنٍ إِلَّا (عَلَى الْعَرْشِ).

لَا رَاحَةَ، إِلَّا عِنْدَمَا يَبْلُغُ يَوْسُفَ ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ﴾ ﴿١٣٠﴾
 لِذَا امْتَلَأَتِ السُّورَةُ بِالْحُرُوفِ ذَاتِ الصِّفَةِ الشَّدِيدَةِ، وَيَبْلُغُ تَعْدَادُهَا أَلْفًا
 وَثَلَاثِينَ حَرْفًا، وَكُلُّهَا تَتَطَلَّبُ جَهْدًا نَفْسِيًّا وَقَوِيًّا لِلنُّطْقِ بِهَا، كَأَنَّهَا تَحْكِي شِدَّةَ
 الْمَحَنَةِ وَكَرْبَ الْمَعَانَاةِ وَقَسْوَةَ الطَّرِيقِ.

حَيْثُ وَعُورَةُ الطَّرِيقِ أَشْخَاصُ!
 وَفِي خِتَامِ السُّورَةِ..
 تَسْمَعُ صَوْتَ يَوْسُفَ، وَهُوَ يَبْوَحُ بِالْمِ النَّجَاةِ، وَيَخْفُ تَعْدَادُ الْحُرُوفِ
 الشَّدِيدَةِ!

يَا لِلْمَفَارِقَةِ اللَّغْوِيَّةِ، فِي الْبَدءِ كَانَتْ الْحُرُوفُ تَصْرُخُ، وَفِي الْخِتَامِ هَمَسَتْ
 النَّجَاةُ!

يَفْجُوكَ بَنِيَانِ السُّورَةِ وَفِيهِ تَدْرِكُ لِمَاذَا تَكَرَّرَتْ صِفَةُ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ،
 حَيْثُ وَرَدَتْ عَلِيمَ 7 مَرَّاتٍ، وَيُعَلِّمُ 4 مَرَّاتٍ، فِي تَرَاتُيبِيَّةٍ تَصْنَعُ لِيَوْسُفَ
 حِكْمَةَ الْقِيَادَةِ عَلَى عِلْمٍ مَتِينٍ.

هَكَذَا يَبْدُو النَّصُّ مَتَمَاسِكًا وَعَصِيًّا عَلَى الثُّغَرَاتِ، إِلَى حَدِّ الذُّهُولِ وَالِدَهْشَةِ.
 إِذْ كُلُّ خَطْوَةٍ فِيهِ تَكْتُبُ، كَيْفَ يَكُونُ إِرْثُ الْأَنْبِيَاءِ الْمَصْلُحِينَ!
 مَا أَبْدَعَ أَنْ تَكُونَ سِتَارُ الْإِرَادَةِ الْإِلَهِيَّةِ!

ألا تختار ولكنك تُختار، وفي فقد الاختيار يكون القرار.
وفيما لا نختار يأتي خير الاختيار.

بدءاً من الغياب المَوْجِع، حتى حَشْرَجَةِ الحُزْنِ في صوتِ يَعْقُوبَ، كانت
المَراحِلُ تُتلى، عبرَ أَلَمٍ يُتلى.

وإذا تَطاولتِ الرُّؤى للعُلا، فإنَّ الجُرحَ مَسلكها!

والسورة تخبرك أن تلك سنَّةُ التَّمَكِينِ، ولكنَّ الجِراحَ لها أنين.

فمن عجيبِ إيقاعِ السُّورةِ الصوتيِّ، كثرةُ انتهاءِ الفاصلةِ القرآنيَّةِ بحرفي
(ين).

فهل، كان ذاك إيقاعَ الأنين أم أنينَ الفاصلة!

تتكرر الفاصلة خمساً وأربعين مرة!

والياء صوتُ لَيْنٍ، والنون صوتُ بين الشدَّةِ والرَّخاوةِ، وهما معاً: صوت
أنين!

كأنَّ السورةَ كُلُّها إيقاعُ حزنٍ عميقٍ، ممتدٍ وبعيد!

أنصت معي لنفسية النص، وروح الكلمات!

تتكرر فاصلة «نون» في خمسة وأربعين موضعاً، وتتوزَّعُ النون وحدها
في الفواصل ثلاثاً وتسعين مرة.

والياء في أربعةٍ وستين موضعاً، أما الميم، فجاءت فاصلتها في ثلاثة عشر
موضعاً.

ومع اتساع المدود وبطء إيقاع النون، ينتشرُ صوتُ الأَلَمِ وصمتُ الحيرة
ممَّا يجري.

يمتدُّ صوت الياء حتى تكاد تسمع في أنفاسها:

«يا وحشةً ما نأى!».

«مولاي، متى المنتهى؟».

يَمْسُكُ صَوْتُهَا حَتَّى كَأَنَّ الْمَعْنَى فِيكَ، وَهَكَذَا يَكْتَمِلُ الْحَزْنُ عَبْرَ تَكَرُّرِ
الْحُرُوفِ وَمَدِّهَا.

«كَأَنَّ يَوْسُفَ لَا يُرَوَّى بِالْحُرُوفِ، بَلْ تَرْوِيهِ الْفَاصِلَةُ!».

«وَمَا فَاصِلَةُ (عَيْن) فِي سُورَةِ يَوْسُفَ، إِلَّا شَهِيْقُ الرُّوحِ وَهِيَ تَكْتُبُ
نَجَاتَهَا!».

تَتَوَافَقُ فِي ثَنَائِيَةِ عَجِيْبَةٍ: الْمَرَا حُلُ وَإِيقَاعُهَا، كَأَنَّ إِيقَاعَ السُّورَةِ كُلِّهَا:

نَبْضُ الْغَيْبِ، النَبْضُ السَّرِّيِّ لِلْسُّورَةِ!

وَهَكَذَا تَكْتَضُّ السُّورَةُ بِتَأْوِيلِ الرُّؤْيَا، لَكِنْ عَبْرَ خُطَى تَتَوَغَّلُ فِي الْأَلَمِ!

وَبَيْنَ الرُّؤْيَا وَالتَّعَثُّرُ فِي بُلُوغِهَا، بَدَايَةُ لَا تَشْبِهُ النِّهَايَةَ!

إِذْ عَجِيبُ الْقِصَّةِ..

أَنَّ الْإِبْتِلَاءَ هُوَ مَنْ أَطْلَقَ عَقَالَ الرَّحْلَةِ، مِنْ قَيْدِ الْمَكَانِ إِلَى شَتَاتِ

الْمَنَافِي!

تُنْهَكَ الْحَوَاسِ وَيُنْهَكَ الْحَدْسُ فِي رَغْبَةٍ مَا نَرِيدُ وَلَا يَقَعُ إِلَّا مَا اللَّهُ

يُرِيدُ!

نَحْنُ نَرَى كَيْفَ يَتَكَثَّفُ فِي الْقِصَّةِ حُلْمُ كَوْنِي، وَالتَّأْوِيلُ عَلَى جَسَرِ

الْمُسْتَحِيلِ!

يَنْبَجِسُ الْحُلْمُ، مِثْلُ مَوْجَةٍ تَظَلُّ تَتَسَّعُ حَتَّى تَبْلُغَ بِيَوْسُفَ خَزَائِنَ

الْأَرْضِ!

تُؤَمِّضُ الْأَحْدَاثَ عَبْرَ الرُّؤْيَا.

تَتَأَهَّبُ الْبَدَايَاتُ، وَيُضْيِئُ الْعُرُوجُ مِنْ قَدَرِ الرَّحِيلِ الْمَرِّ!

يَخْتَزِنُ يَعْقُوبُ التَّعْبِيرَ، وَيَخْشَى قَدْرًا مَخْبُوءًا فِي بَاطِنِ الْمَعْنَى.

يَنْفَجِرُ شَلَالٌ مِنَ التَّأْوِيلِ، كُلُّ حَلْقَةٍ فِيهِ مَحْبُوكَةٌ السَّرْدِ، كُلُّ حَلْقَةٍ تَضِيءُ

مَرَحِلَةَ فِي الرَّحْلَةِ.

حتى تبلغ بيوسف فوق المُستحيل ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ ﴿١٣﴾
تبدأ القصة بما لا يوحى لك باكتمال المعنى، فقد تعثرت الرؤيا من أول
السَّطَر ﴿وَأَلْقَوْهُ فِي غَيَبَتِ الْجُبِّ﴾ ﴿١٤﴾
في ذلك التعثر، ثمّة ما كان يعرج للأفق حينها.

ثمّة ما يشبه الفلق!

إذ كيف ستصل قدماه إلى غيب الوعد دون أن يطئ مضارب البعد!

فقل لي: (من الذي أوصى المسافات أن تباعد)!

ربما الجواب يقيناً، أن القدر وحده هو سر القرب والبعد!

وسورة يوسف هي الجمال الذي لا يشبه سواه، حيث تتوهج السورة
في تفردّها!

إذ تَفَرَّدُ..

في جسر العبور إلى التمكن، عبر الألم الإنساني!

تَفَرَّدُ..

إذ يضيء يوسف في غربة.

وكان الأصل، أن النّفي يقتله!

تَفَرَّدُ..

في رؤيا تنسج التأويل على قدّم المحال!

المحال في أن يكون الرحيل نجاة من قيد المكان والزمان إلى سنابل
تنتظر تأويلها!

والمحال في تناقض الصور.

ففي البئر المهجورة هلع العطش، وفي صفرة السنابل هلع البشرية.

وفي الرحلة كلها أسرار الري!

من بئر الطفل، إلى ربي السنابل، إلى بكاء يعقوب، إلى سقاية مصر كلها!
 أي حكمة هذه التي ترسم مشهد الوجود؟
 وفي مفارقة عجيبة بين المكان والقدر، تتصاعد الدهشة من بلاغة التدبير
 الإلهي.

تتفرّد السورة..

بِصَخْبِ الصَّمْتِ فِي حُزْنِ يَعْقُوبِ!
 تتفرّد السُورَةُ بظلال صوتية في مشهد ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ ﴿٣٢﴾ الفريد في
 حسّه اللغوي وشدّته التعبيرية.
 وفي هَواءِ الهاء، كان خَفَقُ الشَّهْوَةِ يَشْتَدُّ!
 تنفرد السورة، باستغفارٍ مؤجَّل ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ ﴿١٨﴾
 فقد كان الجرح نازفًا!
 تتفرّد بيوسف، يُصالح حُزنه كي يصلَ إلى مقام {المُخلصين}!
 وتنفرد السورة، في تقابل الصُّور:
 ظمًا للشَّهْوَةِ، وارتواء العِفَّةِ.
 الانتظارُ، حَدُّ الاحتضار.

الأعذار الباهتة، والتَّسامي عن العتاب!
 قُروح الروح التي تحتاجُ إلى ألفِ سَوْفَ حتى تلتئم ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ﴾!
 النُّزوح إلى يوسف، بعد أن كان في البئر هو المَطروح!
 وبين الغيابة والصعود سرد من لهيب الدهشة!

(في البناء السردى للسورة نلمح استقرارًا للأحداث بين صعودين، كأنه
 بسط وقبض، بسط إلهي وقبض بحكمة خفية، إذ بين الرؤيا والسعي لقتله
 نرى طفولة كريمة في حُسن يعقوب، وبين رمي يوسف في البئر وفتنة امرأة

العزير نلمح سنوات كثيرة من رخاء القصر، وبين السجن ومواجهة إخوة يوسف نشهد تمكين الحكم لبقية العمر).

وكلما علا الصعود صار الزمان يوسف!

كيف يصير الزمن أنت، وأنت من تمنح الزمن معناه؟

إلا أن تكون في معنك يوسف!

وفي السورة نرى فتنة الطريق وبطء التأويل.

إذ في القصة يسيرُ يوسفُ في دَرَبِ فتنة، لا تَنْضَب، فَيَتَنُّ، تُقَايِضُ يوسفُ عن تحقيقِ الرؤيا.

تلكِ فِتْنٌ، تَوَدُّ لو تَغْتَال الأنبياء!

يشتدُّ أوارُ الفِتْنِ، كُلُّما قَارَبَ يوسفُ على التَّمْكِينِ.

يَخْطُو يوسفُ في لَهَبِ الفتنة، حتى يكاد الطين يرميه في العراء!

ثم ماذا؟

تموج السورة بأسئلة تكاد تغتال اليقين.

ويا للأقدار، كيف تُشْعِلُ المُعَانَاةَ قَبَسَ الوَعْيِ في النَّفْسِ الإنسانية!

كيف يحتشدُ جيلٌ من السنين، في عُمُرٍ قصير؟

كيف تنحُ التَّجَرِبَةُ عُمُرًا، يومه دَهْرٌ؟ وكيف يولَدُ في المَشْهَدِ أَلْفَ أَلْفِ

معنى أو يزيد!

أُسْئَلَةُ تحير العقل.

لماذا تُولَدُ الرُّؤْيَا في وَطَنِ، يزدري الرَّاْيِي؟!

كيف يتكثَّفُ الفَهِمُ من اعوجاجِ المَشَاهِدِ؟

وكيف يستقيمُ القلبُ، في الطُّرُقِ المَلَأَى بِالخَطَوَاتِ العَرَجَاءِ!

وبين حِلٍّ ومُرْتَحِلٍ، يشتدُّ نَزِيفُ السُّؤَالِ.

لماذا؟

هل كان يوسف يَرحل، أم كانت المَسَافَة تَرحل به إلى {خَزَائِنِ الْأَرْضِ}!
وفي السورة تتناقضُ الصُّور في ظاهِرها، وتَلَمَح خَوَاءُ الزَمَن من
التأويل.

تتكرَّر الغيابَةُ في نهايةِ كُلِّ مَشْهَد.

ونَرى الإِثْم، مُتَمَكِّنًا في خَطِّ الْأَحْدَاثِ!

تَفِيضُ الغُرْبَة في ملامحِ يوسُف، قَبْلَ أَنْ تَفِيضَ في خَطَوَاتِهِ.

تلك أَقدَارُ التَّمَكِين، أَنْ يَكُون المُصْلِح غَرِيبًا بَيْن الحُشودِ المُتَشَابِهَة!

وفي السورة يَخْلُقُ المُسْتَحِيلُ المُمْكَن في غَرَابَةٍ عَمِيقَة.

ويولَد المعنى من اللاشيء.

فمن البئر التي منحت الحياة أوسع السقيا، تَنْطَوِي الطُّرُق للسر.

وبينَ لا شيء في البئر، ولا شيء في السُّجَن، يولَد التَّمَكِين على خَزَائِنِ
الأرض!

وأول رحم للرؤيا كان البئر!

وكُلُّمَا أَصْبَحَ ظِلَامُ الحزنِ مُزْمَنًا، أَذْلَى وَارِدُ بِدَلُوهِ.

وجاء البَشِير!

وبين الغُرْبَة والتَمَكِين

واللاشيء ثم كل شيء

والحزن المزمَن ومجيء البَشِير

والاعوجاج واستقامة القلب

تَرى في الْأَحْدَاثِ صِراعَ اللامعقول مع سرِّ القدر.

حيث تواجهك أسئلة كثيرة تظل في ارتباكها، من بعضها كيف
استطاع يوسف أن يجعل الأيام مَلَأَى بالمعنى، فهل كان كل يوم هو
خطوة نحو معنى اختزنه في نبضه، نحو معنى الرؤيا؟

في السُّورة غياب وحضور.

تشَدُّ الغَيْبة، بَيْنَ الرُّؤيا والرَّائي، بَيْنَ المُتَوَقَّع والوَاقِع!

والتمكين بعد العدم.

وفي السُّورة لونان بارزان يتَّضحان:

صَدَأُ التَّساقُطِ للعالقين في الهَامِش، وَرُوحٌ منفردة اتَّسَعَتْ لَأَمَّة!

كَأَنَّ كلَّ رُوحٍ هِيَ ألوان المصائر وألوان النهايات!

خَطَّانُ بارزان:

خط البداياتُ القاسية، وَخَطُ النهايات الجَليلة!

هنا إيقاع القصة:

البداية خَشنة، النهاية مُدهشة، لكن الصوت دائماً يمضي بتيقُّن صامت.

ونبرتَانِ بارزَتان في السُّورة:

نبرةُ الحزن المُكابر، ونبرةُ الصَّمْتِ المُمتلئِ بيقينِ الفُتوح!

وبين جلال التكوين وسرِّ التمكين..

كانت السُّورة مَلَأى بِالإنسانية، وَمَلَأى بما ينتهي معه المِداد، وما

نَفَدَتْ كلماتُ الله!

هل سُورة يوسف، هِيَ سُورة الإنسان الذي إن تجاوز ذاته، بزَغَ

مقامه!

الذي إن تَسامى عَن غواية الانتقام، بلغ العرش!

فالعظمة لا تورث بل تُرتقى.

يبني يوسفُ أضرحةً للذكريات، ويُحيي خلوده بالعفو!

إذ العفو ليس نسيانًا، بل إعادة بناء للماضي ليحيا فوقها.

ثَمَّة ما يُعاد كتابته في قصَّة يوسف، كي لا نُقيم في غَبَشِ المَـشاعـر!

وما أكثر يوسف!

إذ يتسع لكل هذه الفضائل!

وما أوسع، إذ يحتمل نقائص الجميع.

فما هو المعنى؟

هل المعنى أنه لا تستوي نبضات من كتبت مآلاتهم في اللوح المحفوظ،

ومن كانوا على الهامش!

وأن حاشا لله لمن علقت رُوحه في شهوة الذات، ألا يكون مَحذُولًا!

وعلى صهوة المشتاق لقدره مضى يوسف.

يختفي سطر ويتلوه آخر، لكن خطى يوسف تمضي في توحد بين الاختبار

والانقياد لله.

سورة يوسف..

هي رحلة الأسباب نحو المُستحيل، نحو كمال التمكين!

وفي جلال التكوين كان سر التمكين.

ولا يهزُّ جذع النهايات، مَنْ لَمْ يملك جُلال البدايات!

من لا يملك الثبات الذي لا تدكه معاول الفتن.

ومن لا يفقه معنى الخسارات التي صنعت خطى لا تعرف الانهيار.

-ومن لم يملك العلم والحكمة كي يدير خزائن الحياة!

ولقد كتب القرآن يوسف معنى خالداً في الوعي البشري، ومقاماً

يُعاد التوق إليه.

هذه السورة هي «السورة التي تعيد كتابة الإنسان، الإنسان الكامل

الذي ينتظره عرش الخزائن».

يوسف هو المعنى المتوهّج في عمق التجربة البشرية، حيث يتلاقى الألم مع التمكين، والعزلة مع القيادة، والفتنة مع العفاف، ليولد النور من ظلمة الجُب.

يوسف نموذج الإنسان الذي يعتق نفسه من فتنة الثأر، ويتطهّر بالصبر والتسامي، ليصير مرآة للاجتماع الإلهي.

والتأويل يصبح منهجاً لفهم الوجود، والرحلة من الجب إلى العرش هي تجسيد لفكرة أن التمكين لا يأتي إلا بعد التمحيص، وأن الإنسان يُعاد خلقه في عمق التجربة لا على سطح الأحداث.



شيفرة البداية

خارطة الحرف - من «ألر» إلى معنى الرحلة كلها



ألر: هي فاتحة قصة التمكين
«ومن أَلِف التأويل، ابتدأت خارطة الرحلة»

﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ١﴾.

{الر}، تبدو أحرفاً متناثرة، يكتنفها الغموض، لكنها معنى إلهي لمفاتيح فهم القصة.

تجمعنا على مقاصدها فنتدفق بها في علو إذا بلغنا مراد الله في الحروف والكلمات ومجاز المعاني! ونخرج بها من زحام الفوضى إلى أبدية التمكين إذا بلغنا معنى (يوسف)!

لكن لماذا ألر وليس كهيعص أو ن أو ربما صاد، لماذا تُختار أحرف محددة لقصة هي أحسن القصص؟

يهز السؤال ناصية الفهم، ويبدأ السفر إلى معنى المعنى وما اختبأ في حروف الآي.

حيث تنقش الحروف معجز الكلم، وخارطة الطريق إلى التمكين عبر
أحرف ما زالت مبهمة.

والبداية من ألف الرؤيا إلى راء العرش

الر، ردّدها، تتسع اللام في المدّ، وتلحقها نهاية راء مفتوحة المدى!
ربما تبدو القصة في بسط أحداثها مثل ألف، ثم لام ممتدة يطول زمن
نطقها.

وتختتم براء مفخمة يرتفع بها اللسان إلى العرش!
ومما يوحي لك أن كل حرف جزء من وصف مراحل القصة.
الراء تتكرر في مفردة الرؤيا ومفردات أخرى قبل أن تهبط بيوسف على
العرش.

ومن راء الرؤيا إلى راء العرش، ترافق يوسف أحرف تشكّل ارتفاعاً
وانخفاضاً تماماً مثل رحلة التمكين، وهي تصعد وتهبط.
لكنها في آخر السورة تتجلى في خاتمة تتدخل فيها راء الربوبية فتنقل
الرؤيا من الحلم إلى الحقيقة، إلى (قد جعلها ربي حقاً)!
وراء الربوبية وحدها من يختم النهاية!

هنا الخطوط الصوتية لمسار التمكين والحروف تحكيها، الألف مبسطة
في اتساع على كل الاحتمالات، واللام تمتد وتكاد تصف طول زمن الاختبار
والابتلاء ثم الراء التي ترتفع فيستقر الصوت وينتهي وتنتهي المحنة!
وهنا علو الانسجام بين الإيقاع الصوتي والمعنى المقصود، ونغمة الرحلة
كلها مختزنة في معاني الأحرف الأولى!

وهكذا في فضاء الحروف كل معاني الرحلة

حيث جاء صوت الألف واللام والراء بنسبة عالية جدّاً، مما يوحي بالتماسك
من أول السورة حتى آخرها، إذ تكرر صوت (الألف) في السورة: ١١١،

وصوت (اللام) في السورة كاملة ١١١، وبلغ تكرار صوت (الراء) في السورة تسعين مرة على الترتيب الذي وردت به في الأحرف المقطعة. وهي أعلى نسبة ورود للأحرف في سورة يوسف قياسًا ببقية الأحرف فيها!

فهل هذا الترتيب مقصود؟

في النسيج الدلالي تتوهج الأحرف المقطعة كـ «مفاتيح» لفهم الجوهر الداخلي للسورة.

وتبدو «أدوات تمهيدية» لبداية رحلة يوسف، في تماسك صوتي وبلاغي يعكس تناغمًا بين مختلف مفردات السورة، وحينها تَقْفُ على الإيقاع العام للقصة، ويرتفعُ لك مِنَ الأحرف معنى.

فالألف واللام في امتدادها هي طول الرحلة في اختبارها.

واللام في التوسع والانفتاح، كما لو أن السورة تفتح لك أبوابًا من المعاني التي تتسع بمرور الزمن.

والراء، كأنها تمثل الصعود والهبوط، والرحلة الصعودية من القاع إلى العرش، إذ ترتفع الراء في مخرجها إلى أعلاها وتستقر هناك وينتهي امتداد طال به البلاء، وهذا ما كان.

فهل هذه بوابة رمزية لسر الرحلة كلها، من الحروف الأولى إلى المعنى الأخير؟!

آلر، إذن هي شيفرة الكلمات المعجزة.

خارطة صوتية تكشف نهايات القصة من بداياتها الصوتية!

وبهذه الأحرف، حروف التمكين الأولى..

يهتدي النبض المُشَوَّش، فلا يَرْتَدُّ القلبُ أَعْمَى!

حيث تُخِيط الكلمات مَسَافَات الحُزن، وتَجعل منها قَميص البُشرى في
بسط متسع، وامتداد لا ينتهي، ثم استقرار في وضع الارتفاع، فهل ترى
الرحلة في أول أحرفها؟!

وحدها أحرف القرآن تصنع الممكن من المستحيل، ومن الجزء تصل الكل
في نسيج هو ميقات الوعد!

توصل لك الخطوط من أولها حتى منتهائها فتكون حبل النجاة.
فقل لي بربك، كيف تُعيد الأحرف المقطعة صياغة الحياة؟
فتسوقُ الربيعَ إلى السنابل، وتمنح الزمانَ مواسمه! وتُعلمنا، كيف نكون
أُمَّةً على {خَزَائِنِ الْأَرْضِ}!

ويا الله، كيف لأحرف أن تحوي هداية البشرية مهما كان حجم التيه؟
وكيف للكلمات أن تنقلنا من الاضطراب الإنساني إلى السكينة القرآنية؟
حتى تكون يوسف المرحلة!

كيف؟ وذلك كله سؤال القصة!
ومَا الكتاب اللامتناهي، إِلَّا مِنْ تِلْكَ الْأَبْجَدِيَةِ الْبَسِيطَةِ.
وتلك هي الْحَقِيقَةُ الْوَاضِحَةُ الْمُعْقَدَةُ فِي آنٍ وَاحِدٍ:
أَنْ يَكُونَ الْمُعْجَزُ مِنَ السَّهْلِ، وَالْعَظْمَةُ، مِمَّا تَتَنَاوَلُهُ أَيْدِي الْقُدْرَةِ الْبَشَرِيَّةِ!
ومن غموض الحرف إلى وضوح التمكين، يقول الله تعالى:
﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝﴾

والتعبير باسم الإشارة للبعيد يوحى لك بعلو يحتاج منك إلى جهد ومشقة
كي تبلغ معاني الآيات!

كي تملك خارطة التمكين، فهي تلك الآيات!
ففهم المراد وتفسير المعاني يحتاجان إلى علو كي ترتفع إليه.
ثم {الْمُبِينِ}.

فأحسن القصص لا يحتمل مبهمًا أو غموضًا وهو يكشف عن
قوانين التمكين على عرش الخزائن!
فلا بد أن يكون مبيّنًا.

تتحرك المفردة بكل أصواتها لتوحي لك بالمعنى، فالميم مجهورة، والباء
شديدة مجهورة، والنون كذلك، وكلها تحاكي قوة الإعلان والظهور، إذ الصوت
المجهور هو القوي في وضوحه وظهوره.
حيث، الميم: انغلاق في بدء الطريق.
الباء: انطلاقا قوية مشددة.

النون: انسياب ونهاية تنفتح على الخاتمة.
كلها أصوات تخلق نغمة الإفصاح التدريجي!
وكي لا يضل الوعي طريقه، جاء التعبير بـ (اسم الفاعل) مبين الذي
يحمل معنى ثبوت الإبانة واستمرار الفعل، فهو مبين الآن وغداً وقبل الأمس،
وفي اللحظة الحاضرة!
{المُبين}، إذ هنا خارطة التمكين للأمة وهي مبينة لأمة يراد لها أن
تمتلك سنان التاريخ.

وفي السورة كل خارطة السابق واللاحق ومراد الله منا في الحاضر، كي
نبلغ التمكين.
ومن العجيب..

أن تتكرر الفاصلة أربع مرات في السورة!
ورغم ذلك يُقابلها رؤى رمزية غامضة:
واحدة في الطفولة، وأخرى في السجن، يكتنفها ضباب المعنى!
فكيف هو مبين، وكل ما في السورة يكاد لا يبين!
الحكمة، الغيب، وحشة المسافات، وسؤال لماذا!

ثم ماذا؟

ثم السُّورة مليئة برمزية المعنى، بدءًا من الحُرُوف المُقطَّعة، ورمزية الرؤيا.

حتى كأنَّ ثَمَّة ما هو عنكَ يَحْتَجِب، غيب وغيابة جب وغموض عجيب!

لكن ذلك كله رغم الغامض المتواري في القصة مبين وهذا ما ستفهمه من لغة الآيات!

مبين لأن ثمة الكثير من الغموض والتهيه سيكتنف الطرقات والخطوات لولا (تلك) الآيات.

وفي فراغ الأيام من الرشد لن نصل إلا بالكلمات، وفي مخزون السورة كل خارطة الطريق إلى التمكين! فأكمل تفسيرها..

تر المعاني

بَيِّنَةٌ

مُبِينَةٌ

تُبِين!

ومن الحرف إلى الوعي، تولد يقظة العقل!

فكان أن، ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ ﴿٢﴾

فلماذا عربيًّا؟

لأن، اللغة التي تكتب خارطة التمكن، لا يليقُ بها عثرةُ التعابير!

وفي اللغة العربية تُصَبُّ المعاني الإلهية الجلية، فإذا المُراد الإلهي، هُوَ هُو!

والغاية:

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(٢)، هنا، يعلن القرآن غاية الإبانة ومقصد اللغة والمراد من نسيج الحروف.

حيث يتدفق القرآن بِمَدِّ، ملؤه الوَعْي، فينزع عَنَّا الْوَهْم والَزَّمْد!
﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(٢).

إذْ لو عَقِلْنَا، ما صارَ يوسُفُ فينا سَقَطَ المَتَاع.

لو عَقِلْنَا، ما كُنَّا أَشْوَكَ الأَحْلَام.

لو عَقِلْنَا، ما جَفَّتِ السَّنَابِلُ دُونَ {مَا يَحْصِنُونَ}.

لو عَقِلْنَا، ما كَانَتْ السُّنُونُ سُدًى، بَلْ {دَابَّأ} وَلَا كُنَّا فِي قَوْضَى الْجُوع.

لو عَقِلْنَا، ما ضَاعَتْ سَنَنُ الحَيَاةِ والتَّارِيخِ وصرنا في قافلة المتسولين!

لو عَقِلْنَا، ما كَانَ الشُّخُوصُ الْإِثْمُونَ حُرَّاسَ الْحِمَى!

لو عَقِلْنَا، ما حَاصَرَتِ الْعَصْبَةُ رُؤَاا الْآتِيَةِ!

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(٢).

نَهَايَةِ، يُمَدُّ الصَّوْتُ فِيهَا بِالْفَاصِلَةِ الْقِرْآنِيَةِ عَلَى ثَلَاثَةِ مَسْتَوِيَّاتٍ فِي الْقَصْرِ وَالتَّوَسُّطِ وَالْإِشْبَاعِ.

يمد الصوت بكل حالات المد كأنه نداء الْيَقْظَةِ!

وَدُونَ ذلك قَوْضَى الْجَهْلِ!

وتأمل فعل القرآن في الكلمات.

إذْ يُعْبَّرُ عَنِ الْعِلْمِ بِالْعَقْلِ، وَكَانَ الْمَتَوَقَّعُ قَوْلُهُ بَعْدَ الْإِبَانَةِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ، لَكِنَّهُ قَالَ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ.

لَا تَقْرَأُ الْمَفْرَدَةَ مِنْ وَجْهِ لَغْوِي فَقَطْ، بَلْ مِنْ مَقَامِهَا الْوُجُودِي فِي السُّورَةِ.

أي: من أثر عدم التعقل على الأمة ومصيرها.

فالتعبير مقصود للإشارة إلى أنَّ دلالة القرآن قد بلغت في الوضوح حدَّ أن ينزَّل من لم يحصل له العلم منها منزلة من لا عقل له.

وكل تلاوة بلا عقل، عثرة أمة!

وما عقلك إلا على قدر علمك وفهمك لآيات الكتاب!

ولا شيء سوى ذلك.

ولا شيء سوى ذلك إلا الخسارات!

سورة يوسف تبتدئ بالحروف المقطعة «ألر» بوصفها شيفرة صوتية وبلاغية تُجسد خارطة التمكين في سورة يوسف، وفيها سر البدايات المؤلمة والنهايات العظيمة. وفي التكوين الصوتي لأحرف «ألر» اختزال لرحلة التمكين من الامتداد (الألف واللام) إلى الاستقرار (الراء)، وهنا مفاتيح الوعي، حيث الحرف القرآني وحده كافٍ لقيادة الروح من غيابة الجبِّ إلى عرش التمكين، إذا تعقَّله القلب الواعي.





مفتتح الرؤيا

أَحْسَنُ الْقَصَصِ - هُنَا، خَارِطَةُ الْفَهْمِ: مِنَ الْحَرْفِ
إِلَى التَّمَكُّينِ، مِنْ أَلَرِ إِلَى الْعَرْشِ!



خَارِطَةُ فَهْمٍ تَتَدَرَجُ مِنَ الْحُرُوفِ إِلَى بَصِيرَةِ الْمَعَانِي.

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ 3

نحن، بضمير العظمة، وتقديم الضمير على الخبر الفعلي مما يفيد الاختصاص.

فهو الله.

وجلَّ الله، وسع بكل كلمة أكوأنا من معنى المعنى.

كل كلمة منه تهبنا معراجاً إلى الوعي، أو بالغفلة عنها دَرْكاً إلى النار.
وَالْقَصَصُ: مَنْ قَصَّ الْأَثَرِ، إِذَا تَتَبَعَ مَوَاقِعَ الْأَقْدَامِ لِيَتَعَرَّفَ مِنْتَهَى سِيرِ
صَاحِبِهَا.

كَأَنَّ الْآيَ تَخْبِرُكَ، هُنَا كَانَتْ خُطَى التَّمَكُّينِ مَلءَ ذَاكِرَةِ الْكَلِمَاتِ، وَمَا زَالَتْ!
و{أَحْسَنَ الْقَصَصِ}، لِأَنَّهَا حَدِيثُ الْحَقِيقَةِ عَنْ ذَوَاتِنَا، عَنْ سَنَنِ الْجَدْبِ
وَالْوَفَرَةِ.

وَعَنْ فَجِيعَةِ الظُّلَمِ.

عَنِ الْحُزَنِ، حِينَ يُصْبِحُ عُمْرُ نَبِيِّ!

{أَحْسَنَ الْقَصَصِ}.

لأنَّهَا تَحْكِي لَكَ، أَنَّ الْجِرَاحَ تَتَكَرَّرُ كَيْ نَلْتَمِمْ، وَكَيْ نَتَعْلَمَ كَيْفَ نَتَعَاثَى!

تَبْدُو الْأَحْدَاثَ فِيهَا غَامِضَةً.

فَإِذَا انْكَشَفَتْ، رَأَيْتَ خَرَائِطَ الْأَحْلَامِ، وَرَأَيْتَ وَاغِرَ الْأَلَمِ فِي السُّورَةِ،

كَأَنَّهُ ضَرُورَةُ الطَّرِيقِ!

{أَحْسَنَ الْقَصَصِ}.

إِذْ عَلَّمْتَنَا، كَيْفَ ظَلَّتْ فِي يَدِ يَعْقُوبَ (مَسْبُوحَةٍ مِنَ الدُّمُوعِ)، تَنْتَظِرُ

الْإِجَابَةَ يَقِينًا!

سُورَةٌ تَقُولُ لَكَ:

إِنَّ صَوْتَ النَّجْوَى عِنْدَ اللَّهِ، بِهِئِ النَّشِيجِ.

وَفِيهَا تَرَى تَجَلَّى الْمَالَاتِ، وَكَيْفَ تُحِيلُ الْخَوَاتِيمَ الْانْكَسَارَاتِ، عُرُوجًا!

{أَحْسَنَ الْقَصَصِ}.

فَفِيهَا يَبْدُو الطَّرِيقُ، جُرْحًا يَتَلَوُّهُ جُرْحُ.

وَيَبْدُو نَحْنُ، شُظَايَا تَمْلُونَا الشُّظَايَا.

وَنَظُنُّ، أَنَّ الْخَطَوَاتِ تَسْكُنُهَا عَشَوَاتِيَةٌ مَا، لَكِنَّهُ التَّدْبِيرُ الَّذِي نَعْجَزُ عَنْ

رُؤْيَتِهِ فِي الْمَدَى الْقَصِيرِ!

{أَحْسَنَ الْقَصَصِ}.

حَيْثُ نَرَى خَطَّ الزَّمَنِ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ، مُكْتَمَلًا.

وَفِيهَا يَكْشِفُ لَكَ الْقُرْآنُ، الْحُجُبَ عَنْ رَحْلَةِ الرُّؤْيِ الْعَالِيَةِ!

وَتَفْقَهُ..

أَنَّ حَيَاةَ يَوْسُفَ، كَانَتْ ابْتِهَالًا صَامِتًا، حَتَّى كَأَنَّ الْعَذَابَاتِ، جَلَالَ الرُّتَبِ!

{أَحْسَنَ الْقَصَصِ}.

إِذْ تُعَلِّمُكَ، كَيْفَ كَانَ الْفَقْدُ خَلاصَ يَوْسُفَ.

وَكَانَتِ الْغُرْبَةُ، وَطَنَ التَّأْوِيلِ!

تَتَكَثَّفُ الْغُرَبَاتُ فِي غُرْبَةٍ، فَإِذَا بِهَا مَعْنَى (الاجْتِبَاءِ) وَفِي مَكُونِهِ
(اصْطِفَاءِ) سَبْقَهُ (اخْتِيَارِ)!

فَامْتَلِئْ بِالَّذِي يُبَيِّنُكَ آيَةٌ تَبْلُغُ بِهَا أَنْ يَصْبِحَ عَمْرُكَ سُورَةً!

وَحُذِّ الوَعْدُ بِقُوَّةٍ.

أَحْسَنَ الْقَصَصِ لِأَمَةٍ يَرَادُ لَهَا أَنْ تَكُونَ أَحْسَنَ قِصَصِ الْبَشَرِيَّةِ
وَالتَّارِيخِ.

وَفِيهَا كُلُّ قَوَانِينِ التَّمَكِينِ، وَهَنَا سَنُنِ اللّٰهَ الَّتِي لَنْ تَحَابِي أَحَدًا.

سُورَةُ يَوْسُفَ، هِيَ قِصَّتُنَا.

وَالْمُعَانَاةُ، نَامُوسُ التَّمَكِينِ.

وَالتَّضْحِيَّةُ، قَدَرٌ مِّنْ أَرَادَهُمُ اللّٰهُ (مَنَارَاتُ فِي غَبَشِ الْحَيَاةِ)!

وَفِي سُورَةِ يَوْسُفَ، كُنْتَ أَنْتَ وَكُنْتَ أَنَا!

لَكُنْ أَمَّا الْمَرَايَا الْخَفِيَّةُ لِبَعْضِ مَا فِينَا.

فَأَنْتَ فِي سُورَةِ يَوْسُفَ، الْمُسَافِرُ فِي وَعْثَاءِ الْعَجْزِ.

أَقْدَامُكَ عَلَى (رَمْلِ التَّلَاشِي) تَخْطُو، وَقَدْ خَذَلَكَ الْقَرِيبُ!

فِي سُورَةِ يَوْسُفَ..

تَوْصِلُكَ الشَّهْوَةُ إِلَى الْأَبْوَابِ الْمُغْلَقَةِ.

فَإِذَا أَنْ تَقْدَّ قَلْبَكَ وَتَعْتَقَ عُمْرَكَ، وَتَغْدُو الْجِرَاحَ عَلَى الثِّيَابِ أَوْسَمَةَ
الْثَّبَاتِ.

وَلِأَنَّ تَغْيِيْبَكَ الْخَطِيئَةَ نَكْرَةً مَا بَقِيَتْ، فَلَا تُعْرِفْ إِلَّا بِ {أَمْرَاتِ
الْعَزِيزِ}.

كأنك بلا اسم، فذاك هو وزنك في الحُضور المَجيد!

في سُورة يوسف..

أنت ياء الغياب في السُّجن، {يا أيُّها الصَّدِّيق}.

لكنَّه غيابٌ مُمتلئ الإياب في القادمِ مِنْ عُمْرك، إنْ رابَطْتَ على مقام
الصَّدِّيق!

فالسجن مختبر اليقين!

في سُورة يوسف..

أنت في زَمَن الإحراج، ولحظة بينَ وبينَ.

وفي مَوْقف الاختبار، بين أنْ يَسْلُبَكَ خَراب الذِّكريات تَوَقيعك المَشهود
على وثيقة العفو، أو أنْ تقول سائرًا تلك الجِراح ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ
السَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ ﴿١٥﴾

أنت وأنا في سُورة يوسف!

لذا كانت {أَحْسَنُ الْقَصَصِ}.

إذ يوسُف هو الدَّرْس.

إذا وهَبْتَ لله الشَّباب، لم تَسْتَبِدَّ بك الصُّعاب!

والأمة كلها هنا في سورة يوسف في سنن التمكين، هنا قصة تمتد في كل
القصص.

والطريق هنا الرحلة إلى التمكين.

في السُّورة..

تَفُلُّ النهاية ضفائر القصة كُلِّها، فلا امرأة العزيز ولا إخوة يوسُف، إلا
معنى المُساوَمَةِ عَنِ البُلُوغ!

وقد كان التَّأويل في نهاية الطَّرِيق يَنْتَظر.

وكانت امرأة العزيز، فِتْنَةً تَشَاغِلُهُ عَنِ شاهقة الجَلال.

ذَاكَ مَتَاعٌ لَوْ رَفِيلٌ فِيهِ يَوْسُفُ، لَمَا بَلَغَ مَقَامُ: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾ ﴿١١﴾

أولئك جميعًا كانوا عوائق مرحلية!

قِصَّةُ يَوْسُفَ..

هِيَ قِصَّةٌ مَنْ كَانَ عُمُرُهُ نَهَارًا كَامِلًا.

قِصَّةُ الْقُلُوبِ الَّتِي تَتَسَامَى عَنْ بِلَلِ الْإِثْمِ، فِي ابْتِهَالٍ خَفِيٍّ!

فَاسْتَحَقَّتْ أَنْ تَكُونَ {أَحْسَنَ الْقَصَصِ}.

هَكَذَا إِذَنْ، نَحْنُ أَمَامَ مَقْدَمَةِ رِسَالَةٍ لِمَنْعَةِ الْأُمَّةِ.

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ﴾ ﴿٢﴾.

هنا، خارطة الفهم: من الحرف إلى التمكين، من أُر إلى العرش!

حيث خارطة الفهم تبدأ من فهم الحروف والكلمات والدلالات.

وانتبه: كيف تَكَرَّرَ ذِكْرُ الْقُرْآنِ بِالتَّصْرِيحِ وَالْإِضْمَارِ وَاسْمِ الْإِشَارَةِ سِتِّ مَرَّاتٍ!

جَمَعَ اللَّهُ لَهُ طُرُقَ التَّعْرِيفِ كُلَّهَا فِي السُّورَةِ: اللَّامُ، وَالْإِضْمَارُ، وَالْعَلَمِيَّةُ، وَالْإِشَارَةُ، وَالْإِضَافَةُ.

فهنا الكمالُ في عَرِشِهِ الْكُلِّيِّ.

حَيْثُ الْقُرْآنُ فِي مَقَامِ الْمَعْرِفَةِ الْمُطْلَقَةِ.

فَهُوَ الْمَعْرِفَةُ النَّامَةُ، وَمَا سِوَاهُ غَفْلَةُ الْغَافِلِينَ!

أَلَرُّ، ثُمَّ الْمُبِينُ، ثُمَّ عَرَبِيًّا، ثُمَّ أَحْسَنَ الْقَصَصِ، ثُمَّ نَحْنُ.

ثم هذا القرآن بكلِّ أدوات التعريف.

ثم الخاتمة: الغافلين.

وهذا الترتيب ليس عبثياً، بل يبني نُسقاً مفاهيمياً متدرّجاً يصعد بالقارئ من الحرف إلى البيان إلى الهوية إلى الرسالة إلى الفاعل الرباني ثم إلى المنهج المعرفي الكامل (القرآن).

ليست هذه أحيّة، ولكنها تراتبيّة تُخبرك أنّ الطريقَ لأمّةٍ يُرادُ لها أن تكون أحسنَ القصص..

يبدأُ من هذه الأحرفِ التي كُتبت بها الكلمات.

وهنا خارطة فهم تتدرج من الحروف إلى بصيرة المعاني.

وما سوى ذلك، متاهة الغفلة!

وإمّا وحيٌ يقودُ إلى التمكن، وإما جهلٌ يُفضي إلى التّيه.

(في مسار تصاعدي للفهم يبدأ من الحروف الأولى إلى بصيرة المعنى، حيث تتجلى سورة يوسف كخارطة إلهية لصناعة أمة مُمكنة، ومن التعريف التراكمي للقرآن إلى التدرُّج من الحرف إلى الرسالة تُبنى القصة.

حيث القصص القرآني لا يحكي حكاية، بل يبينك روحاً ووعياً، ويعلن أن فهم السنن يبدأ من فهم كل حرف وكل كلمة، وأن لا تمكين بلا عقل ولا هوية بلا وعي قرآني).





مشهد الرؤيا

إني رأيتُ - خارطة الرؤيا تشع بصيرة
في قلب الصغير



إني رأيتُ، كلمة ستحتاج إلى عمر نبي كي يتجلى التأويل!

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾ 4

لم تكن تلك ليلة عادية، ينام الصغير على وسادته فيرى أسراراً قدرية في لحظة قدسية ويبدأ الاجتباء!

معانٍ هائلة، توقدها الرموز، وفي التعبير غيوم أسئلة كثيرة!
يهزول يوسف {لأبيه}، فقد كان المدى في عين يوسف فارغاً، إلا من أبيه.
والتعبير هنا يُباغت القصّة بالحقيقة: أن إخوة يوسف غابوا في متاهات
البُعد عن قلبه باكراً!!

إذ عادة الأخ أن يمدّ قلبه لإخوته، ويخطّ أسرارَه في داخلهم، لكن يوسف
كان وحيداً.

فتمّة مسافات بين الصغير وإخوته، وهذه هي الحقيقة.

والتعبير بـ(إن)، فيها صوت الهمزة الشديدة القوية المعروفة بصوت انفجاري وتشير إلى لفظة عظيمة لأمر جلل، والجلل في تعبير القرآن عظيم! يتقد يوسف بإحساس غريب وينهمر في صوته، {يَا أَبَتِ}.
وَيُدَثِّرُ يَوْسُفَ أَنْفَاسَهُ الْمُثْقَلَةَ بَيَاءَ النَّدَاءِ كَأَنَّهُ يَطْلُبُهُ كُلُّهُ! فثمة همس يحتاج إلى قرب أشد من القرب!

{يَا أَبَتِ}، كلمة واحدة تختزل امتلاء يوسف بأبيه.
وفيهما تسمع أصوات الشدة والجهر في الهمزة والباء التي توحى بقوة السند في النداء.

وَبِكُلِّ مَا مَنَحَتْهُ الرُّؤْيَا مِنْ يَقِينٍ، قال: «إِنِّي رَأَيْتُ».
يُحَدِّقُ الصَّغِيرَ إِلَى أَبِيهِ، وَتَتَوَهَّجُ فِي مُقْلَتِهِ رُؤْيَى، وَيَبْشُرُ لِأَبِيهِ بِالرُّؤْيَا فِي تَضَادٍّ غَرِيبٍ.
يتناول بريق اللغة إلى علياء تجذب يوسف.

ثُمَّ حِصَادٍ، يَنْتَظِرُ يَوْسُفَ، وَثَمَّةٌ سَنَابِلٍ، وَيَصْطَفُ النَّعِيمَ نَجْوَمًا وَأَلْوَانًا، وَيَنْهَمِرُ الْمَطَرُ.
ويرى الكون يخضع له.

يَا أَبَتِ، إِنِّي رَأَيْتُ، وَمِنْ وَقْوَةٍ وَضُوحِهَا عَبْرٌ بِرَأَيْتِ كَأَنَّهَا فَجْرٌ غُلُقٌ فَوْقَ نَاصِيَةِ الْحَيَاةِ!

فهل كانت هذه خارطة النبوة، وبها تُضَاءُ بدايات التأويل!
كانت الرؤيا تبشر بأول الخروج!
لكن يوسف كان طفلًا بأحلام صغيرة، وفي عينيه صلاة متصلة.
تتكشف الأسرار في رؤيا، رموزها ملأى بغموض عميق، وسيحتاج يوسف إلى عمر نبي كي تتجلى!

(والرؤيا إشارة إلى أَنَّ الله هياً نفسه للنبوءة فابتدأه بالرؤيا الصادقة كما جاء في حديث عائشة «أَنَّ أَوَّلَ ما ابتدأ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من الوحي الرؤيا الصادقة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح»، وهنا الفارق بين «الرؤيا الصادقة» و«أحلام الذات».

﴿يَتَأَبَّتْ إِيَّيْ رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ ١، تسحب يوسف معانٍ لا تُرى إلى مقام تجلٍّ عال.

{أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا}، وفي اختيار الكواكب تبصر معنى الحياة، فهي كواكب تسجد مثل العقلاء، وتتصرف كأنها أحياء، وهي هنا رُموز الأشخاص.

والرؤيا تعلن: أَنَّ المَدَارَات كُلَّهَا سَتَسْجُدُ عِنْدَ الْعَرْشِ!

يبدو صدق الكلمات كأنه كواكب تنزاح من مواقعها.

يلهثُ الخيال في توقُّع مدى الوعد، هناك حدث، سيستدرجُ الكواكب من مواقعها!

وسيحركها من استقرارها، ويوسف في يقين يقول:

إني رأيت، وبعدها بدأ المكان يتسع للتأويل!

تتقدُّ الأبجدية العربية في كلمات الرؤيا، كُلُّ كلمةٍ، مُثْقَلَةٌ بأسرار الغيب! ثم ماذا؟

ثم، ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ وهما رمز لليل والنهار، حيث دورة الزمن المُكتملة.

مَا الْمَعْنَى إِذَنْ؟!

أكانت تلك إشارة، أَنَّ نعليه في الرحلة لهما زمنٌ ربما سيطول؟

أم كانت معنى أمه وأبيه، وكلاهما في سجود تعظيم لصغير سيفصح الغيب عما ينتظره!

ربما، إذ دوماً الذين تراءوا على ضفة الوعد، شقُّوا المسافات.

انْبَقُوا مِنَ الْمَنَافِي، وَأورِقْ فِيهِمْ معنى عميق!

يبدو الزَّمَنُ قَدَرَ التَّمَكِينِ، فهل كانت الرِّحْلَةُ تَتَلَو قَرَابِينَهَا ووقتها وزمنها!

يدنو التأويلُ، ليبدو الامتداد في الغُربة قَدَرَ الحكاية، ثمة شمس وقمر وكواكب وكلها سلوك الوقت.

يُضِيءُ المعنى في عَيْنِي يَعْقُوبُ، ينزاحُ المعنى وَيَتَّسِعُ.

فَقَدْ كَانَ فِي بَاطِنِ الرُّؤْيَا، رُؤْيَا!

﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَجِدِينَ﴾، يعاد فعل الرؤية تأكيدًا لفظيًا أو استثنائيًا بيانًا.

حيث يؤكد يوسف الكلمة، إذ لم تكن تلك فَوْضَى أحلام، بل التكرار للتأكيد.

لقد كَانَ المعنى عُبورًا بِاتِّجَاهِ المُسْتَحِيلِ، فاحتاج إلى تكرار الفعل.

وكانت الرُّؤْيَا تُورِقُ بِأَمْنِيَّةٍ، حُدُودُهَا فَوْقَ مَا يَطِيقُ الْخِيَالُ!

﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَجِدِينَ﴾.

واستعمل ضمير جمع المذكر للكواكب والشمس والقمر.

إذ لَمَّا كانت الحالة المرئية من الكواكب والشمس والقمر حالة العقلاء،

وهي حالة السجود، نَزَّلَهَا منزلة العقلاء، وهنا الكواكب تسجد بإرادتها في موقف من الطاعة والاعتراف بعظمة يوسف.

والأشد غرابة سجود الأبوين، إذ هذا من محال ما يجري أن يعظم الوالدان الصغير لديهما.

والخضوع يكون للمُلكِ والتَمَكِينِ وهو محور هذا المعنى، وكأن الرؤيا تكشف أن الوجود كله سيتوجه في النهاية نحو الاعتراف بهذا التمكن ويوسف هو نواة دائرة مركزها القلب وأطرافها مجراتُ تُسَلِّمُ لمقامه.

إذن هو خضوع وإع!

وهل يكونُ الخُضوع، إلا للمُلك، والمَال، والتمكين!

(وتقديم المجرور (لي) على الفعل (ساجدين)، عبّر به القرآن عن معنى يدل على حالة في الكواكب من التعظيم له! هذه اللفتة اللغوية تشير إلى المكانة التي سينالها يوسف من الله، وأنه سيحظى بهبة عظيمة في المستقبل، في إشارة إلى التمكين الإلهي له في الأرض).

أحقًا ما أوقدته الرؤيا، أحقًا هو المُلك؟

يستمع يعقوب لكل كلمة، ويقف عالقًا، بين الرؤيا وبين زمنها.

هل الشمس والقمر هما الأبوان؟ فأى مقام سيسجد له أب نبي وأم!

أم الشمس والقمر، رمزان لدورة الليل والنهار!

تمور المسافات من الكلمات، تُرى، هل ستكون ثلاثين، خمسين، ستين!

ربما سيطول الصمت، قبل أن تعلن الأقدار بدء التأويل!

إذن..

هو الزمن قدر الطريق للتمكين، ولا سبيل لالتفات القلب.

فأنصاف البطولات، مقابر الهَمَم، وحيثما يكون الجرح، يكون نبي!

تلك سنة الله.

ولقد (كان يوسف رمزًا للرحلة الإنسانية الكبرى التي يمر فيها

الإنسان بحثًا عن الحقيقة والاكتمال عبر أقدار لها توقيتها، وفي ذلك

دلالة بليغة، أن التمكين لا يُهدى، بل يُكتب في لوح القدر عبر تجارب

ونضوج إنساني عالٍ يليق بخزائن الأرض والحياة!

لذا لم تكن الرؤيا بداية الحكاية فحسب، بل خريطة لعمر النبوة

كله.

يوسف يرى، لكنه سيحتاج إلى عمر كي يفهم ما رأى، ويعيش

تفاصيله بين الغياب والمُلك، وبين الخضوع الواعي والاصطفاء،

فالرؤيا خطاب من الغيب، والطفل المختار يتلقى النداء الأول في لحظة قدسية.

لصورة مستقبلية، وتجربة وجودية يتكثف فيها الزمن والابتلاء وسنن التمكين في لحظة وعي أولى).





وصية يعقوب

لا تقصص رؤياك -

حين تهْدِدُ الرؤيا بفجعة الحسد



ثمة إنصات عميق بعده وصية تفيض بالقلق

وَمِنَ الرُّؤْيَا، يَلْتَقِطُ يَعْقُوبُ الْمَعْنَى

فينطق ويسطر القرآن أنه: ﴿قَالَ يَبْنَىٰ﴾ ﴿٥٠﴾

يحيطه بقلبه، وَيَفْكَ يَعْقُوبُ وَثاقَ الْمَعَانِي.

وَيَضُمُّ يَوْسُفُ فِي وَصِيَّتِهِ، قَبْلَ أَنْ تَصِيرَ الْجِهَاتُ الْآتِيَةُ كُلُّهَا غُرُوبًا!

{يَا بُنَيَّ}.

تصغير ابن مع إضافته إلى ياء المتكلم، وفي ذلك حب وشفقة وكناية عن

إمحاض النصيح له.

كَأَنَّ يَعْقُوبَ كُلَّهُ لِكُلِّ يَوْسُفَ، قُرْبَى.

فيا الله، ما أَكْثَرَكَ يَا يَوْسُفَ فِي قَلْبِ يَعْقُوبَ!

وبكلِّ ما أُوتِيَ الْآبَاءُ مِنْ قَلْقٍ دَفِينٍ ﴿قَالَ يَبْنَئِي لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَيَّ
إِخْوَتَكَ﴾ ﴿٥٠﴾

وبهذا التحذير قال يعقوبُ كلماته!

إذ كانت الرؤيا دالة على خير عظيم يناله وهي بهذا خبر إلهي.

وربما هذا المعنى هو دلالة وعي يعقوب المبكر يوم قال:

﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ ﴿٥١﴾

بالمصدر المؤكّد، واللام في {لك} لتأكيد صلة الفعل بمفعوله، وتنوين

{كيدًا} للتعظيم والتهويل زيادة في تحذيره من قص الرؤيا عليهم.

إذ إن من عادة الحسد، أن يجيء مُضمًّا بدم النعم.

من عادة الحسد، أن يكون رواية الموت!

تشتبك البشري بخوف خفي.

ثمّة وجل في قلب يعقوب من غيب مسكون، بنحيب طويل!

﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ ﴿٥٢﴾

هل تحمل الكلمات لونها!

كيدًا بالمصدر ومعنى المبالغة وهذا ما سينتظر يوسف، وفي التعبير لا

فوضى في المعاني!

الكاف تتكرر بصوت الهمس الذي يوحي بتدبير خفي، واحتمالات لا

نهائية!

فجأة يقف يوسف في المسافة الحرجة.

بين انتظار البشري، وبين الخوف من المجهول.

طفل كان معه المزيد، ومزيده ستكتشفه الحياة في سغبتها المخبوء!

ومن الرؤيا، يلتقط يعقوب معنى: رحيلاً لن يقف!

هذه الغصة.

تسقيها مخاوف عميقة!

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾.

ينوء يعقوب بحمل التأويل، ويخشى مرثية غارقة في الأنين.

يلتقط يعقوب ضجيج خوفه، فقد كان يخشى على المركب شح الضفاف!

مبين، إيقاع السورة يسهم في بناء صوت الرحلة حيث الفاصلة (ين) تتكرر سبعاً وأربعين مرة.

ثم الفاصلة (ون) ستاً وأربعين مرة.

مما يشكل إيقاعاً يعكس حركة الزمن وتطور الأحداث، كما يعكس ذلك الرحلة المستمرة للتمكين، ومن خلال هذه التكرارات يتعزز المعنى في كل لحظة، وكأن هناك سريناً سلساً للأحداث.

والياء تعطي الإحساس بالحركة الهادئة التي تتسلسل مع الأنين الخفي الذي يلتقطه القلب ولا تلتقطه الأعين. لكن النون، وهي الصوت المتوسط بين الشدة والرخاوة، وفي منتصف بين الوضوح والغموض، بين الظاهر والمستتر، توحى بضبابية الأحداث.

ومع تفاعل الصوت اللين (الياء) والشديد (النون)، تشعر بأعمق المعاني المرتبطة بالألم أو الأنين.

هكذا يتسلسل إيقاع السورة، ويصبح الصوت هو الوعاء الذي يحمل جميع الأحوال العاطفية والتاريخية، حيث يحمل كل تكرار معنى جديداً، لكنه يعكس في النهاية رحلة طويلة من الصبر والتمكين.

و في الاجتباء الإلهي: بوابة الاختيار

﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾.

كَانَ يَوْسُفُ يَمْتَلِكُ رُوحَهُ الْخَاصَّةَ، وَالْأَقْدَارَ، يَنْتَقِيهَا صَوْتُ الْعُمُقِ
فِينَا!

فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ!

وَالْمَعْنَى فِي اللُّغَةِ مَثِيرٌ وَبَاهِرٌ، وَيَحْمِلُكَ إِلَى أَسْرَارِ الرِّحْلَةِ كُلِّهَا.
فَجَبِيبُ الشَّيْءِ: هُوَ جَمْعُهُ وَتَحْصِيلُهُ، وَاجْتِبَاءُ الشَّيْءِ: هُوَ افْتَعَالُهُ وَإِعْدَادُهُ
وَتَهْيِئَتُهُ وَصْنَعُهُ.

إِذْ يَخْتَارُهُ اللَّهُ لِيَصْنَعَهُ!

وَحَقًّا ذَلِكَ إِذْ تَرْتَلُ الْأَحْدَاثُ يَوْسُفَ مِثْلَ مَحَالٍ لَا يَتَخِيلُهُ الْخِيَالُ.
تَنْفَجِرُ الْوُقَائِعُ كَأَنَّهَا فَوْضَى لَكِنَّا تَرْتَبُ لِيَوْسُفَ مِنَ التَّلَاشِي حَالِ اكْتِمَالِهِ!
وَفِي تَرْتِيبٍ خَفِيٍّ سَيَجْمَعُ اللَّهُ لِيَوْسُفَ كُلَّ مَا يَبْلُغُهُ مَقَامُ (خَزَائِنِ الْأَرْضِ).
وَسِيْهِيَّتُهُ وَيَعْدُهُ لِلرَّسَالَةِ وَالْمَهْمَةِ.

لِذَا ظَلَّتِ الرِّحْلَةُ مَلِيئَةً بِكَلِمَةِ (وَأَتَيْنَاهُ) بَعْدَ كُلِّ اخْتِبَارٍ!

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾
﴿٢٢﴾

وَالِاصْطِفَاءُ لَيْسَ هُوَ الْاجْتِبَاءُ، إِذِ الْأَوَّلُ كُلُّ مَا لَا كَدَرَ فِيهِ وَلَا شَوَائِبَ.

وَهُوَ لِلْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ، فَهُوَ عَمُومٌ وَالْاجْتِبَاءُ خُصُوصٌ!

وَمِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ
وَالْجِسْمِ﴾ [البقرة: 247]

لَقَدْ أَدْرَكَ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ مَا ابْتَدَأَهُ اللَّهُ بِهِ مِنَ النِّعَمِ فِي الرُّؤْيَا
اجْتِبَاءً وَكَمَالٍ نَفْسِي.

فَهَلْ كَانَتْ الرُّؤْيَا ذُرْوَةَ الْمَعْنَى وَكَانَ لِأَجْلِهَا الْاجْتِبَاءُ؟!

يَصْمْتُ يَعْقُوبُ، وَفِي الْقَلْبِ مَعْنَى:

إِذْ يَعْلَمُ أَنَّ فِي صِنَاعَةِ الْهُوِيَّةِ، لَا بَدَأَ أَنْ يُسَافِرَ يَوْسُفَ فِي دَاخِلِهِ.

أَنْ يسافر عبر الابتلاء!
تَمَامًا..

مثل إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ!

وقَدْ كان يوسُف، قابَ ابتلاءين أو أكثر، مثل أبيه إبراهيم.

تلك خدوش ستكتب له أبدية البقاء في لوحة الخلود.

وكلَّ حَدَثٍ، سَيرسُمُ فاصلاً بين تاريخٍ وتاريخ!

وفي جفن الليل نهار يختبئ، ومن وراء الوعي نار الرؤية!

وفي بحة الألم يتضح الصدى، حيث لا غموض ولا غبش في صوت

الوجع!

لكن الانعتاق عن الذات سبيل الكمالات!

ثَمَّة مسافة، يُريد الله لنا أَنْ نعبرها، والابتلاء هو مَسارها!

لَكُنَّا بِعَجْزنا، نَكْبُرُ في مساحاتِ الغياب عن الله.

وتَسْتَهلِكنا تجربة الألم، ولا نَنْتبه، أَنَّها كانت مسافة العبور إليه!

ووحدها النهايات تعطي للأقدار تفسيرها.

ولكن..

لماذا كانت الرؤيا، وما دلالتها في بدء الرحلة؟

الرؤيا، نوعٌ من التَّوَقُّ نحوَ وعدٍ مُغَيَّبٍ، مثل نبوءة فتحت أفق المستحيل.

ورُبما هي التي أبقت الأمل في نفس يوسف، حيًّا!

ولقد وَقَّعت الرؤيا في نَفْسِهِ، مَوْقعَ اليقين، ولو غَمَرها التوجُّس، ما كان

لها معنى!

كان حُلُم يوسف شِراعًا في قِطْع الليل، وصار العُمرُ تأويلًا.

وبعضُ الأحلام سفينةُ النجاة!

يا يوسُفُ:

(في عُزلة السُّجن)، سَتَرى الزَّمنَ هارِبًا، وَسَيُحاصرك النُّسيان!

(في القَصْرِ)، تُطاردك قَسوة الفِتنة!

(في الغُربة)، يُوْشِكُ الألمُ أَنْ يُصبح قَدْر الذِّكريات!

كُل ذلك، بعضُ معنى، ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ ﴿٦﴾!

وفي غياب مُؤقَّت، ينتظرُ توقيت الحُضور الخالد، يبدأ طريقُ الاجتباء، طريقُ تَحْتَشُدُ فيه الاختبارات!

ويوسُفُ في القِصَّة مُسافرٌ تأتيه الطُّرقات، ويفترشُ عمره للتأويل!

يمرُّ عبر تجليات الاجتباء المختلفة: القصر، العزلة، الفِتنة، الألم. وكلها مراحل التهيئة.

فيا الله!

كيف يَغْدو العُمُرُ تفسيراَ لرُؤيا!

والوقت على مهل ينحت لوحة قدرية للرؤيا، وكلُّ شيءٍ كان مُقَيِّداً بالتوقيت الإلهي.

وقيد التدبير لو أبصر القلبُ غيماً مَاطِراً!

فيا للقلب، من ذا الذي يصبر على دقات الزمن حتى يبلغ قدر، (هذا تأويل رؤياي)؟

كانت كُلُ خطوةٍ في الرحلة..

مثل خيط يرتقُ كل السُّبل، حتى تكتملَ الرُّؤى.

وحذو القلب كانت أكوان متوازية تسير وتجذبه إلى عالم بعيد.

تتبدى الرؤيا في خيوط متشابكة خفية، وشائك البعد يشتد في الخواتيم

تجليًا!

حتى كأنَّ الأحلام لُغَةً القَدَرِ الخَفِيَّة، ورسائل الغيب، والوقائع تأويلها.

فكان من الاجتباء إرادة، ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ ⑥
والأحاديث: هي جمع حديث بمعنى الشيء الحادث، فتأويل الأحاديث
إرجاع الحوادث إلى عللها وأسبابها بإدراك حقائقها على التمام. وهو المعنى
بالحكمة.

ذلك هو مفتاح المرحلة.

وتأويل الأحاديث هي القدرة على استشراف المستقبل وفهم الآتي ورؤية
القادم.

كذلك تأويل الأحلام إلى ما سترجع إليه الرموز وهو من فهم المتوقع
القادم.

فقد كانت الأحلام هي إيقاع الواقع الموجود، وكان تأويلها لغة التعامل
مع الواقع.

والتعبير يجمع العلم ويجمع حاجة الناس!

فكان الاجتباء اصطفاً غيبياً وإعداداً معرفياً!

والقرآن يبصرك:

أَنَّ التَّأْوِيلَ كَانَ مَبْنِئًا عَلَى عِلْمٍ.

لذا، أتى أكله تمكيناً!

وصار به يوسف من صنّاع التقدير لا من أسرى اللحظة المشاهدة!

﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ
قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ ⑦

يُكْمَلُ يَوْسُفُ سِلْسِلَةَ النَّبُوءَةِ.

وللنبوة تكاليفها.

ولها خطواتها الفاصلة.

(وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ) ليس وعدًا بنعمة بسيطة، بل تمام النعمة، أي بلوغها إلى أقصى كمالاتها الممكنة.

وهي إعطاؤه أفضل النعم وهي ضميمة الملك إلى النبوة والرسالة، فيكون المراد إتمام نعمة الاجتباء الأخروي بنعمة المجد الدنيوي. لذا كان يُرَبَّى بين النبوة والحكم ليجمعهما معًا.

وللبلوغ إلى هذا الكمال البشري كانت هندسة التَّمَكِين: من العلم إلى الحُكْم.

فمن حُضِن يعقوب النبي إلى حُضِن العزيز الرئيس كي ينال كرامة (وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ)!

﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

هنا درسُ السُّورَةِ العَظِيمِ.

فالحِكْمَةُ مَبْنِيَّةٌ عَلَى الْعِلْمِ، وكلُّ فِعْلٍ لَا يَسْبِقُهُ عِلْمٌ، فلا حِكْمَةٌ فِيهِ!

والْحِكْمَةُ فِي سُورَةِ يُوسُفَ لَيْسَتْ عَاطِفِيَّةً وَلَا وَجْدَانِيَّةً، بل إِدَارِيَّةً تَطْبِيقِيَّةً، تَقُومُ عَلَى قَوَاعِدِ الْمَعْرِفَةِ الْمُنَظَّمَةِ، وَيُوسُفُ عَلَّمَهُ اللَّهُ، فَبَلَغَ بِهِ حِكْمَةَ إِدَارَةِ خَزَائِنِ الْأَرْضِ كُلِّهَا!

لِذَا فِي سُورَةِ يُوسُفَ:

• يَتَكَرَّرُ الْاسْمُ الْكَرِيمُ ﴿عَلِيمٌ﴾ سَبْعَ مَرَّاتٍ، كَأَنَّهُ يُقَابَلُ كُلَّ سُنْبُلَةٍ عَجْفَاءٍ.

بِمَا هَيَّأَ اللَّهُ لَهُ مِنْ عِلْمِهِ الْعَلِيمِ!

وَيَتَكَرَّرُ فِعْلُ «يُعَلِّمُ» أَرْبَعَ مَرَّاتٍ، و«عِلِمٌ» اثْنَتَيْنِ وَعِشْرِينَ مَرَّةً، و«الْحَكِيمُ» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ.

فَتُدْرِكُ أَنَّ:

وَإِفْرَ الْحِكْمَةِ يُبْنَى عَلَى غَزِيرِ الْعِلْمِ.

ولِذَا تَقَدَّمَ الْعِلْمُ عَلَى الْحِكْمَةِ فِي سُورَةِ يُوسُفَ!
وَكُلُّ مَنْ ادَّعَى حِكْمَةً، دُونَ عِلْمٍ عَمِيقٍ فِي قَوَانِينِ التَّمَكُّينِ.
فإِنَّمَا هُوَ وَاهِمٌ!

وَفِي سُورَةِ يُوسُفَ يَبْدُو تَكْوِينُ الْإِنْسَانِ التَّمَكِينِيَّ يَمْرُ بِأَرْبَعِ مَرَاهِلَ:
التَّعَلُّمُ أَوَّلًا، ثُمَّ فَهْمُ الْوَاقِعِ، ثُمَّ إِدَارَةُ الْحَوَادِثِ، ثُمَّ الْحُكْمُ، فَتَأْمَلُ!
كَانَتْ الرُّؤْيَا بَذْرَةَ النُّورِ فِي الظُّلْمَةِ، وَالْوَصِيَّةُ هَمْسُ نَبِيٍّ يَرَى مَا لَا
يُرَى. وَالاجْتِبَاءَ لَيْسَ مُحَضَّ اخْتِيَارٍ، بَلْ صِنَاعَةُ إِلَهِيَّةٍ فِي أَتُونِ الْغِيَابِ
وَالْفِتْنَةِ، لِيَصِيرَ الْحَلْمُ تَأْوِيلًا.

وَفِيهَا يُوسُفُ لَا يَسِيرُ، بَلْ يُسَاقُ مِنْ قَدَرٍ إِلَى قَدَرٍ، لِيَبْلُغَ ذُرْوَةَ
التَّمَكُّينِ حَيْثُ يُنَحَّتِ الْقُلُوبُ لِيَلِيقَ بِالْحِكْمَةِ.
وَيَعْلَمُكَ اللَّهُ أَنَّ التَّأْوِيلَ عِلْمٌ، وَأَنَّ الْحَلْمَ بَوَابَةُ التَّدْبِيرِ، وَأَنَّ النِّعْمَةَ لَا
تَتِمُّ إِلَّا لِمَنْ أُعِدَّ لَهَا. وَهَكَذَا، تَكُونُ الرُّؤْيَا مِفْتَاحَ الْعُبُورِ، وَيَكُونُ الْأَلَمُ
هُوَ التَّمْهِيدُ لِلصَّوْتِ الَّذِي سَيَصُوغُ الْوَاقِعَ تَأْوِيلًا.





مؤامرة الإخوة

﴿الْقُوَّةُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ﴾ (١٠) -

بداية الهاوية، أو سُلَّم الأقدار



﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٍ لِّلْسَائِلِينَ﴾ (٧)

تزدحم الفجائع حين تغتال الأنا فينا صورة الآخرين،
تلك هاوية البداية

والسورة تكشف المعنى قبل أن يغمرنا هلع النهايات، حيث تُثير القصة
ما يختفي عميقاً!

ففي القاع البشري، تترسب أشياء كثيرة، ثم تنسكب، مثل مقبرة موحشة!
يفتح القرآن صفحة العلاقات الأخوية، في أشد مستويات خذلانها.
ويجعلها {آيات للسائلين}!

كأنها درس البشرية لكل لغز الوجدع الإنساني.

وفي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ، تبدو المسافة هائلة بين الأنا وبين العدل.

ولربما هذا هو زيت السراج في القصة!

حَيْثُ تَغْتَالُ الْأَنَا صُورَةَ الْآخَرِينَ، وَبَعْدَهَا تَزْدَحِمُ الْفَجَائِعُ!
إِذْ يَهْدُرُكَ أَحَدُهُمْ فِي أَبَدِيَّةِ الْغِيَابِ، لِأَنَّهُ لَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ فِي الْمَشْهَدِ
سِوَاهُ!

وَكُلُّ جِرَاحِ الْأَسْئَلَةِ الَّتِي تَنْزِفُ، «لِمَاذَا؟»
تَجِدُ إِجَابَتَهَا هُنَا، عَلَامَاتٍ، لِّلْسَائِلِينَ!
السُّورَةُ..

تَعْبُرُ بِكَ إِلَيْكَ، قَبْلَ أَنْ تَأْخُذَكَ الْمَسَافَاتُ بَعِيدًا عَنْ مُوَاجَهَةِ الْحَقِيقَةِ.
وَتَعْلُمُكَ..

أَنَّهُ لَا يَهْزِمُ الْإِنْسَانَ إِلَّا اللَّحْظَةُ الْأُولَى مِنَ الْاسْتِسْلَامِ.
الاسْتِسْلَامُ لِصَوْتِ الْأَنَا!

تظهر الهاوية الأولى في صوت الحسد وتغلق الأنا نوافذ العقل
وفي غموض الكلمات يزفر صوت الضيق في السورة، ﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ
وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا أَيْنَمَا مَنَا﴾ ٨، قالوا، بواو الجماعة، حرف واحد حافل
بامتلاء الحقيقة.

واو، تكادُ تنفجر، فقد كانوا كبحرٍ (قُيِّدَتْ أُمُوجُهُ)!
واو، تزدحمُ بالمعنى، وتتغلقُ بهم، فلا تستثنِي منهم أَحَدًا!
وتحت عتبة الصوت وحشية المشاعر.
{لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ}.

تفوحُ اللام المؤكدة برماٍ احتراقهم.
يعدُّون الجمرات، جمرَةً جَمْرَةً.

يوسف وأخوه {أَحَبُّ إِلَيْنَا أَيْنَمَا مَنَا}، بصيغة التفضيل!
وفي الصيغة حروف الحلق المهموسة الرخوة والهمس والرخاوة، صفات
إذا اجتمعت في حرف دلَّ على الحدة وحرارة العاطفة.

يا للطُّفولةِ العَقَلِيَّةِ، التي يَغِيبُ فيها المَنطق.

إِذْ ما قانونُ الطُّفولةِ، إلَّا العِناية، والحُب، والود، لكن الحُبَّ في بعضِ
المواطنِ حَتَف!

كان يوسفُ طفلاً يحتاجُ إلى الحُضنِ والعِنايةِ والرِعايةِ، وكانوا هم عِصبةُ
مليئةٍ بالقوَّةِ.

وكان يوسفُ يحتاجُ إليهم جميعاً.

لكنهم يَسْقُطون في هاويةِ الذاتِ الخاويةِ، وتَبْدو المسافَةُ إلى يوسُفَ،
فارَغةً تماماً!

يعتَرِكُ جَمْرهم حوَلَ يوسُفَ، حتَّى كأنه في اختِناقاتهم، ولو أنه شهِقَ
سيزفرونه!

فيا الله، مَن يُنْقِذُ المَسْكُونِ بالحَسَدِ مِنْ نَفْسِهِ؟!

﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا وَخَنُ عُسْبَةً﴾ ٨، ها
هم في الكَلِماتِ ذاهِبون وآتون في عَويلٍ طویل، وَخَنُ عُسْبَةً.

تَبَهَّتْهم الكَلِمَةُ من حيثِ يظنون أنها تنصرهم.

فالتَّعبيرُ يحملُ صَدْعَهُ، يحملُ إدانةَ المُقارَنةِ الجائِرةِ، وبه تَکتملُ قِیامةُ
الظُّلم!

فالعُصبةُ..

تَجمَعُ الرُّجولةَ، والقُوَّةَ، والعَدَدَ والاستِغناءَ.

فَكانَ الظُّنُّ أنْ تحملَ العِصبةُ ما تَساقُطُ مِنْ عَجزِ الأبِ الکَبيرِ.

أنْ تحملَ أمانةَ من تَبقى من ذِريتهِ، وأنْ تَكونَ عِکازَتهِ فيما لا يَطبقُ.

وكانَ الظُّنُّ، أنْ تَكونَ العِصبةُ في المَوْتِ عافِيتهِ.

كانَ الظُّنُّ ذلكَ، ولكنْ وطأةُ الحَسَدِ أوقَفَتْهم في ظمأِ التَّعابیرِ، فكانتِ

الكَلِمَةُ إدانتهم!

وفي الهاوية الثانية تتعثر القلوب في غَيَابَةِ الخراب ويكتظون
بِإِثْمِهِمْ.

﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ ①

تهبطُ الكلمات، مثل نيزكٍ استَعَرَّ.

تتعدَّدُ ألوانُ الجَريمة: ﴿أَوْ أَطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ ②

الطاء القوية التي بها ثَقُلُ في النطق، وقوة بسبب انحباسِ الصوت،
وأصوات الحاء، والهاء، بهمسها الخفية تكشف الإصرار الشديد.

فقد كان يوسف فوق ما يطيقون، وكان كله فائضًا على حاجتهم.

اقتلوه!

أو اطرحوه، في مراوغة مع الموت أو كأنه تقديم شكل للموت المتعدد!

تُسْتَلُّ الكلمات مِن نوايا الشُّوك، تتتابع الآراء، مثل لهيبٍ حَثِيث!

﴿أَوْ أَطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ ③

المفردة نكرة، أي أرضٍ نكرةٍ متسعةٍ مجهولة، فهل كانت هذه أرض

النكران؟!

تتكفُّ الضالَّة في الصُّورة، ويَغمرها فداحةُ الخوف.

فهل كان يوسفُ نكرةً في ضمائرهم؟ يليق به كلُّ هذا الهلاك!

كيف تجمع مفردة كل هذه المشاعر؟ اتساع الألم، فضاء المجهول،
ويوسف عندهم مثل نقطة ضئيلة قابلة للطمس والتلاشي.

قالوا: أرضًا، وانبثقت كل هذه المعاني!

أو اطرَحُوهُ أَرْضًا، بالصوت الجمعي الآثم بلا استثناء وواو الجماعة

تكشف الحقيقة!

ما أبشع الكلمات وهي تواري سوءَ القلوبِ القاحلة.

وأبشع الذنب ما الذاتُ تسكنه!

نحنُ في الخطيئة بحجم فضائيتها التي تتسع في خيالنا.
ربما لا نبلغها، لكننا نتوَحَّش في عوالمها، ثم نلتهمها وتلتهمنا كأننا هي!
حيث لا أحجيات في اختياراتنا، لا ألغاز في مفردات الروح، ولا دهشة فيما
تقول إليه أقدارنا!

ترتفع الأصوات، {اقتُلُوا يُوسُفَ}، {أو اطرَحُوهُ أَرْضًا}.
تلمح ضجة البحث عن مَوْتٍ مُبَاغِت.
يشتعِلُ في المَشْهَد، وَهْجٌ احتراقٍ يأكل بعضه، ظلماتٌ تتقاذف في
الكلمات.

كُل تلك الاقتراحات دُيُونٌ سَتَطْلُبُ قَضَاءَها ذات يوم!
ثم ماذا؟
ثم مَضَوْا يهرولون، يجمعون أحلامهم ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ﴾ ①
يا لخطي الوهم، فـ (يخل) فعل مجزوم في جواب الطلب، كأنه أمنية
مبتورة!

يخل، ثمة ما هو محذوف من المفردة أو ثمة ما هو محذوف من الأمنية،
فقد كان ذلك وهماً...

وسيظلُّ يُوسُفُ في الغُصَصِ المليئة بالدموع، ولن يخلو لَكُمْ قَلْبُ يَعْقُوبَ،
إذا صارَ قلبه للحزن مُتَّكِئًا!

﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ﴾ ①
ظَلَّتْ أمنية معلقة تتأرجح بين الشوق والحنين.

ومن بعدها تغيَّرَ زمن الفعل المضارع إلى ماضٍ جَمَدَ على يوسف!
يَخْلُ لَكُمْ، حيث اللامُ لَامُ العلة، أي يخلو وجه أبيكم لأجلكم، بمعنى أَنَا
يخلو ممَّن عداكم فينفرد لكم.
وكانت تلك خارطة العتمة...

رَحَلَ يَوْسُفُ وَأَبْقَى بَعْدَهُ حَيْرَةَ السُّؤَالِ.

ومن حينها لم يخلُ، فقد عَلِقَ يَوْسُفُ فِي قَبَابٍ قَلْبُهُ يُعَاقِبُ بِهِ ضَمَائِرَهُم
التي خلت من إنسانية الحياة.

ثم كانت الهاوية الثالثة: فِي وَهْمِ الصَّلَاحِ الْمُؤْجَلِ وَخَدَاعِ النَّفْسِ
فِي مَرَايَا التَّبَرِيرِ.

﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا
مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ ١٠

يا الله كيف يخون المرء إنسانيته!

يا الله، كم رداء كان عليهم أن يخلعوا كي يلتقوا أنفسهم!

وكيف حبستهم أنفسهم في زيفِ أقنعتهم؟ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا
صَالِحِينَ!

وفي أسوارِ غُزْلَةِ الْأَنَا تشابكتِ الطرق، فما استطاعوا من ذواتهم خروجًا!
وعلى حافةِ الهاوية يتساقطون في وهم: وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا
صَالِحِينَ.

وفي فَخِّ الطَّمَأْنِينَةِ كانوا مستلبين بلذّةِ النسيان!

والنسيان فاقّة، وحسب النسيان أن يكون مكرَ الله!

الآية تكشف تراجيديا النفس البشرية حين تستبدل بالحق الوهم،
وبالصلاح الحقيقي الوعد المؤجل.

وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ.

ويبدو الإيقاع في الكلمات محملاً بالأسئلة المعلقة، الأسئلة التي
ستظل تنتظر يقين كشفها.



﴿يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصِحُونَ ﴿١١﴾﴾

اللغة حين تنطق بالخيانة!



﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ ﴿١٢﴾﴾
وفي الكلمات بدا المدعى مفتوحاً على الموت، والظلم
في المفردات كثيفاً.

يعتلي المشهد صمتٌ، تسقط فيه الكلمات، تشتبك الحيرة بالتردد.
لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ، يفور المشهد بالكثير من
الفوضى في المتاهة المغلقة!

تشوش أخلاقي، دوامة صراع، جو مشحون ولحظة انهيار الضمير.
يا الله، كيف تتعثر المبادئ فيضل القلب الطريق!
فكل هذه الفظاظ في الكلمات، إنما كانت تُخفي أرواحاً واهية، وفيها
الكثير من الهلع الداخلي!
وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ

ترى، من أين لبعضِ النَّاسِ، تلك الكلمة التي يَصُعبُ على القلب أن يَصمد
بَعدها؟

وكيف يَصنعون ذكريات البُكاء في أعمارِ الناس؟!
وما الذي يَدفعهم لكلمة سوداوية، تولد معها عَتمة في روح الروح لا
تنجلي؟

هؤلاء مُدنٍ من الأذى، فضاء من الخراب!

ربما ليست الغرابة في كلماتهم

ولكن الغرابة: كيف يُطيقون العيش في ذواتهم!

﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ﴾ ﴿١٢﴾

هل كان هذا نوعاً من التَّحَايل على الذات، قتل مستتر برداء التحايل؟!
إذ ما الفرقُ بين القتل والإلقاء؟!

في القتل..

مكتبة

t.me/soramnqraa

سيكونُ يوسف في مواجهة الفزع!

وفي الثانية..

سَيرُمي في مُنتصف الفزع!

وبينَ المُواجهة والمُنتصف، مسافة المَوْت البَطيء!

وفي الكلمة، تصعيد خفي خبيث حيث تترك فيه الضحية لتموت بالخوف!
يبدو المكانُ مملوءاً بذئابٍ رمادية.

الهواءُ جافٌ وباردٌ، ويكاد الليلُ أن يكون سرمدياً.

يصمَّت الجميعُ، وتدورُ ساقيةُ الذاكرة، ثمَّ تتوقفُ عند ذاك الزمان.
تتكثف الغربة وأحدهم يقول، {يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ}.

ثمَّ ماذا؟

المدى مُوغل في القسوة.

فالمال في المشهد هو عبودية الأبد!

وقسوة المصير في سوق النخاسة.

والتعبير القرآني «يَلْتَقِطُهُ» من التقط، والزيادة تكون للمبالغة.

حيث يدعُ القائل النهاية مفتوحةً على فراغاتٍ واسعة، ستملؤها الأقدار.

يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ، لا أدري ماذا يفعل القرآن بالكلمات حين يتم نظمها.

وفي حرف (أو)، يُزَيِّنُ الشر بالفاظ أقل وقعاً، وتُدار الجريمة بلغة الإزاحة لا الإدانة.

وكأنَّ القتل لا يكون دائماً بالسيف، بل أحياناً بترك الروح تتخبط في غيابة المجهول.

كل المجهول!

فجأة تتخرج يقظة متأخرة: وَيُوشِكُ الضمير أَنْ يبصر!

﴿إِنْ كُنْتُمْ فَعِلِينَ﴾

بحرف التشكيك «إِنْ»، فهل كانت هذه أداة ارتجاف داخلي؟

كأنها تشكُّك في نية زاهلة عما في حالك روحها!

ينحدر الصوت كالتعبِ المَحْضِ إلى جروفِ الهاوية، وفي تشكيك بطيء

وشحيح وبالتفاتة يقبض بحرف (إِنْ) على ما تبقى من الموت!

يتوارى مثل ملاءة مجعدة تحاول ستر فضيحة النوايا، وعلى استحياء يكاد

لا يحصي نفسه في الفاعلين!

هل تملكُ القائل فجأة تَعَبُ اليقظة، أم أنه الصَّوت الأخير في محاولة

إيقاف النهاية؟

تتساقط حبات مطر خفيف، تطرق عينيه فيخدشه الهلع.

تتسع عيناه فجأة وتتجمد شفتاه وتتساقط كلماته، يرى يوسف مثل غزال بري تحاصره الذئاب.

وفي لهات غريب يقول {إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ}.

كانت الكلمات مثل من يتكئ على زوبعة وشيكة!

وفي الكلمات بدا المدى مفتوحًا على الموت، والظلم في المفردات كثيفًا.

وكان الخُذلان أكبرَ من أنْ يحتملَ اعتذارًا، سيَنتظره يوسف طويلًا!

في هذه اللحظة..

يُجسّد الصراع بين يقظة أخيرة للضمير وبين عصبية ماضية في خطيئة جماعية.

(ويترك القرآن القائل معلقًا في منطقة رمادية: لم يفعل ما يمنع، وربما لم يشارك.

لكنه قال «إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ».

وترك خلفه صدى طويلًا، يُشبه تأخرًا لا يغفره الزمن!).

لكن كل ما قالوه بدا هاوية النهاية، وفي عين الله سُلّم الأقدار.

وفي نية أنمة، كان البيان لغة الالتفاف:

﴿قَالُوا يَتَّابَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ﴾¹¹، ينظر إليهم يعقوب فيرى نازًا أوقدها ضجيج دفين.

وفي استفهام إنكاري يلمح رجفة مريبة، لَا تَأْمَنَّا، وتنطق بنون مشددة مدغمة، بين إدغام محض، وإدغام بإشمام، حيث يتكور الفم وتضيق المسافة وتتلعثم روح العصبية في ارتباك هائل!

تتواتر الحُرُوف من الأنف والفم، كأنها تلاحق بعضها.

كأن الصديق يعجز عن العبور من مخارج الحروف، وتلك عثرة الكذب!

ثم ما معنى، مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ، وكأن يعقوب هو من يسيء الظن!

وبالتعبير بـعلى يرتكزون في محاولة مستميتة على اللغة، حيث (على) للاستعلاء المجازي بمعنى التمكن.

ويتسلقون أعالي شاهقة، إذ يحشرون كل لغة التوكيد، ﴿وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

وَيَشْتُمُ يَعْقُوبُ خُورَ الْوَعْدِ!

يا للغة، إذ تنتعل ربيها.

ويا للغة، إذ تبت كشفها!

وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ، يا لخديعة الكلمات!

هنا مؤكدان؛ (إن واللام في لناصرحون)، فهل يحتاج إقرارهم بالنصح لأخيهـم إلى توكيديـن؟

لكنها اللغة حين تنطق بالخيانة!

قالوا: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

وهنا جاؤوا كذلك بمؤكدين، فهل يحتاج أمر حفظهم لأخيهـم إلى مؤكدين أيضًا؟

إن واللام في لحافظون؟

ينتثرون في أدوات التوكيد، وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ، وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ.

يكّدسون أدوات التأكيد لتدعيم ما لم وما لن تثبته الوقائع.

يتقدم التعبير بـ {له} في {له لناصرحون} و{له لحافظون} للقصر الأدعائي، إذ جعلوا أنفسهم لفرط عنايتهم به بمنزلة من لا يحفظ غيره ولا ينصح غيره!

يَتَرَاكُمُ التَّأَكِيدُ فِي التَّعْبِيرِ، وَيُخْبِي وراءه، تَارِيخًا مِنَ الْكِيدِ!

وحول يعقوب، يجتمعون ويهرقون على أعتابه كل وعودهم.

تتأرجح أصواتهم على حبل الكذب، مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا!

مُرِيبٌ هَذَا الْحَشْدُ مِنْ أَحْرَفِ التَّوَكِيدِ، مَرِيبٌ فِي قَلْبِ يَعْقُوبَ!

تَتَحَفَّزُ الْكَلِمَاتُ، فِي مُحَاوَلَةِ الصَّدَقِ.

وَهَذَا التَّأَكِيدُ الْمُتَتَالِي، كَأَنَّهُ قَسَمَ الْفَجَائِعِ، وَيَلْمَحُ مَعَهُ يَعْقُوبُ فِي الْمَدَى

هَيَاجًا مَرِيبًا!

﴿أَرْسِلُهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

يَبْدُو الطَّلَبُ نَاعِمًا فِي ظَاهِرِهِ: لَهُوٌ وَلَعِبٌ، إِذْ رَتَعَ كَلِمَةً تَدُلُّ عَلَى الْخَصْبِ

وَالسَّعَةِ.

لَكِنْ وَرَاءَ الْكَلِمَاتِ فَحَا مَرْسُومًا بِعَنَایَةِ لُغَوِيَّةٍ!

فَصَوْتُ الرَّاءِ وَصَوْتُ اللَّامِ فِي (أَرْسِلُهُ، وَيَلْعَبُ)، وَصَوْتُ الْعَيْنِ فِي (مَعَنَا،

يَلْعَبُ).

وَصَوْتُ النُّونِ فِي (مَعَنَا، إِنَّا، لِحَافِظُونَ)، أَصْوَاتٌ لَيْسَتْ مَتَمَكِّنَةٌ فِي

مَخْرَجِهَا كَتَمَكُنْ وَتَحَقِّقُ حُرُوفُ الشَّدَّةِ، وَلَا تَجْرِي جَرِيَانُ حُرُوفِ الرِّخَاوَةِ،

فَهِيَ بَيْنَهُمَا، فَجَاءَتْ تَنَاسُبُ الْمَوْقِفِ وَهَشَاشَةُ الْوَعْدِ وَكَذِبِهِ!

كَأَنَّ الْحُرُوفَ كُلَّهَا وَهِيَ تَتَقَافَزُ فِي أَفْوَاهِهِمْ تُشِيرُ إِلَيْهِمْ بِأَصَابِعِ الْاِتِّهَامِ!

تَرَى، هَلْ تَسْتَبْطِنُ اللَّغَةَ أحيانًا نَوَايَا أَصْحَابِهَا، فَتَكُونُ الْحُرُوفُ شَاهِدًا

عَلَى مَا يُخْفَوْنَهُ؟!

هَذِهِ التَّعَابِيرُ مُشْبَعَةٌ، بِخَوَاءِ الصَّدَقِ!

وَتِلْكَ لُغَةُ الذُّثَابِ.

فَلَا غُرُو، أَنْ كَانَ الذُّثَبُ فِي الْمَشْهَدِ!

لَكِنْ، هَلْ يَحْتَاجُ الْأَخُوَّةُ إِلَى كُلِّ هَذِهِ الْمُؤَكِّدَاتِ، كَيْ يَذْهَبُوا بِأَخِيهِمْ.

أَمْ تَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْعَصْبَةِ؟

لَقَدْ كَانُوا عَصْبَةً عَلَى سَطُورِ الْمَصْحَفِ وَمَا ذُكِّرُوا بِوَصْفِ الْإِخْوَةِ!

عصبة، لم يكونوا جمعاً عددياً فقط، بل كانوا معاول هدم لا سياج حماية، وكانوا المؤامرة على أحلام الطفولة، هؤلاء في كل مكان وزمان، هؤلاء الذين يغتالون طفولة الإنسان والجيل لأن الأنا منعتهم من رؤية ما سوى مصالحهم، والقرآن ينبهنا أن القوة قد تكون أداة ظلم على من لا قوة لهم!

صوت يعقوب وبداية الانهيار

هكذا كان إذن، وكلما اشتدَّ التأكيد، اتسعت الثقوب.

حتى يوشك يعقوب أن يقول: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ ﴿٣٣﴾ لكن..

من أين تمتدُّ كل هذه الجذور الفاسدة؟!

لقد كان إخوة يوسف..

نموذجاً لكل المتعيبين من أنفسهم.

لكل الغارقين في سوءاتهم.

لكل المقيمين في حيزٍ من التلّف الداخلي!

وفي عويل الخطايا، كيف وأنّى تُشفى النفوس، التي بكلّ هذا الخراب؟ هؤلاء..

هُم الرّصيف الذي مشى عليه معنى {إِنَّ الشَّيْطَانَ عَدُوٌّ مُبِينٌ}!

﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي﴾ ﴿٣٣﴾

كأنه يندب وعياً عميقاً في قلبه، ومثل نغمة هاربة من لحن حزين، خرجت هذه الكلمات!

وبعدها..

مشت الجراح لبعضها.

وبعدها، سيأوي يوسف، إلى اغترابٍ بعيد.

وبعدها، سيكون الحاضر مملوءاً بالحسرات التي تبحث عن إجاباتها.

لكنّها طَرِيقُ التَّمَكِين!

﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ ﴿١٣﴾، بتأكيد، يجمعُ النُّونَ واللامَ، يُبصر يعقوب بقلق غريب بابًا من الحُزن الثقيل، يحيلُ المكانَ إلى خوفٍ جافٍّ!

فلقد كان مثل من يقبض على هواء في حروف توكيدهم، وفيما وراء الحزن كان يرى يوسف مثل سنبلّة تشبّث بها جراد مميت!

ولقد كانت وداعة يوسف تكاد ترهق الشيخ الكبير.

إِنِّي لَيَحْزُنُنِي، يا ليعقوب، قالها ثم هبط الليل!

فقد كان ثمة ذنبٍ مستتر في الضمائر

ف ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّنْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ وفيما سبق من تأكيداتهم لم تتمكّن الكلمات من ضبط روحها كما لو أنّها تحت نارٍ متّقدة.

العنمة، الملامح، طقطقة التأكيدات، كلّ شيء كان نابضًا بروح الذنب!

النفوس تبدو مضطربة، وتملأ المكان بصخب الحشد.

ويعقوب كمن يحاول أن يلتقطَ خيطًا لشيءٍ مريب، لكن لا جدوى!

يحضر اسم «الذنب» في فضاء النص كأيقونة رمزية للمكر والخديعة.

وتدور السورة في محاورها حول الخديعة والمكر، فجاء الذنب محققًا تكرارًا دلاليًا في السلوك وتماسكًا نصيًا.

وظهر ذلك في الذنب مع إخوة يوسف.

ثم مع امرأة العزيز ومكرها وخديعتها.

ثم مع النسوة وتهيئة السكاكين في تحريض خفي.

وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّنْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ.

يقرأ يعقوبُ الغياب بعين القلب.

وبإشارة عميقة يقول (أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ)، كأنَّ مجرد ذهابه معهم هو الذي سيجلب عليه الحزنَ والهمَّ!

حدثٌ غامضٌ يرتفع الآن من خرائب ما بعد اللحظة! يلوح بعصاه فيرى غروبًا في أرض منسية!

رمال تتلون، قافلة من ملح، وغزال خائف، وصدى صوت يغيب.

ثمة أحلام في سجن معزول، يحدق إلى أعينهم فيرى زبدًا كثيرًا!
(ويعقوب عليه السلام لم يُؤكِّد خوفه على يوسف من أن يأكله الذئب فقد كان يقين الرؤيا في قلبه!).

لكن اليقين يشتبك بالخوف، يحبسهم في وحشة كلماته، ويكاد يرى رماذٍ ما تبقى.

فلقد كان يعقوب نبيًّا، في نبض إنسان!

وبين النبوة والإنسانية: تفرض اللحظة ألمها الآنِّي في تشابك عجيب بين الوعي الغريزي والألم الأبوي.

ترى، كيف تتناول الكلمات أيامنا، ننطقها ثم نكون هي!

ورويّدًا رويّدًا نرى ما كان كامنًا في خفاء الأقدار، هل كان ذاك نضوجًا، أو وداعًا، أو ضياعًا، أو اختيارًا، أو انفتاحًا على الغيب؟

وببسمه مُتعبٍ، ومشهد تعرَّ كموجٍ يثور، نلمح في كلمات يعقوب مرآة لعميق ما فينا.

إِنِّي لَيَحْزُنُنِي، وَأَخَافُ

وبذلك عبر عن مكنونات روحه.

لكنهم تهادوا في التأكيد والخيانة وبين ثقل التوكيد وخفة الحقيقة

﴿قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخٰسِرُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

بحذر وتوكيد غريب، قيلت الكلمات.

«لئن» في بداية الجملة كقسم محذوف، و«إنَّ» المؤكدة، واللام في «لَخَاسِرُونَ».

كلها تؤكد على حالة من التوتر والارتباك، وكأنهم يعولون على هذا المبرر، في محاولة للهروب من واقعهم.

فالألفاظ لم تُعد تصف الحقيقة، بل تحاول التغلب عليها!
والتعبير بـ «أَكَلَهُ» أبلغ من «افترسه»، لماذا؟
الافتراس أصلًا معناه الكسر ودقُّ العنق، وهو مقدمة للأكل. وإذا افترسه،
فليس شرطًا أنه أكله.

لكن أكله تعني انتهاء يوسف.
تنسل من زقوم أرواحهم «أَكَلَهُ»، مثل مرثية سادرة في إخفاء كل الأدلة.
لينتهي يوسف في زوبعة من رماد!

كانوا هؤلاء عابري نصف المسافة إلى الحقيقة، وكانوا يريدونها قصة دون
شهود، وذنبًا بلا أثر، لطفل يجري من هضبة الحلم إلى أمل يحلم بالوقوف!
والغريب أنهم ردوا على جملة «وأخاف» التي خلت من التوكيد، بجملة
ملأى بالتوكيد!

كانهم يقولون: «لن نُقنِعك بالحقيقة، فلنُغرقك بالتوكيد».
ها هي التوكيدات ترمي حباثلها على كُلِّ الجهات!
ومَعَ كُلِّ نِيَّةٍ، كانوا يفقدون مَسَافَةً في الصُّعود، يتكَوِّمون على أنقاض
نفوسهم.

ويغيبون في خَواءِ أنفسهم، ويكاد يقتلهم الانحناء!
تمتدُّ سَبَابَةُ المَوْتِ، نحو يوسف.
يُكرِّرون أدوات التأكيد.

هذا التأكيد، يتكَوَّم في أذن يعقوب، وسيكون له ما وراؤه!

سَيَكُونُ لَهُ عُمْرًا، مِنَ الْعُقُوقِ، وَحِكَايَةِ كَثِيفَةٍ!
 حَمَلَ يَعْقُوبُ أَقْدَارَ الرُّوْيَا وَاسْتَسْلَمَ لَطَلْبِ الْعَصْبَةِ الْمَتَأَمَّرَةِ.
 وَفِي مَسَاحَةِ الْأَلَمِ الْهَادِي تَرَكَ لِلَّهِ التَّدْبِيرَ.
 وَكَانَ التَّدْبِيرُ شَاهِقًا لَا يَتَوَقَّعُهُ الْخِيَالُ، فَقَدْ تَهَيَّأتِ الْكَلِمَاتُ لِأَقْدَارِهَا!
 فِي هَاوِيَةِ الْأَنَا تَتَجَلَّى اللَّحْظَةُ الْأُولَى مِنَ التَّشْطُّبِيِّ الْبَشْرِيِّ، حَيْثُ
 يَنْهَارُ مِيزَانُ الْأُخُوَّةِ أَمَامَ وَطْأَةِ الْحَسَدِ، وَتُسْتَبْدَلُ بِالرَّحْمَةِ مَوْامِرَاتُ
 الْخَدِيعَةِ.
 تَتَسَلَّلُ بِلَاغَةُ الْآيَاتِ دَاخِلَ النِّوَايَا، لِتَفْضُحَ خَدَاعَ الْذَاتِ حِينَ تَنْزِيًّا
 بِثُوبِ الصَّلَاحِ الْمُؤَجَّلِ.
 وَوَسَطَ الْحُرُوفِ الْمَتَخَمَةِ بِالتَّوَكِيدِ، بَيْنَمَا تَتَهَاوَى الْعَصْبَةُ فِي
 هَاوِيَةِ الذَّنْبِ، يَعْلُو يَوْسُفَ إِلَى مَدَارِجِ الْإِصْطِفَاءِ، وَيُسَدِّلُ الْقُرْآنَ عَلَى
 الْهَاوِيَةِ سِتَارَ الْقَدْرِ الَّذِي يَدْبُرُ بَلِيلَ لَا تَبْلُغُهُ الْأَبْصَارُ.





أقصى خذلان عرفته البشرية

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾ ١٥



لم تكن البئر مليئة لكن الغرق كان في عمق النفوس الأسنة!

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾ ١٥

وفي فراغ متفق عليه، ذهبوا به!

كأنه فائض عن حاجة القلب.

وبألف ألف نية للغياب يحاولون محو سطرٍ بسطرٍ جديدٍ يكتبونه على أوراقٍ قلبٍ لن تُعاد كتابته!

{قَلَمًا ذَهَبُوا بِهِ}.

يا للتعبير! هنا حرف الجر «به»، يشير إلى مركزية يوسف في المصير والتاريخ، فالباء هنا ليست مجرد أداة لمفعول به، بل وعاء قدري يحمل شخصيةً بأكملها نحو مصيرها.

وذاك قَدْرُ يُوسُفَ أَنْ (يَتَوَهَّجَ فِي التَّارِيخِ مُنْفَرِدًا)!

لكن {وأَجْمَعُوا}، تجرفك إلى أقصى الألم.

إلى لحظة تسقطُ فيها معنى الإنسانية، وتحتاجُ إلى قُوَّة الأنبياء كي تُحمل!

تفيض الوحشة بالسدى، ورغم زحام أيديهم كانوا بعيدين كأقاصي الغربية.

فجأة كل شيء بات رمادياً، جف المكان، والمراعي بعثرت رمالها بغضب، وأوتارُ الوجود تقطعت، وتعب الحزن، حين أهدر أحدهم جرار الطهارة كلها. ويوسف في يقينهم غادر للأبد!

ومثل صلاة صامته كان الوقت يمضي خافتاً، ويوسف يبحث في أعينهم عن مغفرة الحب!

{أَجْمَعُوا}، هكذا القرآن يخبرك دون استثناءٍ لأحد.

فقد كانوا عصبَةً أمام قلب الشيخ الكبير، وكان المشهد سقوطاً جماعياً.

ويا الله!

كَمْ، ولطالما، وحتى ما، ولا زالوا، يَجْمَعُونَ أَمْرَهُمْ فِي كُلِّ زَمَانٍ! وبكامل العتمة صار يوسف الضمير الغائب وغياب الضمير، {أَنْ يَجْعَلُوهُ}.

دُونِ ذِكْرِ يَوْسُفَ بِاسْمِهِ الصَّرِيحِ، وَكَأَنَّ الْكَلِمَاتِ لَا تُطِيقُ النُّطْقَ بِهِ.

الهَاءُ هُنَا ضَمِيرُ الْغَائِبِ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ، وَيُوسُفُ الْمُبْعَدُ، الْمَغْيِبُ، الْمَرْفُوضُ.

والحذف يُحاكي الإلغاء النفسي، لا السردي فقط.

في هذا المشهد، تبدو سُورَةُ يَوْسُفَ صَوْتِ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَةِ.

فنحن ما زِلنا نَرثُ حُزنها.

حتى كَأَنَّ يَعْقوبها، يَقَعُ على يَعْقوبَ أوجاعنا تَمَامًا!
أو ربما، هي صوتُ يقين يَعْقوب فينا، وهو ينتظرُ الماء رغم أنه
تَبَخَّر!

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾ (١٥)، في هذه
اللحظة لم تكن البئر مليئة لكن الغرق كان في عمق النفوس الآسنة!
يَتَرْنُ المَشهد على أنقاض الطفولة، وشيخوخة البَشَريّة، فالعصبة بكل
جفافها تتولى {أَنْ يَجْعَلُوهُ}.

فجأة تشتبك أيديهم في فوضى، {أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ}.

تجتمع أيديهم على الطُفل.
يتصَبَّبُ عرقه، ويتجمع الملح في ذاكرته!
ومن حيثما هَبَّتْ أيديهم عليه، كانوا يُريدون يوسف صَوْتًا بلا
صَدَى، كانوا يريدونه ضميرًا غائبًا!

و بسادية بائسة يتمزق يوسف على الأرض كلها.
يثور الغبار، تشتدُّ رماديّة المشهد، نسيجُ ترابيٍّ ثقيل، كأنه كفن يحاك!
ذاكرةٌ من غبارٍ وترابٍ.

غبار تغيب ملامحهم فيه وتراب ينتظر نهاية يوسف!
يتكفّف الغيابُ ويُداهمُ الوجومُ وجهَ الصغير، أو ربما وجه الطفولة!
وفي فوضى منسّقةٍ لصالح الموت.

وفي المسافة الحائرة بين الفناء وعدم البقاء، ألقوه!
يوسفُ والمَلامحُ المنهكةُ خارجَ حدودِ الوطن، الأمان.
وفي عقلٍ طفلٍ يبدو المعنى لا معنى!

{أَنْ يَجْعَلُوهُ}، الهاء، توحى بمسافة شعورية شاسعة.

ومعها تبدو الجِيمُ جافّة، وتوحي بقسوة الارتطام الذي يُخبئ غاية المَوت
من هذا الإلقاء!

وفي إسقاط صوتي عميق تسمع صوت ارتطام النفس بأقصى خذلان
عرفته البشرية.

وفي النص تأبى اللغة أن تنطق باسمه في لحظة بيعه للألم!
ووالله..

مَا كَانَ يَحْتَاج الصَّغِير إِلَى اجْتِمَاع الْعُصْبَةِ.
وَمَا كَانَ يَحْتَاجُ إِلَى وَاوِ الْجَمَاعَةِ، فالطفل دومًا أضعف حلقة في النسيج
الاجتماعي.

لكن القرآن يكشفُ عن تلك الرّغبة الهائلة مِنْهُمْ جميعًا في الْخَلَاصِ
منه.

بالقول أو السكوت أو التواطؤ.

وهنا يظهر الخراب الجماعي، فالمأساة الكبرى ليست أن يُخطئ
فرد، بل أن تتآمر الجماعة!

والمشهد كله صورة رمزية للوحل العميق، صورة مكثفة لانتهيار
المجموع!

واختبار القوة دومًا يكون في الأضعف، في نملة أبي سليمان أن
يدوسها!

يَحْمِلُنِي الْخَيَالُ إِلَى صَوْتِهِ الْمَبْحُوحِ.

إِلَى أَيْدِيهِمْ تَشْتَدُّ فِي جَسَدِهِ.

إِلَى جُرْجِهِ إِذْ لَمْ يَمْتَلِكْ مِنْهُمْ حَتَّى التَّلْوِيحَةِ الْأَخِيرَةِ!

كَانَ يُوسُفُ طِفْلًا.

وَكَانَ يَحْتَاجُ إِلَى طُمَأْنِينَةِ الْوَدَاعِ!

يَبْدُو يُوسُفُ فِي الْبَيْتِ، عَارِيًا مِنْ قَمِيصِهِ.

يَنْزَوِي فِي حَتَمِيَّةِ الْوَجَعِ.

مُلْقَى فِي هَاوِيَةِ النَّسِيَانِ، وَصَوْتُهُ مُخْنَقٌ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ، وَيُؤَاجِهُ
الْحَقِيقَةَ!

ضَلَّ مَاءُ الْبَيْتِ، لَا مَدَّ فِيهِ وَلَا جَزْرَ.

مُعْتَمَّةٌ حَوَافُّهُ كَأَنَّهَا هَاوِيَةٌ!

يَشْتَدُّ بِيَدِهِ الصَّغِيرَةِ فِي الطَّرْقِ عَلَى جُدرانِهِ.

ثُمَّ يَتَوَقَّفُ، وَيَخْشَى أَنْ يُوقِظَ الذَّنَابَ فِي الْبَادِيَةِ!

حَوْلُهُ رِذَاذُ خَفِيفٍ، مَلِيءٌ بِأَطْيَافٍ مَنْ أَحَبَّهُمْ، وَفِي بَرودةِ الْغِيَابِ: كَانَتْ
لَحْظَةُ الْانْفِصَالِ الْأُولَى.

فَقَدْ طَالَ حَبْلُ الْحَلْمِ ثُمَّ انْقَطَعَ!

يَا اللَّهُ!

كَيْفَ لِطِفْلِ أَنْ يَفْقِدَ يَقِينَ الْحُبِّ؟

أَنْ يَشْتَبِكَ فِي مَلْحَمَةِ الشُّكِّ؟

أَنْ يَتَلَاشَى وَعَيْهِ الطُّفُولِيُّ، فَيَنْضَجَ فِي تَنُورِ التَّجَرِبَةِ دَفْعَةً وَاحِدَةً؟

وَمِنْ مَأْسَاةِ شَخْصِيَّةٍ إِلَى تَجَرِبَةٍ كَوْنِيَّةٍ، يَشَابُهُ يُوسُفُ فِي «تَنُورِ
التَّجَرِبَةِ» نِيرَانِ أَبِيهِ إِبْرَاهِيمَ.

كَيْفَ أَصْبَحَتْ اللَّحْظَةُ الْمَاضِيَّةُ مَلَأَى بِرَمَادِهِمْ!

فَجَاءَ، يَتَسَرَّبُ الْبَرْدُ إِلَى جَسَدِهِ، وَفِي قَلْبِهِ كَانَ الْبَرْدُ مُمِيتًا!

يَبْحَثُ عَنْ وِسَادَتِهِ فِي هَذِهِ الْهَآوِيَةِ الْفَارِغَةِ، يَرْتَجِفُ.

كَيْفَ فَقَدَ صَوْتَ أَبِيهِ؟

وَكَيْفَ لِهَذَا الرَّعْبِ الْمَنْثُورِ فِي حُلْكَةِ اللَّيْلِ أَنْ يَهْدَأَ!

كَمْ مَرَّةً انْتَظَرَ صَامِتًا بَعْدَ نِدَاءٍ لَمْ يَسْمَعْهُ سِوَاهُ!

ما أَقْسَى الأَمَلِ في كثيرٍ من الأحيان!
وتحتَ وطأةِ الحاضِرِ العَنيفِ، أدركَ يُوسُفُ أَنَّ الوقتَ الفاصلَ بين (قبل)
(وبعد) هو: هذه البِئْرُ!

يَتَبَدَّدُ الطِّفْلُ فجأةً في مَتَاهاتِ الخوفِ.
يَوَدُّ بَنَبْضِهِ لو يقولُ لـ (الظل الأخير): سلامًا!
هل كانتْ هذهِ لحظةَ الانفصالِ الأولى؟
وبين الذاكرةِ والحقيقةِ بدأ التَّأويلُ من غيابِ الجب!
لكن..

ما كان يدري يوسفُ أَنَّهُ ذاتَ يومٍ سَيلِقاهم رُكَّامًا.
ذاتَ يومٍ، سيحصى ذِكرياته معهم.
وفي عتمةِ الجبِ رَأَهم يوسفُ، تعرَّتِ الحقيقةُ بكلِّ قسوتها!
لقد رَأَهم على حقيقتهم.
على حقيقةٍ ونحنُ عصبية!

أحيانًا لا تتكشَّفُ الحقيقةُ في النورِ بل نراها جليةً في العتمة!
(لقد كانت هذه لحظة الانقلابِ على كلِّ شيءٍ: المكان، الذاكرة، اللغة،
الصوت، الأمان، واستحالة العودةِ إلى النسخةِ الأولى من الذاتِ بعد الألمِ
العميق).

ولقد صار يوسفُ أمينًا على زمنِ الألمِ ومذاقه ويعرفه جيدًا، ويمتلك
مفاتيحه.

لكن..

حتى لو تساقطتِ السَّنَوَاتُ تباغًا، ثَمَّةٌ مَا لا يُمكنُ أَنْ نَنجو منه.
ثَمَّةٌ ذَكَرَى نَظْلُ عالقين فيها، ولا يسمو عليها إلا الصَّدِيقون!

فقد كان ما جرى زَمَنًا كثيفًا في الذاكرة، لا يقدر على تجاوزه إلا صديق!

ومن قاع البئر إلى أفق الوحي، ستظلُّ قصّة يوسف، في المَفْتُوحِ من قصص التاريخ.

في كل مظلوم فقد إنسانية الروابط الأخوية واشتدت عليه أيدي الظلم.
في كُلِّ طفولة، تُباع وتشتري.
في كُلِّ طفولة، تشتدُّ عُصبة القوة على تغييبها، على سكب أحلامها
وعلى اغتيال حقوقها.

في كُلِّ طفولة، تحاصر في غيابة الأسر.
وفي كل المستضعفين الذين تلقيهم العصابة في غيابة الظلم، وفي كُلِّ
الذكريات المملوءة بفيض الألم!
وملائكة الابتلاءات في كل ذلك تعرف أسماء من رحلوا إلى تخوم الألم،
وأسماء من خاطوا المسافات غرزة غرزة.

فيوسف..

سورة لم تنته، بل هي في كُلِّ زَمَانٍ لها ميقاتٌ فيه تُفسَّر!
وليست «ماضيًا»، بل هي وصفٌ مستمرٌّ لحاضر يتكرَّر.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهُمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾
فجأة، لا يلاحظ يوسف الفقد.

فجأة، يلاحظ يوسف امتلاء المكان بالأنس!
يتسع له الحضور في المشهد من نقطة البئر الغارقة في العتمة،
ويتمُّ له الوصول!

{وأوحينا}، بنون العظمة الإلهية، فهذه الوحشة لا يؤنسها إلا الله!
{التنبيئتهم}، بلام القسم ونون التوكيد.

{وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}، وليس لا يعلمون، وفي هذا بيان لشدة خفاء القدر.

وهنا وعد التدبير الإلهي، في كَيْدِ غُلُوبِي عَجِيب.

ودومًا دهشة القدر تُبْنَى على غفلة الظالمين.

ما زالت شقشقة الفجر بعيدة لكن الهمس يشق آلاف اللحظات الصامتة.

لتنبئنهم بهذا وهم لا يشعرون.

ترى، من المتكلم؟ صوت ساكن بلا صوت!

(وفي القرآن نفهم أن السقوط الجماعي يكشف خراب الجماعة لا

الفرد. وفي غيابة الجُبِّ، ينضج الطفل فجأة في تنُّور التجربة، ويتحوَّل

الجُبُّ من حفرة في الأرض إلى بوابة للوعي والتأويل.

لكن في ذروة الغياب، يبدأ الحضور الإلهي، ويلقى في القلب أولُ

وحي يُحيي اليقين وسط عتمة الخذلان).





قميص الدم

﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ ﴿١٨﴾ -

الحرزُ يبدأ بالخديعة



﴿وَجَاءُوا آبَاءَهُمْ عِشَاءَ يَبْكُونَ﴾ ﴿١٩﴾

عشاء، حتى لا يطالعهم يعقوب،

لأن الملامح تُنبئ عن رغبة الروح؟!

منهكون من وخزة الخطيئة، ومن لهيب الشمس الحارقة، يمتصون هزيمة
الذل في عرقهم، وبشفاه غليظة، {قَالُوا}، فيأ أول الكذب.
إنَّ المصائب تخلق الأصوات، تجعلها عالقة تكاد لا تُنطق، فكيف
استطعتم ألا تصمتوا؟!

كيف ثبتت الكلمات في حناجركم!

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْلَعِنَا﴾ ﴿٢٠﴾، يا
أبانا جميعاً، فنحن كلنا بلا استثناء في المشهد، ثم {إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا
يُوسُفَ}، تغص مآقيه بدمعة عصية ويشدُّ فيه الظمأ على الظمأ، وتفجعه

تلايف الكلمات، تركنا، كلمة واحدة، هي بعض الصواب في الكثير من الكذب!

تَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا، فَهَلِ الْاِغْتِيَادِيُّ أَنْ يَحْرُسَ الْمَتَاعَ الصَّغَارُ؟
 وهل المعتاد أن يمضي كل الكبار للسباق دون أن يتلکأ منهم أحد؟
 ألا يعترض واحد، كيف يترك الطفل وحده في بادية مفتوحة!
 ثم ماذا؟

فَأَكَلَهُ الذُّئْبُ، رَوَايَةٌ كَانَتْ فَوْقَ مَا يَشَاءُ الْخَيَالُ!
 كيف لم تسمعوا صوت الذئب وهو آت!
 {فَأَكَلَهُ الذُّئْبُ}..
 وَلَيْسَ افْتَرَسَهُ، أَوْ نَهَشَهُ.

الفاء فاء السرعة، وتلك ليست عادة الذئاب التي تتربص طويلاً
 قَبْلَ أَنْ تَنْقَضَّ عَلَى الْفَرِيَسَةِ!
 وهل الذئب في عَادَتِهِ يَأْكُلُ الْفَرِيَسَةَ كَامِلَةً، وَلَا يَدْعُ مِنْهَا إِلَّا قَمِيصَهَا!
 إن الافتراس عادة الذئب، فإذا افترس وجب أن يمزق ثيابه كلها، لكن إخوة
 يوسف جاؤوا على قميصه بدم كذب فدل ذلك على أن الذئب لم يفترسه.
 ومعنى افترس ليس معنى أكل، إذ افترس دق عنقه وكسره، لكن الأكل
 يعني انتهاء الضحية تماماً ولا دليل عليها.

في روايتهم الكثير من الإرتباك المفاجي، وسردية غارقة في فوضى
 مقصودة.

وَوُورِي يُوْسُفُ بِخَدِيعَةِ الْكَلِمَاتِ وَزِحَامِ اللَّوْنِ الشَّاحِبِ فِي الْوُجُوهِ.
 يَتَكَاثَرُ الْاِزْتِيَابُ فِي كُلِّ كَلِمَةٍ، وَمَعَ كَلِمَةٍ، يَنْحَلُّ مِنْ كَلِمَاتِهِمْ مَا قَدْ عَقَدُوا.
 كَأَنَّ كُلَّ كَلِمَةٍ تَقُولُ:
 لَنْ تَجِدَ الْحَقِيقَةَ، لَنْ تَجِدَ!

الْغُمُوضُ، الضَّبَابِيَّةُ، الِازْتِبَاكُ، التَّلَاعُبُ اللَّغَوِيُّ، الْفَوْضَى الْمَقْصُودَةُ.
وَتَعَارُضُ الصُّورِ بَيْنَ الْحَقِيقِيِّ وَالْوَهْمِ.

يتعثر الصُّوت وتتعثر الصُّورة وَالْوَقْتُ، مليئون بالفوضى مثل صلاة
نابضة بالنفاق!

وكمْ كان مُفْزَعًا، أَلَا يَفْهَمُ سَوَى يَعْقُوبَ الْحَقِيقَةِ!
وكمْ كان مفزعًا، أَنْ يَعْتَرِفَ بِأَنَّهُ وَحْدَهُ وَلَا أَحَدٌ يَنْقَاسِمُ مَعَهُ الْخَسَارَةَ.
وَلَا أَحَدٌ يُخَفِّفُ عَنْهُ ثِقَلَ الْعَتَمَةِ!

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ
الدَّيْتُ﴾ ١٧

وَلَكِنَّ جَاءَ ذِكْرُ ذَهَابِهِمْ لِلِاسْتِبْقَاءِ مُؤَكَّدًا بِـ {إِنَّا}، فَإِنَّ الْجُمْلَةَ مَا دُونَ ذَلِكَ
خَلَّتْ مِنَ الْمُؤَكَّدَاتِ!

{وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ}، يَنْصِتُ لِأَصْوَاتِهِمُ الْمَلَأَى بِالظُّلْمِ،
تَتَرَاوَعُ أَشْبَاهُهُمْ عَلَى نَارِ شَاخِبَةٍ، خَفَافًا مِنْ يُوسُفَ، وَلَا قَلْبَ يَحْمِلُ أَثْقَالَ
الْوَجْعِ!

وَلَنَا، اللَّامُ تَعْنِي أَنْ يَسْلَمَ لَهُمْ!

يَا لِلظُّلْمِ!

يُرِيدُونَ لِيَعْقُوبَ أَنْ يَسْتَسْلِمَ لَهُمْ، فَهَلْ يُلْغَى تَارِيخُ الْإِنْسَانِ فِي لَحْظَةٍ
فَوْضَى؟!

وَالْتَعْبِيرُ بِـ «مَا» النَّافِيَةِ، وَ«بِ» الزَّائِدَةِ، لَتَقْدِيرِ تَأْكِيدِ النَّفْيِ، أَوْ رَبَّمَا
الْمَهْدُورِ مِنْ يُوسُفَ!

فَجَاءَ يَفِيضُ الْمَكَانَ بِالْوَحْدَةِ.

أَشْيَاءُ كَثِيرَةٌ كَانَتْ تَلْتَمِعُ فِي عَقْلِ يَعْقُوبَ، وَتُؤَلِّمُهُ بِشِدَّةٍ.

رَتَمَ مِنْ رَتَابَةِ الْقَهْرِ وَالْأَسَى، يَتَسَّعُ وَلَا يَتَوَقَّفُ مَعَ كُلِّ كَلِمَةٍ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ!

يقاوم يعقوب هَشاشة كلماتهم، فتشده إلى دَوَّامتها، ويغرقُ في المزيد!
يحاول أن يخرج نفسه.

فيجدها مُبتَلَّةً بكلِّ هذا التَّعب!

وما أنت بمؤمن لنا، لهم هم، كم كانت أرواحهم شحيحة بالحُب، إذ قتلوا
يوسف لأجل (لنا)!

وكم هو مُروِّع.

أن تعرف غُمق الخَيبة في المكان!

وكم هو مُروِّع!

أن تعيش على حافة الهاوية طوال الوقت!

المكان مكتظ بهجير ما، وفجأة يستيقظ يعقوب على فراغ لن يُطوى أبداً،
والأيام فواصل انتظار!

وبكل ما يؤذي الروح صار المكان سَخِيًّا، وفائضًا، بكل أسباب الوحدة
والوحشة!

وفي لحظة..

كبرت الفَجوة بينه وبينهم، وسقطوا في منفى الروح!

والهامش دومًا مَنفى، لمن لا يخرجُون من حُظوظ أنفسهم.

قميص البرهان أم شهادة الكذب!

{وجأؤوا على قميصه بِدَمٍ كَذِبٍ}، وليس كاذب بل كذب والوصف
بالمصدر يفيد المبالغة.

يا لَغَرابة اللقطة رغم المبالغة، وكم كانت لحظة مليئة بالأسى!

فَقَدَ عادوا بالقَميص، وعَادُوا بالهَزِيمة.

وكان الانتصار هَزِيمة أرواحهم!

وفي المشهد، لَمْ يَكُن القَمِيصُ هُوَ الْمُضْرَجُ بِالْمَوْتِ، بَلْ كَانُوا هُمْ!

تحتشد النوايا في ملامحهم، يخل لكم وجه أبيكم.

كانت هذه العصبية البائسة، تحاول أن تتسلل إليه بالهزيمة كُل ليلة! يحاولون أن يتوهَّجَ لهم، لكن المكان أصبح مُهيأً للانطفاء! وغدا المشهد مَشْهُدًا مَلُوثًا بالسُّوء الذي يَخْتَلِطُ به فقد رهيب. تُرَى..

مَاذَا يَمْلِكُ الْإِنْسَانُ حِينَ يَفْقِدُ ذَاتَهُ، حِينَ تَنْزِفُ إِنْسَانِيَّتَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ! {وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ}.

التَّعْبِيرُ يُوْحِي بِهِمْ، يَسْتَعْلُونَ عَلَى الْقَمِيصِ بِالْذَّمِّ. يُعَارِكُونَ الدَّلِيلَ، كَيْ يَلْتَصِقَ بِالْقَمِيصِ، وَالْقَمِيصُ يَأْبَى أَنْ يَشْهَدَ لَهُمْ! {بِدَمٍ كَذِبٍ}.

وَوُصِفَ الذَّمُّ بِالْمَصْدَرِ، مَبَالِغَةٌ فِي مَعْنَى الْكَذْبِ وَمَبَالِغَةٌ بِلَاغِيَّة! كَأَنَّ الدَّلِيلَ يُبْرِّئُ الذَّنْبَ.

أَيُّهَا الذَّنْبُ لَا بَأْسَ عَلَيْكَ، إِنَّمَا الْبَأْسُ عَلَى مَنْ تَرَكَوا الصَّغِيرَ بِلا قَمِيصٍ! (جاءوا، تعبر عادة عن المجيء الذي فيه صعوبة أو مؤامرة).

وفي الحالات التي يَأْتِي فيها الفعل مع التَّكَاذِبِ أو الخديعة، نَرَى أَنَّ الْمَجِيءَ يَتَّخِذُ صِفَةً فِيهَا مَجْهُودٌ وَتَكْلُفٌ، حَيْثُ يَكُونُ الدَّلِيلُ الْفَاسِدُ أَوْ التَّنْفِيزُ الْمَشْبُوهُ وَرَاءَ الْمَجِيءِ. وَتَكَرَّرَ «جاءوا» يَعْكُسُ غُمُوضَهُمْ أَوْ التَّلَاعِبَ، وَيُظْهِرُ سَعِيَهُمْ إِلَى إِخْفَاءِ الْحَقِيقَةِ أَوْ تَغْيِيرِ الْوَقَائِعِ.

أما «أتى» فهو أَيْسَرُ وَأَبْسَطُ فِي الْفِعْلِ، وَيُسْتَعْمَدُ عِنْدَ وَقُوعِ الْأَشْيَاءِ بِسَهُولَةٍ أَوْ صَدَقَ. لِذَا نَجِدُ أَنَّ «أتى» غَالِبًا مَا تَأْتِي فِي سِيَاقَاتٍ لَا تَحْتَمِلُ الْخَدَاعَ، بَلْ تَكُونُ أَفْعَالًا مُبَاشِرَةً وَصَادِقَةً.

وفي متابعة عجيبة للمفردة، تتكرر مفردة جاءوا في أول القصة حيث يجتمع مجيئهم ومجيء الدليل الفاسد، وتظهر مفردة المجيء في ثلاثة عشر موضعاً، ثم تظهر مفردة مقابلة (الإتيان) وتتكرر، عندما يستبين الحق بما يحقق التوترات الدلالية في السورة).

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾ ﴿١٨﴾، بل أداة عدول وردّ ضمني ورفض لرواية تشبه خذلان النهاية.

وسولت معناها زينت له، وكلمة طوّعت أشد. وفيها جهد ومبالغة في التطويع، لكن التسويل لا يحتاج إلى مثل ذلك الجهد، فقط سولت لهم أنفسهم ففعلوها!

يا لمرارة المعنى!

يشد يعقوب على شغاف قلبه وتد الثبات، ودفعة واحدة يتفجر الكلام الحبيس.

وعند حافة الإنكار منهم تعلو ارتعاشة اليقين، بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً!

يَا لارتعاش الأوتار في حلق يعقوب!

يَا لرجفة الشّفاه!

وَيَا لارتخاء الجفن!

وفي حضرة صمت مهترئ يتشَبَّث بلسانه الإنكار، بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً!

يَجِفُّ لسانه، وَيُطَوِّقُه الحُزن بأجنحته كُلاًها، يشتعل جوفه بحريق رمادهم، ويبدو الليل بلا نهاية!

إذ التسهيل هو تزيين النفس ما تحرص على حصوله، فما الذي ارتكبه؟ والإيهام في (أَمْراً) يحتمل عدة أفعال: من قتل، أو بيع، أو تغريب، لأنه لم يعلم تعيين ما فعلوه.

وتنكير (أمرًا) للتهويل، فقد أدرك يعقوب أنهم تركوه بلا طوق نجاة!
فجأة، تهوي اللحظة في مزيج من الخوف والهلع في هذا الصمت الهش!
ويأ لقلب يعقوب!

وكل احتمالات اللقاء، تبدو مغمورة باليأس!
تنفلت مسارب دمع ثرية ومع كل بقايا يوسف كان لا سبيل لاجتناب
الحزن.

(وعبر يعقوب عليه السلام عن الجريمة بنسبتها إلى أنفسهم، وفي ذلك
إيحاء بأن الجرم لم يكن فقط فعلًا جسديًا بل انحدارًا داخليًا أخلاقيًا، إذ رمى
الحقيقة على النفس التي تعرف وتكتم).

وكل «الذين علقوا في الحسد» كانوا «نص الهامش» وفي «مقام الأنفس
المظلمة».

لذا {قال بل سأل لكم أنفسكم}.

أنفسكم أنتم، إذ الحسد يهيئ ولا يسكن، كأنه النار تشعلها حبة الحصى!
يشيخُ العمر من وهن الحسد.

وتعمى البصيرة عن رؤية ما سوى المحسود.

وتضيق الإنسانية، بين حسدٍ وقلق!

وفي ثلاثية مأسوية متصاعدة: تبدأ من الجسد (الشيخوخة المبكرة)، ثم
الروح (العمى البصيري)، ثم الجوهر (الإنسانية نفسها). وكلها ضحايا لحالة
واحدة: الحسد.

لكن يعقوب كان حزنه مضاعفًا، فقد كان القتلُ بنيه، كل بنيه وذلك ما لا
تعرفه الحياة!

ربما لا نفهم أن يعقوب حينها كان بين يدي موته!

يَمُوت الأبُ إذا رأى أَعْصَانَهُ تَحْتَرِقُ، إذا سَمِعَ لَحْنَ النُّهَايَةِ فِي
امْتِدَادِهِ!

فكيف إذا كان الحريق يلتهم كل حقله!
غاب يوسف وماتوا في قلبه.

وفي قمة الأسي لم يجد سوى ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ﴾ ﴿١٨﴾
فصبر جميل، أي اصبر صبرًا جميلًا. عدل به عن النصب إلى الرفع للدلالة
على الثبات والدوام، وفي معنى الرفع كان يعقوب يهيئ قلبه فقد هبت رياح
الابتلاء.

من أين ليعقوب الثَّبات، إذا احتشَدَتْ فِي وَجْهِهِ كُلُّ الهَزَائِمِ؟!
فَقَدْ الصغير، وخيانة مُبَيَّنَّة، وصَوْت الذكريات!
كأنها ثلاثية الألم: ألم الفقد، وألم الغدر، وألم الذكرى.
يخلو المكان ولا يسمع صوت النحيب فيه إلا يعقوب.
فَصَبْرٌ جَمِيلٌ، هذه الفاء في العربية يليق بها أن تكون فاء الصبر، وبين
الجرح والاستجابة كانت فاء فورية، كأنها ملاذ قلب!
لكن..

من أين يأتي الحزن؟!
ربما من لحظة النسيان، أن الحياة كلها على الأرض ظل!
ومن أين للقلب أن يَسْكُنَ، إلا بمعية الله!
نسألك يا الله قلبًا أنت كل شأنه.

ونسألك يا الله أن تجعل كل لحظة صبر خلودًا في نعيم الفردوس الأعلى.
فبَعْضُ الْأَحْدَاثِ، تحملنا إلى المَوْتِ، فنحيا حياة ناقصة من شدة
مَا قَتَلَتْ فِينَا!

وبين رائحة مُسافرة، وجذور تسكن الرُّوح يحاول يعقوب التعافي.

لكن من يلمُّ رائحة تبعثرت في منافِ شتى!
هكذا إذن صار يوسف رائحةً مُسافرة، لكنَّ جُذورها ظلت في رُوح
يعقوب!

وكل هذه العُصبة، كالأمس كانوا!
وكل هذه العُصبة ما كانت لتُغلق الأفق عن عين يعقوب!
وعلى شموع الحزن انتهى المشهد بوداع بلا جنازة، وضجيج بكاء
صامت.

ترى، كيف لم يروا وجه أبيهم على شفا دَمعة، وقلبا ظل على وشك البكاء؟
وأنتى للجرح أن يُضمدَ بعدَ اليومِ بما يُفسده؟!
وكيف جعلوا يوسف حُزناً مُمتدّاً للأمام لا وراء له!
أكله الذئبُ.

لم تكن تلك جنازة طفله، بل كانت جنازة قلبه!
فقد فقدهم كلُّهم يوم علقوا هناك، في ذواتهم!
وبعض الأوجاع يولد أرقها كلُّما أقبل الليلُ.
وجوه الأبناء، أصداء الكلمات، أشياء الذكريات، والخوف من برودة اليأس.
والأحلام المشتعلة، وإلحاح الخوف من مجهول ما، كل ذلك كيف يباغتنا
دُفعةً واحدة!

يتلفَّت يعقوبُ، ويفقده، يفقد..
صوت ضحكة طفل كان بالله يحلم، صوت ارتطامه بالتربة.
لُغَة الطُفولة، وآه الجوع لحليب الماشية.
وعيوننا ضاحكة يتكئ عليها.
تلك المسرات الصغيرة، فقدتها يعقوب دفعةً واحدة.
وفقد معها دهشة الحياة.

وَابْتَلَعَ صَوْتَ النَّشَارِ كُلَّ مَا حَوْلَهُ!

الْأَطْفَالُ كَالْحُبِّ لَا تَدْرِي سَبَبَهُ.

وَدُونَهُمْ تَسَحَّبُ الْحَيَاةُ عَلَى الْقَلْبِ وَشَاحَ حُزْنُ ضَبَابِي يُبْعَثُ شَجَنًا
سَرْمَدِيًّا، لَا تَدْرِي كَيْفَ تَقَطَّرُ الرُّوحُ بَعْدَهُ مُتَعَبَةً، وَحِينَ يَصْبِحُ الْغِيَابَ طَقْسًا
يَوْمِيًّا يَتَضَاعَفُ الْوَجَعُ!

يُغَادِرُ يُوسُفُ يَعْقُوبَ، وَالْحُبُّ فِي قَلْبِهِ يَهْدِرُ مَوْجَهُ!

فَجَاءَ، يَفْرُغُ الْمَكَانَ مِنْهُ، وَيَمْتَلِئُ بِصَمْتٍ يَحْنُ إِلَيْهِ.

ليوسف، وللحُب، وللإنسانية، وللتسامح، وللطهارة، وللفرح وللأخوة
الحقيقية!

لقد حاول يعقوب النسيان، لكن كل الطرق المؤدية إلى النجاة، كانت
تضيق فجأة، كأنَّ يَدًا تَحْمِي الصَّخْرَةَ مِنَ الانْفِرَاجِ!

كم هو مؤلم، أَنْ تَقْبِعَ فِي الذِّكْرِيَّاتِ، وَيَصْبِحَ الصَّمْتُ الطَوِيلُ هُوَ نَجَاتِكَ!
وَطَوَالَ الْوَقْتِ..

لم يجد أحدًا يَتَسَّعُ لهذه الكثرة من الألم، وحاول عبر البُكاء.

ثُمَّ جَفَّتِ الدُّمُوعُ بَغْتَةً، مِثْلَ غَيْمَةٍ انْهَمَرَتْ بِغَزَارَةٍ ثُمَّ فَقَدَتْ كُلَّ مَائِهَا.

لَا قَلْبَ يَا يُوسُفَ يَحْتَمِلُ الْوَدَاعَ، فَكَيْفَ يَحْتَمِلُ الْبَقَاءَ بَعْدَكَ!

وإن كان الفقد موتًا، فإن البقاء بعده احتضار ممتد، وَفِي فَوْضَى الْجُرْحِ
كَانَ يَسْتَقِرُّ لَيْلٌ بِهِيمَ، وَتَصَمَّتْ الْحَيَاةُ!

وفي مكر التغيب يَخْتَفِي الْأِسْمُ فِي الصَّمْتِ، وَلَا أَحَدٌ يَنَادِي، يُوسُفُ!

تفرغ البادية من صوته واسمه وروحه وريحه، وتفرغ ألسنتهم منه، فَيَا
لِلْغِيَابِ إِذْ تَمُوتُ فِيهِ الْأَسْمَاءُ!

يُجْرِفُهَا النَّسْيَانُ، وَفِي لَيَالِي الشِّتَاءِ الطَّوِيلَةِ نَتَلَعَّمُ فِي تَذَكُّرِهَا.

تَسْتَجِمُّ قُدْرَاتِكَ اللَّغْوِيَّةَ، وَتُحَاوِلُ عَبَثًا أَنْ تَنْطِقَهَا.

تَبَحْتُ فِي مُعْجَمِ الذِّكْرِيَّاتِ عَنْ أَوَّلِ حَرْفٍ، وَعَلَى يَأْسٍ تَكَادُ تَجِدُهَا.
وَفِي لَمْحَةٍ، بَدَأَ اسْمُ يُوسُفَ يَتَوَارَى مِنْ هُنَاكَ، فَهَلْ نَسِيَانِ الْاسْمِ يَوَازِي
تَأْكُلِ الذَّاكِرَةَ، أَمْ كَانَ هَذَا وَهْمُهُمْ!

هَذِهِ الْمَشَاعِرُ الْمُعْتَمَةِ، تُخْرِجُ صَاحِبَهَا عَنْ نَصِّ التَّمَكِينِ لِلْأَبَدِ.
وَسَيَبْقَى الْهَامِشُ مَنْفَى، لِمَنْ لَا يَخْرُجُونَ مِنْ حُظُوظِ أَنْفُسِهِمْ.
وَلَقَدْ ظَلُّوا فِي نَصِّ الْقُرْآنِ، أَهْلُ الْهَامِشِ.
مُضَافُونَ إِلَى يُوسُفَ (إِخْوَةَ يُوسُفَ)، عَالِقُونَ فِيْمَا حَاولُوا
تَغْيِيْبَهُ!

كَيْفَ جَعَلَ الْقُرْآنُ الْهَامِشَ مَنْفَى وَعَقُوبَةً وَمَكَانَةً فَقَطْ بَعْدَ تَعْرِيفِهِمْ!
وَفَقَدُوا فَرْدِيَّتَهُمْ وَقِيَمَتَهُمْ فِي مِيزَانِ السَّرْدِ الْقُرْآنِيِّ.
وَمِنْ عَجِيبٍ مَا وَرَدَ فِي الْقِصَّةِ، أَنَّ يُوسُفَ ظَلَّ يُذَكِّرُ بِالْاسْمِ.
وَفِي الْمَقَابِلِ يُذَكِّرُ الْإِخْوَةَ كُلَّهُمْ، دُونَ اسْمٍ وَلَا عَدَدٍ، فَقَدْ كَانَتْ تِلْكَ
قِيَمَتُهُمْ، وَذَلِكَ مَقَامُهُمْ!

(وَفِي مَشْهَدٍ تَضْيِيقٍ فِيهِ اللُّغَةُ، يَصْبِحُ الْكُذْبُ جَمَاعِيًّا وَيَغْدُو يُوسُفُ
فَقْدًا بِلَا نِهَآيَةٍ.

وَالْمَكَانُ يَغْرَقُ فِي فَوْضَى لَا يَنْقُذُهَا إِلَّا يَقِينٌ يَعْقُوبُ الَّذِي اخْتَارَ
الصَّبْرَ الْجَمِيلَ لَا الْعِتَابَ.

وَفِي مَقَابِلِ الْحَذْفِ الْقُرْآنِيِّ لِأَسْمَاءِ الْجَنَّةِ، يُخْلَدُ الْاسْمُ الْوَحِيدُ الَّذِي
لَمْ يَغِبْ: يُوسُفُ، إِذِ النُّورُ لَا يُغَيَّبُ وَإِنْ أُلْقِيَ فِي الْجُبِّ).





وبدا السفر إلى التاويل

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ 19



﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ 19

**كان يوسف وحده في رحلة يحتاج فيها
إلى عصبة كي يحتملها!**

{وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ}، تُساق ليوسف كي تعبر به من عواء الهاوية!
سَيَّارَةٌ: أي قافلة لكنها نَكْرَةٌ مَجْهُولَةٌ في نص القرآن، والجهة مجهولة،
وأول خيط يكتنفه غموض ضبابي، لكنها تُرْخِي دَلُوهَا، فيُشْرِقُ الْفَرْجُ من
مَنْبَعِ الْخَوَاءِ، وتنتظم حَرَزَاتِ الْمَسْبِحَةِ!

هكذا إذن، من الموت كانت الولادة، والحضور في الغياب، وفي
المشهد غموض شائك.

وفوق حجاب اللحظة بدأ العروج المطلق.

عَبَّرَ يوسف الموت الكامن وطوى الله له ما لا يُطوى من الأحوال،
وفي مجهول الحكمة يرتب الله له فوضى ما أرادوه منتهى البقايا!
وعلى مسيرة جرح بدأ القدر.

يا يوسف، كأنك وحدك ناءٍ وشاهق مثل نجمة لا تُنال.
اصطفاك الله فأهداك جرحك!

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ ﴿١٩﴾﴾ 19، كَانَ حَبْلًا،
وحبل الله، أطول ممَّا نرى!

فأدلى، وتدلّى له الفرج، فعلى!
وفي ثنائية الدلو والعلو كان الحبل يحملُ في خيوطه الأجوبة الكافية!
فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ، في وقت لا يشبه الأوقات، ينهمر معنى غيمة!
تتحرك الجهات وتأوي القوافل إلى قدر خفي، يصيح أحدهم ﴿قَالَ
يَبْشُرِي هَذَا غُلَامٌ﴾ 19، وعلى مهل يرتفع الحبل ويمد له خيط التمكين!
وأبطأ الدلاء قَبْضًا أَمْلَوْهَا!

هذا غلامٌ، دهشة التعبير توحى بضباية المشهد.
ولقد كان هذا هو «الدلو الذي أسفر عن نبيٍّ» وكانوا هم «الضبايئون حول
الغنيمة!

سيارة، غلامٌ، كلها نِكرات مَجْهولة، وسيظل الخفاء والمجهول سيدي
المشهد حتى لحظة التأويل.

تسيل الصرخات {يَا بُشْرِي}، تحاصره الأيدي ثانية، كل هذا الليل كيف
للصغير أن يضيئه وحده!

يُنْزَع الصَّغِير من دَوَّامة هَلَعٍ، كانت كافية لإزهاق عقله.
يتصايحون بينهم:

{هَذَا غُلَامٌ} واسم الإشارة يُعْرَفُ الغنيمة جيدًا!

لكن الكلمة تُوحى بمعنى غامض وقُضفاض، فهي غَنِيمةٌ باردة، وهي معنى البغي أيضاً.

وتفيض بشهوة المال، فهذا غلام غنيمة، و«يوسفُ، ما زال في انتظار الاسمِ الضائع»!

تَمَرُّ أيدي الرِّجال على شَعْرِ الصَّغِير وَوَجْهه، تغيب يد يعقوب وتشد يد تاجر!

ترتجفُ ساقا الصغير، ولا يلوي قلبه على شيء.

تُورِقُ الصَّغِير الطُّنُون، وَيَحاصره البلاء من جديد.

يتعزَّر في رُكام البُعد عن حضن أبيه، تمتد فراغات لا تنتهي.

أرجوحة تهتز في فراغ الفقد، يتكدس الحنين وتتوارى نجمة صغيرة، يحرق إليهم وَيَفجؤه كُلُّ هذا الخَوْف، لكنه يكبر بعد الحدود، وبالفقد كان يكتمل!

يطوِّقه شوك إحساسهم ويبقيه سؤالاً مؤجلاً!

وفي غبار الغبار كم من المآهات تنتظره! عبودية دائمة، وملح الحقائق يفيض في جرحه.

لا شيء مبشِّر يبدو في مُحيا القادمين.

لا شيء، إلا سِرْبٌ من مزيد العَتمة يَحِجُبُ عن يوسف ما تَبَقَّى له من إنسانيته!

هَذَا غلام!

وفي غربة الاسترقاق، لا أحد يناديك باسم مصغر، لا أحد ينشد لك فتهون مشقة الحياة.

تتسول الروح لغة طارئة، لغة لا تعرفنا، لغة ليس لنا فيها ذكريات.

تتسع عيناك ولا وجوه تشبهك.

ومن محيط الليل إلى ضجيج النهار أصبح عالقًا في تفاصيل ترتيبات العبودية.

﴿وَأَسْرُوهُ بِضَعَةً﴾ 19

و«سرقة الإنسان من الإنسان»، تلك بضاعة آثمة.

بضاعة الاسترقاق، التي اصطحبت مواجع طويلة في تاريخ البشرية!

{وَأَسْرُوهُ}..

تتناوش الأيدي في خفاء سريع، ولا يخفي البضاعة إلا من يخشى افتضاح الأصل.

والجريمة تباركها الجماعة كلها، ومرة ثانية يبرز معنى العصبية وواو الجماعة في حياة يوسف!

كُل لحظة كانت مُكْتَظَةً بأعاصير قادمة.

ترتبك خطي الصغير في حيرة، ويتضرع صمته لله!

وللآلم ابتهالات، يعرفها من ذاقها.

للآلم صلوات، ترفعها الملائكة مُرَدَّة: يا رب آمينا.

وتُصبح الأمنية في قلب يوسف لو تُرخى الحبال، قليلًا!

ومن أرق إلى أرق، وبдраهم مَعْدُودَة، وخطيئة غير معدودة

كَانَ الْكَرِيمَ مَجْهُولَ الْقِيَمَةِ، ﴿وَشَرُّهُ بِثَمَنِ بَحْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ ﴿١٠﴾

لماذا؟

رُبَمَا كَانَ يُوسُفُ مُكَبَّلًا بِالصَّمْتِ، فَلَمْ يُخَبَّرْ عَنْ قَبِيلَتِهِ خَشْيَةَ الْغَدْرِ الْكَامِنِ لَهُ.

وربما لأنه بلا قميص وغبار الإلقاء يعلوه ظنوه بلا قيمة!

يا للقهر، هذا رحيل يتوزع، بين الغربة والحزن!

وَجَاءَ التَّعْيِيرُ بِـ «مَعْدُودَةٍ»، التي تَدُلُّ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ عَلَى أَكْثَرِ مِنْ (١١).



لَكِنَّهَا كَثُرَتْ أَمْ قَلَّتْ، لَا تُوزَنُ بِكَزَامَةِ يُوسُفَ!

لقد كان يوسف أثمن من العَدِّ، وهم جعلوه قابلاً للعدِّ، وكأنهم حوّلوه إلى رقم!

تِلْكَ الدَّرَاهِمُ الْمَعْدُودَةُ..

كَانَتْ بَقَايَا الْخَطَايَا! وكل درهم سيبقى صفة على وجه الإنسانية.

تذهب المؤامرة ويبقى رماد الضعفاء، أو بقايا الإنسان!

صدقني، لا شيء يشبه ما كان عليه قبل «وَأَلْقَوْهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ».

ولا أحد يفهم مذاق أن ترحل إلى أمكنة لم تكن ذكرياتك، ألا تملك النظرة الأخيرة إلى ما وراءك!

وأن تصبح الأوقات عبئًا على انتظارك، وفي يدك مناديل لدمع لا يعرف غير الانهمار.

أن تقول وداعًا وكل روحك تريد أن تبقى رغم انهيار الألم، أن تظل عالقًا في اللاكتمال!

«وَنَحْنُ غُصْبَةٌ، وَكَانَ هُوَ وَحده، كان يوسف وحده في رحلة يحتاج فيها إلى عصبه كي يحتملها!

وكان الرحيل الأول، بلا خارطة ولا أب».

تَمْضِي الْقَافِلَةُ بِالْغَنِيمَةِ.

يَنْقَسِمُ الْعَالَمُ فَجْأَةً بَيْنَ حِضْنِ يَعْقُوبَ وَالْقَافِلَةِ.

تَشْتَدُّ الْقَافِلَةُ فِي سَيْرِهَا، وَيُصْبِحُ الْعَالَمُ عَلَى اتِّسَاعِ مِائَاتِ الْمَسَافَاتِ مِنْ حِضْنِ يَعْقُوبَ.

الْغُبَارُ يَمْحُو الطُّرُقَاتِ وَيَبْقِي الْفَرَاغَ.

وَفِي لَحْظَةٍ مُبَاغِتَةٍ يَتَسَاءَلُ يُوسُفُ: هَلْ تَعْرِفُ قَدَمَاهُ طَرِيقَ الْعُودَةِ؟

بَلَا خَارِطَةَ طَرِيقٍ كَانَتْ الْمَسَافَاتُ رَمَادِيَّةً فِي عَيْنِ الصَّغِيرِ.

وَفِي نَبْضِهِ قَلْقُ فَادِحٍ.

الْكُتْبَانُ الرَّمْلِيَّةُ الْمُمتَدَّةُ.

وبين لون اللايقين، ولون اللامعنى، ولون الغربة كان لا يمكن تمييز البداية من النهاية.

يمد الحنين قلبه ويومئ له بشوق عنيف.

وَعَلَى بَعِيرٍ يَمْسُكُ بِيَدِهِ زَمَامَ الشُّكِّ، وَيَبْحَثُ عَمَّنْ يَجْمَعُ فَوْضَاهُ.

أَعْزَلُ فِي مُوَاجَهَةِ حَتْمِيَّةِ اللَّقْدَرِ.

يستند إلى هودج غص، وتنسل الأحلام واحدًا تلو الآخر في روحه، ويبدو المسير لا ينتهي.

يا إلهي وإله يعقوب وإبراهيم!

كثير هذا الليل علي!

يَا الله، مَا لِيُوسُفَ وَهَذَا الْمَوْعِدِ الْغَامِضِ مَعَ رِحْلَةِ التَّدْبِيرِ؟

أَيُّهَا الْآتِي لِأَقْدَارِكَ، كُلِّ ذَلِكَ كَانَ شَأْنًا إِلَهِيًّا!

وبين خيط القميص، وخيط الذكرى، قطرة قطرة، يُولد الغياب.

تَغْمُرُهُ الذُّكْرِيَّاتُ.

وَبَيْنَ مُوجَتَيْنِ مِنَ الذَّاكِرَةِ يَنْسَحِبُ خَيْطٌ رَفِيعٌ.

يَتَسَرَّبُ صَوْتُ مِنَ الْبَيْتِ، تَنْسَلُ رَائِحَةُ طِينٍ مُبْتَلَّةٍ بِأَنْفَاسِ تَلَهُّثٍ، تَتَدَفَّقُ

الذَّاكِرَةُ.

وتبدو السكك عمياء!

الْجَسَدُ عَارٍ مِنْ قَمِيصِهِ، وَالْعَصَا الْخَشِيشَةُ تَدْفَعُ يَدَهُ النَّاعِمَةَ، يَنْزِلُ فَوْقَ

صَوْتِ مِيَاهِ آسِنَةٍ.

مَنْ يَمْلِكُ سِتْرًا لِكُلِّ هَذَا الْعَرَاءِ؟

وَمَنْ نَقَضَ الْغَزَلَ خَيْطًا خَيْطًا؟

وَمَنْ يُبَادِلْنِي حَيْطَ الْقَمِيصِ بِحَيْطٍ قَمِيصٍ عَلَيْهِ دَمِي وَدَمْعُ أَبِي؟
رُبَّمَا تَبْدُو أُمْنِيَّةَ مُتَعَبَةٍ، أَوْ مُسْتَحِيلَةٍ!

حَنَانِيكَ يَا رَبِّ بقلْبِ الصَّغِيرِ، فَالْحُزْنَ أَكْثَرَ إِنْهَاكًا مِنَ الْأَلَمِ!
قَطْرَةٌ قَطْرَةً يَتَسَاقَطُ الدَّمْعُ فِي صَمْتٍ مُتَعَبٍ.

فَقَدْ كَانَ فِي حَوْرَةِ يُوسُفَ دُمُوعٌ أَكْثَرُ مِنْ فَرْحِ الطُّفُولَةِ، وَبُكَاءِ طَوِيلِ.
يَتَلَفَّتُ الصَّغِيرُ حَوْلَهُ، الرِّيَّاحُ الْعَاتِيَةُ لَا تَرْحَمُ الْحُزْنَ النَّازِفَ!
وَالذِّكْرِيَّاتُ مُتَعَبَةٌ، فَلَا أَمَاكِنَ لَهَا، وَلَا أَسْوَارَ تَزْتَاخُ عَلَيْهَا.

رَبَّاهُ!

مَنْ يَسْتَفِرُّ الدُّرُوبَ كَيْ تَخْتَصِرَ، وَمَنْ يُسِنِدُ الْقَلْبَ فِي هَذَا السَّفَرِ؟

تَرَى، كَيْفَ تَحْتَمِلُ الْقُلُوبُ كُلُّ هَذَا الصَّبْرِ؟

كَيْفَ تَرَى فِي الطَّرِيقَاتِ الْخَاوِيَةِ أَثْقَلَ أَحْزَانِهَا؟

وَكَيْفَ تَحْتَمِلُ ازْدِحَامَ الْقَلْبِ بِالْغَائِبِينَ، وَضِياعِ الْأَمَانِ، الْوَطَنِ، الطُّفُولَةِ،

الْهُوِيَّةِ، الْإِنْتِمَاءِ، وَحَقُوقِ مَشْرُوعَةٍ!

﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾، ﴿٥٠﴾، جَمِيعًا بِلَا اسْتِثْنَاءٍ، مَنْ بَاعُوهُ لِلْمَوْتِ،

وَمَنْ اشْتَرَوْهُ بِثَمَنِ بَخْسٍ!

وَكَانَتْ تِلْكَ جَمَاعَةُ الْخِذْلَانِ.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾، ﴿٥١﴾، مِمَّنْ سَبَقُوا وَمِمَّنْ لَحِقُوا!

يَتَنَفَّسُ يُوسُفُ بِبِطْءٍ.

وَمَعَ كُلِّ خَطْوَةٍ كَانَ يعلو التَّدْبِيرُ فَوْقَ الْبَيْعِ، كَانَ يَتَصَاعَدُ التَّدْبِيرُ!

تَمْضِي الْقَافِلَةُ وَلَا تَدْرِي ظِلَالِ التَّدْبِيرِ عَلَى الْخَطَى، وَيُوسُفُ لَا يَبْلُغُ مَا

تَرَاهُ عَيْنُ اللَّهِ!

(وَمِنْ رَائِعِ التَّعْبِيرِ النَّفْسِيِّ، تَكَرُّارُ حُرُوفِ الْمَدِّ فِي السُّورَةِ.

والمدُّ يحتاج إلى جُهدٍ نفسيٍّ، وهو ما يتناسب مع الأنين والحزن، والنفس المهمومة تجد في المدَّ متنفساً لها، فحين تصل إليه، تمدُّ أنفاسها، متخفِّفةً مما تحسُّ به من ثِقَلٍ شعوري.

وفي الوقت نفسه، تحقِّق حروفُ المدِّ إيقاعاً تأثيرياً، يُنبئ عن لهفةٍ عاطفيةٍ جيّاشة.

هنا المدود تحقّق بعداً صوتياً يُوازي بعد المعنى التأويلي!).

(يخرج يوسف من غيابة الجبِّ لا على أقدام النجاة، بل على حبلٍ من الغيب امتدَّ من قدرٍ إلهيٍّ خفيٍّ. تتحوَّل لحظة الاسترقاق إلى ولادةٍ جديدة، حيث يُباع الكريم بثمنٍ بخس، لكنَّ التدبير العلوي كان يتعالى فوق السوق.

تتجلَّى البلاغة في تكرار النكرات {سيّارة، غلام، بضاعة} لتؤكد غموض المشهد في ظاهره، واصطفاءه في باطنه. وبين الحزن المتدفّق والغياب المتجلّي، يولد النور من البئر، ويبدأ يوسف رحلة التمكين وقد فقد كل شيء إلا الله).





﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ ۖ﴾



﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ ۖ﴾

مِصْرُ هِيَ تَضَارِيسُ مَرِحَلَةِ التَّمْكِينِ



مَرِحَلَةُ التَّهْيِئَةِ لِلتَّمْكِينِ

﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾

أي طمأنينة بلغها يوسف يوم سمع الكلمات!
كانت الكلمات آتية من أبجدية التمكن، وأكرمي بدت كلمة كأنها مياه
السَّواقِي.

تتحرَّكُ الأقدارُ، ويبدأ تضميدُ الجراح، وتبدأ الأقدارُ الإلهية في تهيئته
لِلتَّأْوِيلِ.

في تهيئته للقيادة.

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ ۖ﴾

إِذَا، مِصْرُ هِيَ تَضَارِيسُ الْمَرِحَلَةِ الْقَادِمَةِ.

مصر، الأرض التي تبدو في الظاهر موطنَ الاستعباد، لكنها في حقيقة التدبير الإلهي، معراج التمكين!

ومن الامتحان إلى الإعداد ستكون باكورة التمكن!

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ ①

يا الله، على أي مدى تطلُّ تلك الكلمة!

كلمة، يؤيدها الله، فتعصفُ بكلِّ الأحزان، وتُمهد ليوسف كل ما سيكون!

والطلبُ يفيضُ بدفءٍ، ويعلنُ خُطةَ مُحكمة!

(ومادةُ الكرم تدلُّ على العناية بأفضل ما عند الإنسان، لأنَّ الكرم تخيرٌ لأنفس ما في النفس).

وقد يكون في ذكر الكرم هنا، ما يدلُّ على المال، والرعاية، والتعليم، والتأديب، وخير النفقة، وأجودها.

{أكرمى مَثْوَاهُ}.

وانتقاء كلمة المَثْوَى دونَ غيرها، لما فيها من دلالة البقاء، والراحة، والاستقرار.

فالمَثْوَاءُ يدلُّ على النهاية والمَصِير، وكأنَّما هو يصطفيه لنفسه!

وإسنادُ الإكرام إلى المَثْوَى، دون أن يقول: (أكرميه).

فيه كناية عن إكرام الذات، فإذا كان المَثْوَى سيُكْرَم، فمن باب أولى صاحبه!

(وهذا أسلوبٌ بلاغي يُوحى بإكرام الذات عبر المحيط، وهو نوع من التكريم المتصاعد، الذي يبدأ من المكان، ليعمَّ الشخص).

يضمُّه العزيرُ.

فتنفلق له المُنَى حقائق!

وفي رجاءٍ غامض، يُشبه التبنّي القدري يقول ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا﴾ ②

تُرى؛ هل يُقاسُ الفضلُ الإلهيُّ؟

وهل يُفسَّرُ؟ وكيف يُصبحُ الهبوطُ صعودًا؟!

والنَّفعُ هنا..

يَكشفُ حاجةً حقيقيَّةً، يتلمَّسُها العزيزُ في هذا التبنيِّ الغامض.

(وليس النَّفعُ ماديًّا صرفًا، فالقائلُ من ذوي الهيئات والمكانة، بل هو نفعٌ خاصٌّ، فطريٌّ.

يتعلَّقُ بما تُحبُّهُ نفوسُ الزوجين من معنى البقاء بالتناسل.

ثم إنَّ اختيارَ لفظة «عَسَى» دون «لعلَّ»، فيه رغبةٌ حادَّةٌ في المأمول، فـ «عسى» تُستعملُ في المطموع فيه.

على خلاف «لعلَّ» التي تُستعملُ في المتوقَّع.

وكأنما الرغبةُ هنا أشدُّ من الظنِّ، إنها أمنيَّةٌ تُرمى في زوايا الغيب، ليتحقَّقَ منها ما شاء الله أن يكون!

ومع عسى تشعر برجاءٍ فيه شوقٌ وقلقٌ، لا مجرد احتمال، وكأنَّ العزيزَ يرجو رجاءً من لا يملك شيئًا، وهو سيد مصر! مكتبة سرٍّ من قرأ

هذا التناقضَ التعبيري بين السلطة الظاهرة والرجاء الباطني، يُمهِّدُ في السورة لجوهرها العميق: أنَّ التدبير ليس في يد البشر، وإن كانوا أعزَّةٌ في ظاهر الحال).

﴿أَوْ نَتَّخِذْهُ وَلَدًا﴾ 21

نُونُ المَأْوَى هذه، أَمِ المعْنَى المُرادف للتدبير الإلهي!

ربما تبدو رغبة فطرية، لكنها إشارة أولى للتمكين.

وهنا انفتاحُ الغيب، على معنى لك المَقَامُ كُلُّهُ، {نَتَّخِذْهُ وَلَدًا}.

والتعبير بـ«نتخذ» فيه من دلالة الاتخاذ الاصطفاء والاختيار والاهتمام والرغبة ما ليس في غيره.

والقائل، هُوَ عزيزُ مصر، فهل يَتَّسِعُ الخَيَالُ للعطاء الكَرِيم!

هنا ولد وحيد تُقدِّمُ له كل صنوف العناية، وهناك بين عصبه تحاول
دفنه بكل صنوف الغدر!

{أَوْ نَتَّخِذْهُ وَلَدًا}، يُوقِظُ الصغير الحَطَبَ البَارِدَ، فتشتعلُ رغبةُ البُنُوَّةِ.
يحتضنه..

وفي مَهَبِّ الحُزن، ينبُتُ حقلٌ من الفَرَح!

ومن غيابة الجب إلى ملك الأرض الواسعة كُلَّ خطوةٍ مُكتظةٍ بِـ
﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ ﴿٣١﴾

ودومًا زمن الابتلاء محدود وزمن العطاء واسع.

(والتعبير بقوله تعالى مَكَّنَّا لِيُوسُفَ يشير إلى التعليل، أي: لأجله.

لما في اللام من دلالة الحيازة والملك، ويؤيد هذا المعنى تحديد مكان
التمكين بقوله تعالى: فِي الْأَرْضِ.

إذ أشعر بعظم ذلك التمكين، فالأمر ليس متعلقًا بمدينة أو قرية أو مملكة،
بل بالأرض كلها.

وفي دلالة الظرفية في حرف الجر (في) المشعرة بالعمق زيادة معنى
التمكن رسوخًا!

ومن (في) غيابة الجب إلى (في) الأرض.

الحرف ذاته تضيق به الدنيا وتتسع!

لذا قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ ﴿٣١﴾

وكذلك، أي ذلك التمكين بلغ غاية ما يطلب من نوعه بحيث لو أريد تشبيهه
بتمكين أتم منه لما كان إلا أن يشبَّه بنفسه!

ظامئُ الزمن الآتي لَكَ يا يوسف.

وعلى الطريق إلى الحكم، ينتظرك زمنٌ عامرٌ بالتدبير!

يسوقُ الله أدواتَ الحُكم له، سِرْبًا سِرْبًا.

تُستدعى له المَعْرِفة بالحُكم لرؤيا لا بُدَّ أن تكتمل، ويُصبح عمره
سَنوات في صُحبة العزيز وارفة بالتهئية!
سنوات..

هي سَماد المرحلة القادمة، وَيُسْرِجُ الاغتراب ليوسف، زيت
التَّمكين!

يُعَلِّمنا القرآن:

أَنَّ فَهْمَ الحُكْم، يحتاجُ إلى مُمارَسةٍ وعِيشٍ!
وفي القصر، يتقد ليوسف فانوسُ الرؤية!
هنا لُغة الحُكم.

ويوسف، يتعلَّم قراءةً أبجديةً ألواحها.
يُدرِك كُنْه المَسَافَة، بَيْنَ النُّظْريَة والتَّطْبِيق، ويرتفعُ إلى مُستوى
الخبرة!

يُنشئ القصر له زمنَ الإعداد.

فللمرحلة عَدها، وكُل شيءٍ، على مَوعِدٍ مع أقدارِ الرؤيا!
وفي القِصَّة، يصبح النضجُ تنويجًا للحكمة والممارسة.
تظلُّ الخطوات تَعْلُو، حتى يتسلَّق الوعدُ العرش، حتى يبلُغ يوسف
الرؤيا!

﴿وَلْيُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ ⑤

وفي دخول (من) في قوله تعالى: دلالة على أنه علم عظيم واسع، وما
أعطيه يوسف هو بعض هذا العلم.

﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ⑥.

والله بلفظ الهيبة والجلال..

عَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ، وحرف {على} بعد مادة الغلب ونحوها يدخل على الشيء الذي يتوقع فيه النزاع، كقولهم غلبناهم على الماء، و{أمرُ الله} هو ما قدَّره وأرادَه.

يوسف من نفي العصبية إلى اصطفاء السلطة، يتدرَّج التمكين عبر باب قدري (ولدا)!

وبينَ بقاءِ يوسف في البادية، وبين أن يُربَّى في قصرِ الحُكم، تتمدَّد مسافةُ التدبيرِ الإلهيِّ.

وفي مهب الاحتمالات وزحمة الوجوه ينتقيه عزيز مصر ليجتاز الخارطة إلى معنى الرحلة.

رُبَّما كانت الباديةُ أكثرَ أمانًا، لكنَّها يقين لن تبلغَ به إدارةُ خزائن مصر.

والإدارةُ كانت تحتاجُ إلى:

علم، ودُرْبة، ومُمارسة، لذا بدأت الكلماتُ القَدَريَّةُ تُمهِّدُ له دُرُوبَ التَّمكين. نحنُ نرى الشَّطرَ الثَّقيلَ مِنَ المَشهد.

نرى الحُزنَ واقفًا، أمَّا مَا ينضجُ في مَوْقدِ الأقدار، فلا يُرى!

كَمْ تتعبنا الأسئلةُ إذا ما داهمتنا الابتلاءاتُ: كيفَ يكونُ المَخرجُ؟

لكنْ في قصَّةِ يوسف.

تَرى رُؤيا مؤوَّدة، تهاوت في غَايَةِ الجُبِّ، وكُلَّ المَسالكِ إليها، وعرَّة!

تلوحُ التَّهلُكةُ ليوسف، لكن القرآنَ يخلُقُ في وعيِ المُؤمن، أَنَّهُ لا توجدُ قوَّةُ

مستقلةٌ إلا قوَّةُ الله!

يَتَسَّعُ الطريقُ، ويتَّسعُ الحُلُم.

عزيز مصر العقيم، القَصْر، طفولةُ وشباب في أجواء الحُكم، أَكانَ ذلك

عَبَثًا؟!

ذاك نسيجُ التَّهيئةِ!



وهكذا يبدو تأويل الرؤيا، ملاء المكان والزمان.

إذ يتوغل يوسف عميقاً في مواسم النضج.

ويشرع للتمكين شراعه، وتصحّب الأقدار أدوات الحكم ليوسف في غفلة من القوم!

تبدأ جذوة الوعي هنا.

حيث يستفرد يوسف باحتضان العزيز له، وتموت محنة الحسد من إخوته، والوحدة تصبح قدر الإعداد!

وفي هذا الفراغ، يرتقي يوسف في منتهى التهيئة للعرش!

تفتح له أبواب القصر، فيتهجى لغة الحكم كلمة كلمة.

تتدفق العطايا ليوسف، كأنها ترنيمة القدر، وبلا جذر، يزهر يوسف!

سيكرر مشهد الوحدة ليوسف في القصر وفي السجن، في الأولى وحيداً في مدرسة الحكم لينال كل أدوات العناية لتعليمه، والثانية في السجن ليملك صوته الداخلي في مدرسة الصمت!

يا الله!

كيف تقودنا الجراح نحو بوابات التمكين؟

من يفسر منطق الأحداث؟

من يتنبأ، أن ما بين {هذا غلام} نكرة إلى {أن نتخذه ولداً} كانت مسافة الطريق فقط؟

هكذا من مواسم النحيب، إلى مواسم التمكين!

(يغزل نسيج التهيئة بدقة متناهية وتبدأ مواسم النضج، ويشرع في رفع شراع التمكين، مستعيناً بأدوات الحكم التي تسلم إليه في غفلة من القوم.

تنساب العطايا كأنها ترنيمة القدر، ويبدأ الإعداد في الاستفراد به مع احتضان العزيز له، مما يقتل مناخ الحسد والضغائن).

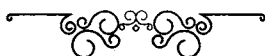
دَخَلَ يَوْسُفُ عَالَمَ التَّأْوِيلِ وَحِيدًا.
لَكِنَّهُ كَانَ مُسَيِّجًا، بِأَقْدَارِ التَّدْبِيرِ لِلَّهِ.
وَبَدَأَ الْقَصْرَ، مِثْلَ مَكَانٍ تُطْفَأُ فِيهِ الْأَوْجَاعُ.
فَإِذَا أُرِدْتَ أَنْ تَفْهَمَ مَعْنَى الْحَدَثِ، فَانْظُرْ إِلَيْهِ مِنْ خَارِجِهِ!
(تبدأ مرحلة التهيئة للتمكين، حيث تتحوّل أرض مصر من موطنٍ
للاستعباد إلى بوابةٍ للتجلّي الإلهي.
ويظهر العزيز كأداةٍ قدرية، تُسند إليه كلماتُ الاصطفاء {أكرمي مثواه}،
فتنهض البلاغة بكثافة في لفظ «المثوى» و«نتّخذّه ولدًا» لتكشف احتضان
التدبير الإلهي من حيث لا يُرتجى.
يُرَبَّى يَوْسُفُ لَا عَلَى عَرْشِ فَحْسَبٍ، بَلْ فِي مَعْمَلِ النُّضْجِ وَالتَّأْوِيلِ، لِيُنْهَيَّا
لِمَلَكِيَةٍ لَيْسَتْ سِيَاسِيَّةً فَقَطْ، بَلْ رُوحِيَّةً وَمَعْرِفِيَّةً.
هَكَذَا تَنْسُجُ الْعَنَاءُ طَرِيقَ الْحُكْمِ مِنْ خِيُوطِ الْجَرَّاحِ، وَيَزْهَرُ يَوْسُفُ بِلَا
جَذَرٍ ظَاهِرٍ، لِأَنَّهُ مَغْمُورٌ بِعَنَاءٍ عُلْوِيَّةٍ لَا يُرَى).





﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ۖ﴾

**يوسف نموذج النضج الذي يليه التمكين
في سننية كونية**



﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ۖ﴾

**وها هو يرتدي الرشد؛ عبادة مُكتنِظَة بتجربة تنتظرها
السَّنابل الجوعى**

لأن (الأشد) تعني: القوة.

والتعبير يُوحى بما هو كامنٌ بعدَ الخواتيم.

فهذه الواو، كأنَّها بدايةُ تتأهَّبُ لِوَقْعِ خَفِيٍّ، تُشَدُّ خيطاً لمرحلةٍ، لكنها فجأة
ستُبعِثُ المَشهد من جديد!

ودوماً، على غيرِ إيقاعِ المُتوقَّع؛ تُثارُ الفوضى في أوَّلِ المشهد.

ثمَّ تُصبحُ الفوضى قانونَ الاكتمال!

{وَلَمَّا بَلَغَ}.

كأنَّه لم يَبْقَ له في القصر ما يرتوي منه.

فقد بلغ!

إذ (لَمَّا) دَالَّةٌ عَلَى تَرْتِيبِ شَيْءٍ عَلَى شَيْءٍ.

وَبَلَّغَ هو الوصولُ إِلَى الشَّيْءِ.

(وَلَمَّا) تؤكد التتابع والتراكم في رحلة يوسف، وكأنها تربط بين مرحلة اكتساب الخبرة السابقة والآفاق المفتوحة أمامه، مع إشارة إلى أن ما بلغه ليس هو النهاية بل بداية تحولات ستصبح قانوناً جديداً للاكتمال).

لقد عبر يوسفُ المستحيل.

وها هو يرتدي الرُّشد؛ عباءةً مُكْتَظَّةً بتجربةٍ تنتظرُها السَّنابلُ الجوعى!

تجربةٌ وُلِدَتْ في القصر، وأوتي فيها يوسفُ مفاتيحَ الرُّشد!

حيثُ تعلَّم لغةَ الحُكم، وقوَّةَ الإدارة، وعائشَ القصرَ سياسةً وخطاً.

فقد كان ابنُ العزيز!

وهذا التأهيل هو أشدُّ ما يبلغه المرءُ، لذا كان التعبيرُ دقيقاً بكلمة «بلغ».

{وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ}.

(وَلَمَّا) بواو الجمع التي تعني الترتيب تشير إلى أنه استغرق سنوات

طويلة حتى بلغ أشده.

والكلمات تحملُ بلاغةَ الوصف.

كَأَنَّ يوسُفَ كَانَ يَعْرُجُ مِنْ ذَاتِهِ إِلَى أَشَدِّ رُشْدِهِ.

في رحلةٍ ستقتفي الأُمَّةُ آثارَهَا!

كان يوسف نموذج النضج الذي يليه التمكين في سennie كونية.

والأشدُّ توحى بتوهجٍ عالٍ، وذُرُوةٍ بُلُوغٍ هائلةٍ، صنعتُها تجربةُ القصر

الملأى بكلِّ أدواتِ صناعةِ الأشد!

وهي مفردة تزخر بمعنى النضج في أعظم مستوياته.

فكان أن:

﴿ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ ٢٢

والتعبيرُ بالمصدر (الحُكم والعِلْم) يشيرُ إلى امتلاكِ كُلِّ الحِكمة وكلِّ العِلْم، والحكم يأتي بمعنى القضاء.

ولا حقُّ لنا أن نتعامى عن المعنى!

إِذْ مَنْ يُطْلِقُنَا نَحْوَ نَاصِيَةِ الْقِيَادَةِ وَالتَّمَكُّينِ، سِوَى الْعِلْمِ وَخَبْرَةِ الْحُكْمِ؟
تلك مفرداتُ التمكن التي يُعلنُها نَصُّ الْقُرْآنِ.

يَزِدُّهُمْ بِهَا الْفَتَى، تُذَكِّي لَهُ جَمْرَاتِهِ، وَبِالْوَعْيِ يَكْتَمِلُ.

فَلَا الطَّيِّشُ، وَلَا الرِّغْبَاتُ الْمَسْفُوحَةُ، بَلْ: ﴿ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ ٢٢.

(وهكذا ينسج النص لوحةً تأملية عميقة في سندية النضج الذي يسبق التمكن، بوصفه قانونًا كونيًّا لا يحيد، يمر عبر التجربة، والصبر، ووعي اللحظة.

اختيار مفردة «الأشد» جاء موفقًا في تأكيد هذه الذروة النضجية، فهي كلمة تحمل دفقًا بلاغيًّا وإيقاعًا تعبيرِيًّا يشير إلى أقصى درجات التوهُّج، وكأنها قمة جبل التجربة التي صعدُها يوسف، محاطًا بكل أدوات التهيئة التي أتاحها له القصر).

والإيتاء..

غالب الإيتاء في المعنويات والإعطاء في المحسوسات، وهنا الإيتان كان بكل ما يبلغ بيوسف إدارة خزائن الأرض من علم وحكمة.

إِذْ {آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا}، أي حِكمة وهو العلم المؤيَّد بالعمل، والعلم علم زائد على النبوءة.

وتنكير {علمًا} للنوعية، أو للتعظيم والتنويع.

فهو كثير واستثنائي وفيه تنوع، وقد كان بما انفتح له من علوم الحكم والإدارة والسياسة والفهم للواقع وحقائق ما تؤول إليه أمور المعاش وذلك كله في فترة التمكين الأولى.

يُوسُفُ في قصر العزيز، حيث الجوابُ الذي هَيَّأَهُ الغيبُ!
وَلَقَدْ كَانَتْ الْحَيَاةُ قَبْلَ ذَلِكَ لُغْزًا كَبِيرًا، وَكَانَ الْجَوَابُ: قَصْرُ الْعَزِيزِ!
يَهْيئُ لَهُ التَّدْبِيرُ الرَّبَّانِي تَدْرِيبًا عَلَى الْحُكْمِ.
وَلُغَةُ الْحُكْمِ، وَتَفَاصِيلُ الْإِدَارَةِ، وَالتَّخْطِيطِ.
وَكَيْفَ يُفَكِّرُ مَنْ يَحْكُمُ الْقُصُورَ!
وِيرَى يُوسُفُ جُغْرَافِيَا الْقُوَّةِ، وَيَدْرِكُ أَدَوَاتِ النُّفُوزِ، وَيَفْهَمُ كَيْفَ تَنْبُتُ
حُقُولُ الْقَمْحِ اسْتِغْنَاءً اقْتِسَادِيًّا.
هَكَذَا إِذَا..

مِنْ حِضْنِ النُّبُوَّةِ إِلَى حِضْنِ الْإِمَارَةِ.
حَتَّى يَكْتَمِلَ لَهُ مَشْهُدُ إِدَارَةِ الْخَزَائِنِ.
﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (٢٢)
وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ..
إِيْمَاءٌ إِلَى أَنَّ إِحْسَانَهُ هُوَ سَبَبُ جَزَائِهِ بِتِلْكَ النُّعْمَةِ.
فَمَا هُوَ إِحْسَانُ يُوسُفَ؟
هَلْ كَانَ إِتْقَانٌ مَا آتَاهُ اللَّهُ مِنْ عِلْمٍ؟
هَلْ كَانَ إِتْقَانٌ فَهْمِ الْحُكْمِ؟
هَلْ أَحْسَنَ الْفَهْمَ، وَالْأَدَاءَ، وَالشُّكْرَ؟
وَهَلْ أَحْسَنَ تَنَاوُلَ كُلِّ مَا وَهَبَ فِي حِضْنِ الْإِمَارَةِ؟
وَهَلْ أَحْسَنَ اسْتِثْمَارَ هَذَا الْعَطَاءِ الْاسْتِثْنَائِيِّ؟
فَكَانَ الْقَصْرُ نِعْمَةً، لَهَا مَا بَعْدَهَا.

ثُمَّ مَاذَا بَعْدَ بُلُوغِ أَشَدِّهِ عَقْلًا وَقُوَّةً وَاكْتِمَالًا؟

ثُمَّ مَاذَا بَعْدَ هَذَا الْاِكْتِمَالِ الْأَوَّلِيِّ؟ «ثُمَّ مَاذَا بَعْدَ بُلُوغِ أَشَدِّهِ؟».

(إنَّ التَّمَكِينَ الْحَقِيقِي لَا يَتَوَقَّفُ عِنْدَ الْاِكْتِمَالِ الْجَسَدِيِّ وَالْعَقْلِيِّ، بَلْ يَبْدَأُ

مِنْهُ!

إِنَّهُ نِدَاءٌ لِلْوَعِيِّ بِأَنَّ النُّضْجَ لَيْسَ نِهَايَةَ الرِّحْلَةِ، بَلْ بَدَايَتُهَا الْوَاعِيَةُ).

وَقَدْ كَانَ!

(فِي لَحْظَةِ بُلُوغِهِ أَشَدِّهِ، يَكْتَمِلُ يُوسُفُ بِمَعْنَى النُّضْجِ وَكَأَنَّهُ يَرْتَدِي عِبَادَةً مِنَ التَّجَرُّبَةِ وَالْمَعْرِفَةِ تَتَأَهَّبُ لِلزَّمَنِ الْمَجْدِبِ. تُصْبِحُ الْقُوَّةُ وَالْعَقْلُ مَعًا أَدَوَاتٍ فِي يَدِ التَّمَكِينِ، وَنَرَى الْعِطَاءَ الرَّبَّانِيَّ بِالْحُكْمِ وَالْعِلْمِ كِتَاجٍ يُوضَعُ عَلَى رَأْسِ النُّضْجِ لَا نِهَايَتَهُ، وَبِهَذَا تَبْلُغُ السَّنَنِيَّةُ الْقِرَآئِيَّةُ ذُرُوتَهَا: لَا تَمَكِينَ بِلَا إِحْسَانٍ، وَلَا عَرْشٍ إِلَّا بَعْدَ تَجَرُّبَةٍ، وَلَا تَوْهُجٍ إِلَّا بَعْدَ عِظَمَةٍ صَافِيَةٍ سَقَاها اللَّهُ مِنْ غِيَابَةِ الْجَبِّ حَتَّى قَصَرَ الْعَزِيزِ).





فتنة القصر

﴿هَيْتَ لَكَ﴾ (١٢) -

خفة الشهوة على مشارف العفة



﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ (١٣)

هنا تنمة الاصطفاء

حيث تعطف الواو مرحلة آتية على مرحلة انتهت.

ويبدأ درس جديد وتهيئة من جانب مختلف!

والتمكين لا يُعطى إلا بعد أن يُختبر المرء في قلب فتنته!

{وَرَاوَدَتْهُ}..

الأبواب المغلقة ودخان الشموع يغرق المكان بروح خفية، الستائر الطويلة مرخاة بإحكام يحجب ما خلفها، الأسرة البيضاء ووسائد كثيرة، وروائح الورد تعبق في المكان.

وغواية الألوان تعبت في انعكاسات المرايا، صوت الأنفاس الصاخبة يقترب، ومن ضجيج جسدها تحاول نفسها الأمانة بالسوء.

{وَرَاوَدَتْهُ}، هذه الكلمة ليست مجرد فعل؛ إنها مشهدٌ بأكمله.

فقد أتلّف قلبها خيال الشهوة.

تراوغة الفتنة، تدور، وتُلحّ، و«يوسف» في قلب العاصفة وموطن الابتلاء
كان في موطن الإنعام!

وفي لحظة احتراقٍ عالية كانت تتَمَّة الاصطفاء!

(والمرادة مشتقة من راد يروُد، إذا جاء وذهب. شبه حال المحاول أحدًا
على فعل شيء مكرّرًا ذلك. بحال من يذهب ويجيء في المعاودة إلى الشيء
المذهوب عنه، فأطلق راود بمعنى حاول.

وراودته أي طالبته برفقٍ ولين قول، والرَّوْدُ: الرَّفْقُ في الأمور، والتَّائِي
فيها، وهي من رَادَ يَرْوُد إذا سعى في طلب حاجة).

يسقطُ السُّتار في كلمة.

فالِفعْل يوحى إذن بسلوكٍ سابق مُتكرّر!

ويوحى بها كلّما صَبَّتْ له المُتعة، تركها تزدادُ عطشًا!

والطريق إليه طريقٌ في الخواء، ورحلةٌ إلى أنقاضها.

وقابَ الشّهوات، أو أدنى تبدو ارتعاشةُ نَبِيٍّ من امرأة، كانت عالقةً به،
ولم تَجِدْ خلاصها قط!

فقد {رَاوَدَتْهُ}، وفأوضته على خَدش إيمانه.

وهي بصيغَتِها المُفردة حكايةٌ طويلة.

تتأرجح، تروحُ وتجيء بين لحظتين خاويتين بألوانٍ من أنوثَتِها، لون بعد
لون.

كم هو عبث الانتظار بجوار يوسف!

وراودته بصيغة المفاعلة، فقد طلبت منه الفعل وطلب منها الترك!

حتى حاورته بكلّ سهامها، واحتاجت أن تبْلُغ {وغلقت الأبواب}!

ويشتد الإيقاع الوصفي في القرآن بقوله تعالى {الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا}.

حيث لا جدوى من المواربة، فالحقائق تُعلن على سطور المصحف!

إذ قال {فِي بَيْتِهَا}، حيث المَـشاعـر لا تنـام!

وخلف ألفة التقارب، تكمن الكثير من الحكايا.

ولاشيء هناك بلا صدى!

وفي ألفة التقارب، تكبُّ العِـقَّة، ورُبما صارت هي اللحظة الأبداء!

(وقد قيل لإِـواجِدَةٍ: ما حَمَلَكَ على ما أنت عليه ممَّا لا خَيْرَ فيه؟

قالت: قُرْبُ الوِـسَادِ وطولُ السَّوَادِ.

وإنَّ عَدَمَ مِيلِهِ إِلَيْهَا مع دَوَامِ مُشَاهِدَتِهِ لِمَحَاسِنِهَا، واستعصاءه عليها مع كونه تحتَ مَلِكَتِهَا، يدل على كونه عليه السَّلام في أعلى مَعَارِجِ العِـقَّةِ والنِّزَاهَةِ).

وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي..

{الَّتِي} هذه كلمةٌ تَدُلُّ على كُلِّ امرأةٍ كائِنَةٍ من كانت، امرأة في منأى عن ذاتها!

وفيهـا زالتِ المَلِكَةُ من الأنثى!

بَغْتَةً، تَنَاثَرَتْ مَلامِحَ وَجْهَها، وَخَطَفَتْ الرِّغْبَةَ وقارها.

سَرَتْ عَلَى أَنْقَاضِها بِوَهْنِها، وخطاها ممتلئة بعبث السَّغْيِ، وتفوح منها روح ذابلة.

ها هي، عالقة فيه وتراوده {عَنْ نَفْسِهِ}.

تُراوده عَنْ جُنُونِها، وَهُوَ الَّذِي اكْتَمَلَ!

تَكَادُ تَحُلُّهُ.

بعدَ أَنْ كُلَّ الكمال له انْعَقَدَ!

وفي تضادٍّ عميق بين الاختلال الذي يسكنها، والاكتمال الذي يبلغه، كانت تتخبط في نقصٍ وجوديٍّ يجعلها تحاول الانخراط فيه لتستكمل ما نقص منها!

لذا جاء التعبير، بـ {عن}.

للمجاوزه، أي راودته مباحدة له عن نفسه، أي بأن يجعل نفسه لها.
يفوح حريق الرغبة في ضحكة مكبوتة.

ظلام داكن، فوضى وعبث، ابتسامة غريبة ويتكدس الليل في الطريق.
كانت تداري انتظارًا طويلًا لتوقظ جسده بطيش وشيك.
يفور التنور وينهمر طوفان الأسئلة، هل هذا هو الكمال البشري!
فقد كانَ هو في أعالي الغيم.

وَيَقْتُلُهَا هِيَ جَفَافُ الرُّوح.

لقد كانَ يوسُفُ يخشى من مَوجِها الزَّيْد!

وبثباته وعفته، استعاد للأنثى معنى الطهارة، وللرجل مقام النبوة!
يَا يوسُفُ..

على حافة القدوم للتأمين أنت، ولا بُد من مِحْنَةٍ طَوِيلَةٍ لِلْعُبُورِ!
محنة كانت تتجلى في امرأة العزيز، حَيْثُ تَهْدِيدُ سُلْطَةِ تَعَصُّفٍ بِهِ.
وامرأة العزيز، حَيْثُ إِغْرَاءُ سُلْطَةِ تَمَلِّكٍ مَفَاتِيحِ الْأَيَّامِ!
ويوسُفُ، شَابٌّ فِي غَيْرِ وَطَنِهِ وَلَا يَعْرِفُهُ أَحَدٌ.
وتَهْيَأُ لَهُ سِتْرَ الْمَكَانِ فَقَدْ غُلِّقَتْ لَهُ الْأَبْوَابُ.
وأمامه غَرِيزَةٌ جَامِحَةٌ فِي قَصْرِ تَثَوُّرٍ فِيهِ فِتْنَةُ النِّسَاءِ.
وعلى عَتَبَاتِ الْفِتْنَةِ..

كَلِمَةُ (لا) فِي وَجْهِ ذَلِكَ كُلِّهِ، تَبْدُو فِي الْخَيَالِ مُسْتَحِيلَةً!

كانت تلك ساحة انهيار جعلها يوسف زمن ارتقاء.
لقد كانت تَمْلِكُ الْمَكَانَ وَالْمَقَامَ، وَكَانَ يُوسُفُ يَمْلِكُ الرُّوحَ وَالْأَمْتِنَاعَ.
ويكتب يوسف بتساميه..

أن «العفة» قرارٌ داخلي، لا تسنده الظروف، بل يصنعها الإيمان.
{وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابُ}..

وغلقت الأبواب وهي المتصدعة في جدران روحها.
لكنها تَمْضِي بحركتها تلك، إلى أَقْصَى الْغَوَايَاتِ {غَلَّقَتْ}، مثل ستائر
كثيفة، تحجُب عنه الْخَوْفُ!

(والتعبير القرآني بـ غَلَّقَتْ بالتشديد، لإفادة شدة الفعل وقوته في هوس
التهيئة ولتكثير تعدد المحال، حيث تسمع في اللفظة ثقلًا وصعوبة في النطق
بسبب الأصوات المفخمة (الغين والقاف)، لتوحي لك بتمكن الفعل في معناه،
لكن ثمة اهتزازًا عميقًا تكشفه القلقة وهمس التاء وكل روحها الهشة!
اللفظة التي تنطق بها الأصوات المفخمة المتخللة. ترسم صورةً مربعةً
لتلك اللحظة، تهزُّ أركان النفس، وتعصف بها.

الصوت في هذه اللحظة يترنح بين القوة والضعف، بين الهياج والصمت،
كما في صوت الغين المفخمة التي ترتفع من أقصى اللسان إلى الحنك الأعلى،
ثم تليها اللام المرققة، ثم القاف المفخمة، وتختتم بتاء مرققة.

تجسد هذه الحروف في اللفظة كأنها تجسد لنا ماهية الغلق، وصوت
الحروف يُجسد إصرار الفتنة في إحكام قبضتها عليه، وفي كل لحظة، يبدو
يوسف مُحَاطًا بالكرب والبلاء، ومع ذلك يظل صامدًا، مُحْتَفِظًا بصوته،
وبمعركته الداخلية، وبإيمانه).

{وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابُ}، في لحظة انتهاء موشك.
وبغته غَابَ الْهَوَاءُ واشتدت الأنفاسُ في جريانها، {وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ}.
تتكفُّ امرأة العزيز في زينتها، كأنها أَلْفُ امرأة.

وَتَتَّسِعُ فِي إِعْلَانِ رَغْبَتِهَا!

فَحِيحُ هَمْسٍ يَأْتِي مِنْ مَكَانٍ مَا كَخَيْطٍ غَامِضٍ يَمْتَدُّ فِي الْآنِ!

تَزِيحُ السُّتَارِ عَنْ لُغَةِ الْمُرَاوِدَةِ، وَتُعْلِنُ صَوْتَ الْإِثْمِ بَعْدَ الْغَوَايَةِ الصَّامِتَةِ.

فِي الْمَكَانِ وَقَعَ خَطِيءٌ وَتَرَدَّدَ أَنْفَاسٌ، وَالْهَوَاءُ مَلِيءٌ بِكُلِّ مَا هُوَ أَوْهَى!

تَهْبِطُ فِي حَيْرَتِهَا وَتَطُوفُ بِحَضُورِهَا حَوْلَهُ مِثْلَ طُوفَانٍ نَفْسِي، وَتُغْلِقُ
عَلَى يَوْسُفَ مَخَارِجَ الرُّوحِ.

تَقْبَلُ بِهَمْسِ الْمَسَاءِ، وَيَتَأَبَّطُهَا الشَّيْطَانُ.

وَكُلُّهَا ظَمَأٌ عَلَى ظَمَأٍ!

فَقَدْ عَبَّاتْ فَتَنَّتْهَا فِي أَنْثَى فَلَا أَسْرَارَ تَخْفِيهَا.

هَيْتَ لَكَ! وَتُفَجِّرُ الْفِتْنَةَ لُغَتَهَا.

مَا أَوْجَعَ الشَّهَوَاتِ!

إِذَا أُطْلِقَتْ مِنْ عَقَالِهَا!

وَفِي نَشْوَةِ اشْتِهَائِهَا تَقْوُدُهَا خُطَوَاتُهَا عَبْرَ عَتَمَةِ اللَّيْلِ.

صَحَبَ وَحْشِي يَغْمُرُهُ تَيَّارُ جَارِفٍ، وَأَلْفُ الْحُرُوبِ تَنْدَلِعُ فِي قَلْعَةِ رُوحِهَا.

وَبِكَثِيرٍ مِنَ التَّخْطِيطِ وَالتَّدْرِجِ صَنَعَتْ شِبَاكَهَا.

وَفِي مُنْتَهَى الْفِتْنَةِ التَّبَسَّتْ عَلَيْهَا نَفْسُهَا.

حَتَّى نَسِيتْ: (أَوْ نَتَخَذُهُ وَلَدًا)، فَقَدْ كَانَتْ فُوضَاهَا تَتَّسِعُ وَكَانَ

يُوسُفُ فِي نُورِهِ كَثِيفًا لَا يَجْمَعُهُ أَفْقُ!

هَيْتَ لَكَ!

يَا لِلْأَحْرَفِ الْوَاهِيَةِ مِثْلَ سَيِّدَتِهَا!

لَكِنَّهَا فِي غَيْبِيَةِ رُوحِهَا، لَمْ تَلْتَفِتْ لِمَقَامِهَا.

و(هَيْتَ لَكَ: اسم فعل معناه أَقْبِلْ وبادر، ومعناه الإقبال العاجل والدعوة الملحة، وهي هنا أعلى ما يمكن أن تصل إليه أنثى في ذروة الافتتان والتوسُّل الجسدي.

كم هي شائكة هذه الكلمة!

ملينةٌ بالفتنة، تتعدَّد فيها القراءات، وبكل جرعاتها الصوتية كأنها تشي بكلِّ مكنوناتِ نفسها.

{هَيْتَ لَكَ}..

المَخارج الرُّخوة، هي طبيعةُ اللغة المُتَرَفِّة.

الهَاءُ ساخنةٌ، تكاد تذهبُ بيوسفَ (في كُلِّ الجهاتِ سدى).

وصوتها الآتي من وسواسٍ طویل، يُغريه بكلمة {لَكَ}!

وما يلفت أكثر أن القرآن اختار هذه الكلمة المفردة المكثفة، لتكون عنوان ذروة الانهيار الأخلاقي والنفسي، واللام في {لك} لزيادة بيان المقصود بالخطاب).

تُناديه في وَلِه، ومَلامحها تَسيلُ عَجْزًا، {هَيْتَ لَكَ}.

تَعْرِفُ الحُرُوفَ لهيبها، وعلى الشُّفاه، شَهوة تَتَبَدَّى وتُراوغ.

وفي الجَسَد، نَبْضُ الخَطِيئَةِ!

كيفَ امتَلكَ يوسفُ أن يَقول: لا!

وهو يعلم أن بعدها، كُلُّ النِّعيمِ عليه حَرَام!

تَقْتَرِبُ منه، مَلِيئَةٌ ثيابها بِخَطِيئَةِ الرُّوح، وشَتاتها لا يكفيه.

مَفْتُونَةٌ عيناها بالجَسَد، وغائِبَةٌ رُوحها عن الرُّوح!

وفي الحروف صدى الصوت.

(ها هي تهمس سرًا فصوت الهاء المهموس وعمق الهاء في مخرجها تصور حرصًا خائفًا واضطرابًا وعجلة، ولولا وجود الحفيف عند نطقها لما سمع عند نطقها غير الزفير العادي).

والياء وهي من الأصوات الصامتة الاحتكاكية صورت حالة امرأة العزيز واضطرابها وحرصها وكأننا نسمع لها صوتًا مستمرًا يدل على اضطرابها مصاحبًا لحركتها وهي تتقرب.

وهذا ما دل عليه سكون الياء الاحتكاكية ينبض بالحركة النفسية رغم ثبات الصوت.

ثم صوت التاء الانفجاري المهموس مليء باضطرابها كأنها تُسارع الزمن، وتدفع الخطوة التالية بأقصى طاقة ممكنة، وفي الحروف صدى روحها).

﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَنَ رَبِّهِ﴾ (١١)

نجا من فوضى المجهول، ومن عتمة الرغبة.

وتشبَّثَ بِبِقِينِهِ حتى آخر رَجْفَةٍ شَوْقٍ.

وإن كانت القصورُ قد هيأتها للفتنة، فقد هيأتها للأقدارُ للزهدِ فيها.

لقد كانت ترتدي ثيابًا تُلَوْنُهَا، وكان هو في بياضِ التقوى، نقيًا، صافيًا!

وعلى حين كانت تظنُّ أَنَّهَا تملكُ كلَّ شيء..

كانت في منتهى المعنى: تفقد كلَّ شيء.

تتنفَّسه أمنيَّةً تشتهيها، والجريُّ إليه جعل الطريقَ بعيدة!

فقد استعصم!

كلمة تختصر الملحمة الروحية كُلَّها!

وفي منتصف المسافة لم تهزِّمه بلهفتها، وهزَّمها بسرهِ، وكان سرهِ: الله!

يتكاثر الصمت وتلفها الخيبة، وتعلق في فمها الكلمات، فقد قال معاذَ الله.

يا للإيمانِ، كيف يُعَدُّقُ على أهله، كيف يعلم أهله كلمة الثبات.

﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ ﴿٢٢﴾

لَئِنْ نَسِيتُ، أَكْرِمِي مَثْوَاهُ.

فقد ذكَّرها بأنَّه: أَكْرَمَ مَثْوَايَ!

وبين جمر الثباتِ وأمانة المَثْوَى، كيف تتصدع هي، وكيف يتماسك!

لقد كانت واهنةً في كُلِّ قُوَّتها، وكلُّ حروفها تتوسَّلُ استجابته.

وكان هو في اقتدارٍ تساميه.

ولم يكن الموقف يحتمل أجوبة ناقصة!

ف ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ ﴿٢٣﴾

وبين «الممكن» كما تظن، كان يُوسُفُ في خانة «المستحيل» ممَّا

لا تظن!

كانت في وَهْمِها، وكان هو فوق أوهامِها، وفي لحظة يتشابه

عليها الضد بالضد.

فقد كانت هي في استكانتِها، وكان هو في سكينتِه.

وعلى بُعْدِ أنفاسٍ منه، كان فحيحُها: هَيْتَ لك!

وفي ظلمة روحها، تتبدَّى عاريةً من جِاهِ القصر.

تتملَّكها خطيئةٌ جارفة، تغمرها حتى قمة يأسها في بئر معطلة

خاوية!

ويوسف على جمرِ الثبات، فيا لكثرة روحه وقلة هذا الجسد!

لقد احترقت حتى رَمَادِ انطفائها وفي رغبَتِها، كانت تُطِيلُ عمرَ

رَمَادِها.

لكن يوسف يستنطق غيبَ قلبه ويعلن خاتمة الشوط، ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾

﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ ﴿٢٤﴾

هذا الصَّيَّام الطَّوِيل لِيُوسُف، لَا يَحُقُّ لَامْرَأَةٍ الْعَزِيزِ أَنْ تَنْقُضَهُ
بِسُطُورَةِ النُّفُوزِ!

وَلَقَدْ كَانَ يُوسُفُ يَدْفَعُ مِنْ دَمِهِ، كَيْ يُنْقِذَ تِجَارَتَهُ مَعَ اللَّهِ!
رَبِّمَا، نَحْنُ فِي الْفِتَنِ نَكْتَشِفُ مَا هُوَ الْأَثْمُنُ لَدَيْنَا.
وَمَعَ الْاِخْتِبَارِ، تَتَغَيَّرُ مَعَانِي الْغِنَى.

وَرَبِّمَا يُصْبِحُ الثَّرَاءُ:
أَنْ تَمْلِكَ الْعَافِيَةَ، مِنْ السُّوءِ كُلِّهِ، وَالْعَافِيَةَ فَقَطْ.
وَيَصْبِحُ الرَّهَانُ عَلَى خُطْوَةٍ تَمْضِي بِالنُّورِ زَمَنًا أَبْعَدَ.
وَلَقَدْ كَانَ يُوسُفُ فِكْرَةَ.
وَقَتًا قُدُسِيًّا.

مَعْنَى فَوْقَ الْبَشَرِيَّةِ!
كَانَ يُوسُفُ مُخَبَّئًا فِي قَلْبِهِ.
وَعَشِيقَةُ الْجَسَدِ، تَحْتَرِّقُ بِجَمْرِهَا!
كَانَتْ هِيَ وَاهِنَةً.

وَفِي وَهْنِ الْإِنْسَانِ، يَنْفَجِرُ السُّوءُ!
فِيَا بؤْسَ السَّهْمِ، وَيَا بؤْسَ الْمَالِ!
لَقَدْ كَانَ اخْتِبَارُ يُوسُفَ مَضَاعِفًا، كَثِيرًا وَعَنِيفًا، وَكَانَ كُلُّ شَيْءٍ فِي الْاِخْتِبَارِ
يَتَجَهُّ نَحْوَ الرُّؤْيَا.

وَفِي مَخَاضِ الرُّؤْيَا وَمَعْرَكَةِ اللَّاحِيَارِ كَانَتْ هِيَ نَغْمَةٌ أَثْمَةٌ تَتَرَبَّصُ
مِنْهُ غَفْلَةً قَلْبٍ، زَلَّةَ جَسَدٍ.

تَحَاوَلُ أَنْ تُقِيمَ فِيهِ وَهُوَ الْغَرِيبُ بِلَا وَطَنِ!
تَقْرَعُ أَجْرَاسَ الْخَوْفِ، فَهِيَ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ!
وَبَيْنَ شَمُوعِ الْقَصْرِ، تَتَوَهَّجُ بِلَا انْطِفَاءٍ، وَتَمْنَحُهُ أَمَانَ الْإِثْمِ.

ولا قضاء إلا وهي القضاء فيه:

إما السجن، وإما هي!

لقد كان يوسف يقف في قلب هذه المعركة اللامرئية.

ولا خيار سوى، أرض السجن.

أرض السجن..

فجأة يشعُّ معنى: اطْرَحُوهُ أرضاً، ذاك القرار القديم.

تتلاحق المسافات، وفجأة يتكرر الزمن.

يا الله!

كيف تتلاقى خطوط الرحلة في كل مرة حتى كأن المعاني واحدة!

ترتديها المواقف على تباينها!

وراودته التي هو في بيتها عن نفسه.

وغلقت الأبواب.

وقالت هيت لك.

ثلاث قدمتهن امرأة العزيز بين يدي يوسف عليه السلام، فماذا كان

الجواب؟

فقال: «معاذ الله

إنه ربي أحسن مثوأي

إنه لا يفلح الظالمون».

وكان ذاك مدد الثبات في ليل الفتنة.

الله، ربِّي، فقط كلمتان، ويصبح المكان مَسْجِدًا!

يُغلق يوسف شقوق اللَّيْلِ، ويتجمع فوق رُكامها!

الله، ربِّي.

وَيُولَدُ مِنْ زَمَنِ الْإِثْمِ، نُورًا.

وَيَتَطَهَّرُ يَوْسُفُ مِنْ حَمَى الْفِتْنَةِ، بِالْكَلِمَاتِ!

هُنَا، الْأَمَانُ فِي ضَجِيجِ انْهِيَارِ الْأَحْلَامِ.

ظَلَّتْ عَيْنُهُ عَلَى أَفُقِ تَضْيِئَتِهِ نَجْمَةً، وَهَمْسٍ مَا، أَنَّ ثَمَّةَ حَيَاةٍ مِنْ طَرِيقِ تَسِيرِ
إِلَيْهِ.

وَكَانَ هُوَ فِي الْعَقَّةِ النَّصِّ الْكَثِيرِ، الَّذِي لَمْ يَكْتُبْهُ سِوَى مِدَادِ كَلِمَاتِ رَبِّي!

{إِنَّهُ رَبِّي}.

يَحْتَمِلُ السِّيَاقُ شَلَالِ الْمَعْنِيِّينَ، فَرَبِّي بِمَعْنَى الْعَزِيزِ.

وَرَبِّي، بِمَعْنَى اللَّهِ، وَفِي التَّعْبِيرِ، وَفَاءٌ لِلْمُنْعَمِ عَجِيب!

«اللَّهُ، رَبِّي».

هُنَا، يَصْنَعُ لَكَ الْقُرْآنُ مَنَهِجَ الثَّبَاتِ.

إِنْ أَحَاطَكَ لَيْلُ ضَرِيرٍ، فَتَبَتَّلْ بِالِاسْتِعَاذَةِ!

وَفِي التَّفْوِيزِ تَسْكُنُكَ السَّكِينَةُ، (إِنَّ الَّذِينَ يَتَذَكَّرُونَ بِاللُّدْعَاءِ، لَا يُخَذَّلُونَ)!

ثُمَّ احْتُ عَلَى خَيْلِ الشَّيْطَانِ، حَيَّ عَلَى الثَّبَاتِ!

وَقُلْ ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿٣٣﴾.

لَا يَفْلَحُ، إِذْ كُلُّ مَنْ خَانَ الْوَحْيَ، أَفْلٌ وَغَاب!

(إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ:

إِنْ سَيِّدِي أَكْرَمَنِي وَأَحْسَنَ إِقَامَتِي عِنْدَهُ وَأَنْعَمَ عَلَيَّ. وَتَمَثَّلُ هَذِهِ الْجُمْلَةُ
(الْمَقْدِمَاتِ).

إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ:

إِنَّ الْإِسَاءَةَ إِلَى مَنْ أَحْسَنَ إِلَيَّ ظَلَمَ، عَاقِبَتُهُ الْخِيبَةُ وَالْخَسْرَانُ. وَتَمَثَّلُ هَذِهِ
الْجُمْلَةُ (النَتَائِجِ).

والقولان جاءا مؤكدين بـ (إِنَّ). إذًا، إن المقدمات التي جاءت مؤكدة لا شك ستفضي إلى نتائج مؤكدة أيضًا).

والفلاح هو الظفر والبقاء في الخير، وقد كان وبقي يوسف سورة في اللوح المحفوظ!

(القرآن يُقدِّم يوسف كقدوة وجودية، يتطهَّر بـ «الكلمات»، لا بالفعل، ويستخرج من زمن الإثم «نورًا»، ليغدو «النص الكثير الذي لم يكتبه سوى مداد كلمات ربِّي»، في تعبير بالغ الروعة عن التكوين الروحي للنبي، لا بوصفه معصومًا فقط، بل بوصفه نصًّا حيًّا مكتوبًا بلغة العفة.

وفي تأمل ثنائية المعنى في قوله {إنه ربِّي}، يبرز النص عظمة التعبير القرآني في احتواء معنى العزيز ورب العالمين معًا، وكأن يوسف يربط وفاء البشري بإيمانه السماوي، في وفاء لا يتجزأ.

الخاتمة تضع «منهج الثبات» في مواجهة الليل الضريع، والشهوة العاتية، والخيبة المحتملة، بالدعاء، بالاستعاذة، وبالبيان القاطع {إنه لا يُفلح الظالمون}. وهي عبارة لا تأتي كتحذير بل كقاعدة أخلاقية وجودية: ومن خان الوحي، أفل وغاب.

والقرآن يحوِّل التجربة من لحظة صراع جسدي إلى مشهد قدسي تتبدى فيه كلمة الله كجدار للحماية، وكلمة يوسف كمنبر للبلاغة الروحية، حيث العفة ليست امتناعًا فحسب، بل إعلان هوية وقرب.

ويوسف في قلب الابتلاء الأخلاقي، لا من حيث عنف الشهوة فقط، بل من حيث اختلاط السلطة بالفتنة، والفتنة بالنعمة، والنعمة بالمحنة. مشهدٌ يصوغ الانحدار الأخلاقي في قصر العزيز مقابل الصعود الإيماني النادر ليوسف عليه السلام، لتكون العفة هنا ليست ردعًا جسديًا، بل تأسيسًا لهوية النبوة.

قال يوسف «لا» حيث كان الجميع يتوقع «نعم»، وبـ «معاذ الله»
أغلق ما عجزت الأبواب عن إغلاقه.

وهكذا، لا يكون التمكين جزاء الجمال، بل حصاد الطهارة.





﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾

**يوسف قصة شاب تَجَدَّر في الثَّبات،
يَدنو من الله كُلَّما دَنَّت منه الفِتنة!**



﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾ (١١)

مَنْ يَحْمِي جَوَارِحَ يوسف مِنْ خَمرةِ الفِتنة!

{وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ}، مثل مَوْجَة مَدُّ عَاتِيَة.

وكما يقع السادر في خفة شهوته، كانت هي حافية من معناها وبخائنة
الأعين وما تخفي الصدور.

تهيم إليه، وفي جمر الهوى تتوارى معاني السيادة خلف رغبة تعوي.

فقد أضحت مُجَرَّد أنثى، تموِّج في فوضى أاثامها!

أما هو، ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ (١١)، كان المَكَان يَهْدُرُ
بمَوْجِ الشَّهْوَة.

وامرأة العزيز ترمي شواظًا في غريزة يوسف، (وتجسُّ قرارَ الهاوية).

ويوسف ظمآن وعلى حافة البئر! مَنْ يمنع شابًا، أَنْ يتوغَّل في ليلِ
الخطيئة؟!

مَنْ يَحْمِي جَوَارحه مِنْ خَمرةِ الفِتنة؟!
مَنْ يُوقِف عطشَ الجسد، وَلَه الشهوات تُسَكَّب؟ مَنْ؟!
تلك هي الحَقِيقَة!

كيف ينتهي الإنسانُ بين خيارين، وفي أقلِّ من لحظتين؟

(لولا أنه قد شاهد برهانَ ربه لهمَّ بها كما همت به ولكن حيث انتفى عدم
المشاهدة بدليل استعصامه وما يتفرع عليه انتفى الهمُّ رأسًا، وتقديم الجواب
وتأخير الشرط، كأنه قال ولقد همَّت به ولولا أن رأى برهانَ ربه لَهَمَّ بها،
فتقديم الجواب وتأخير الشرط، لتوضيح أن همَّ يوسف لم يقع أصلًا).

والآية تثبت ليوسف كمال الرجولة، وقوة الغريزة، وتمام الفحولة، وتمكنه
في تسام عجيب!

فقد كان بشرًا وما كان ملكًا، لكنه كان فوق بشرية الجسد وطين الغريزة!
ولولا أن يوسف رأى بُرْهانَ وجود رَبِّه في حياته، في لحظةٍ تَكَثَّفَتْ له،
حتى ثَبَت!

يراهُ في زِنَاد اللّطى، تَشْتَدُّ حَوْل يَدَيْهِ عَبْدًا.
يراهُ في بئر الغرق ولا أمل في غيابة اليأس.
يراهُ في غَبَشِ الأسفار المُرّة، يراهُ في القصر، يُهَيِّئُ له العُروج، وَيَجْعَلُ
لَه العَزِيزَ أَبًا وَرَبًّا!

فيردد {إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ}.

كَانَ يوسُفُ والفتنة تطوف به يَرَحُلُ إلى رَبِّه، كَأَنَّهُ يقول، فَخُذْنِي إِلَيْكَ!
وَمَنْ دَنَا مِنْ رَبِّه.

بَلَّغْهُ الوَصْلَ حَتَّى إِلَيْهِ تَدَلَّى!

{أَحْسَنَ مَثْوَايَ}.

يَشُدُّ يَوْسُفَ قَلْبُهُ عَلَى الذَّاكِرَةِ، وَتَمُوتُ هِيَ عَلَى شُطَّانِهِ عَطْشًا!

﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ (٢١).

يَتَجَلَّى الْحُبُّ فِي حَرْفِ اللَّامِ.

تُلَامِسُ يَوْسُفَ، مِثْلَ عَصَا تَشْقُ لَهَ الْقِفَارِ كَيْ يَعْْبُرَ، وَتُخْبِرُهُ كَمْ هُوَ
عِنْدَ اللَّهِ كَرِيمٌ!

كَأَنَّهَا لَامُ الْإِصْطِفَاءِ وَلَامُ الْمَعِيَةِ!

(وَالصَّرْفُ نَقْلُ الشَّيْءِ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ، وَهُوَ هُنَا مَجَازٌ عَنِ الْحِفْظِ مِنْ
حُلُولِ الشَّيْءِ بِالْمَحَلِّ الَّذِي مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَحِلَّ فِيهِ. عَبَّرَ بِهِ عَنِ الْعِصْمَةِ مِنْ شَيْءٍ
يُوشِكُ أَنْ يَلْبَسَ شَيْئًا. فَالْحِفْظُ هُنَا سَابِقٌ، وَلَيْسَ لَاحِقًا).

وَاللَّامُ هُنَا لِلتَّأَكِيدِ وَالْمُبَالَغَةِ.

وَالصَّرْفُ عَامٌّ وَخَاصٌّ، عَامٌّ فِي السُّوءِ كُلِّهِ، وَخَاصٌّ فِي الْفَحْشَاءِ!

﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ (٢٢).

صَدَقَ، فَلَمْ تُبْعَثْهُ الْخَطِيئَةُ!

الَّذِينَ أَخْلَصَهُمُ اللَّهُ وَاصْطَفَاهُمْ. وَقَرَأَهُ ابْنُ كَثِيرٍ، وَأَبُو عَمْرٍو، وَابْنُ عَامِرٍ،
وَيَعْقُوبُ -بِكْسَرِ اللَّامِ- عَلَى مَعْنَى الْمُخْلَصِينَ دِينَهُمْ لِلَّهِ. وَمَعْنَى التَّعْلِيلِ عَلَى
الْقِرَاءَتَيْنِ وَاحِدٌ.

إِذَا كَانَ مُخْلَصًا أَخْلَصَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَهُوَ أَيْضًا أَخْلَصَ دِينَهُ لِلَّهِ، وَاسْتَجَابَ
وَأَطَاعَ.

وَهُوَ أَيْضًا مُخْلَصٌ أَخْلَصَ وَاسْتَجَابَ.

قِصَّةُ يَوْسُفَ..

هِيَ عَطَشُ الشَّهْوَةِ، إِذْ يَسْتَعْرِضُ مَحْمُومًا {هَيْئَتُ لَكَ}.

قصة يوسف هي تَجَذُّرُ شاب في الثُّبَات، يَدْنُو مِنَ اللَّهِ كُلَّمَا دَنَتْ
منه الْفِتْنَةُ!

قصة شاب قالها بملء الطهارة، ما لمستُ.

وما تنفستُ ما تَرَكْتُهُ أَنْفَاسُكَ عَلَى يَدَيَّ، فارفعني يا مولاي إليك!
وفي رحلة الاختبار كانت غيابة الجب، ثم تمكين في القصر، ثم فتنة
الشهوة، وما زال الطريق لتأويل الرؤيا يتصاعد، وهنا ذروة الصراع بين «جسدٍ
يُرَادُّ له أن يخضع»، و«رُوحٍ اصطفاه الله لتعلو»، ولقد تحوَّلت «اللحظة التي
تقترب فيها الفاحشة» إلى «لحظة اصطفاء»، ليس فيها معجزة خارقة، بل
«رؤية» داخلية لمعاني الثبات وأسبابه تُريه ما لا تراه امرأة العزيز، ولذلك
كانت هي في ظلمة التوهُّم، وكان هو في نور الوصل بالله.





**وبين سباق المكائد، ومعارج الصعود كانت السَّماء
تحصي له، أنه كان يستبق النجاة في قلب الفتنة.**



﴿وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ ﴿١٥﴾

مشهدٌ يوحى لك بأنَّ (المسافة كانت تَرَكُضُ) بينه وبينها!

يُنْقَلِها الطَّيْنُ، وتَكاد تُمسكه، فَيَتَّسِعُ!
تَكادُ تَفْقُدُ بعضها، وهي تَجْرِي نَحْوَ بَعْضِها، تَعْصِفُ بِهِ، فلا تَبْلُغُه، وتَظَلُّ
(وراءَ الوراء).

فذاك مقامها!

وَسَيِّما اللَّيْلُ في وَهَجِ عَيْنِها، تَعْبُرُ سِياجِها وَيَغْشاها الدَّجى!
رِذاذُ العَرَقِ يَزِيدُ المَسافاتِ، فَتَغْرُقُ في لَهاثِها، وَجَرَسُ خَلخالِها يَزِيدُ
شَحوبيها.

تَسْقُطُ قَطراتُ العَرَقِ من يوسُفَ، فَتَنْضِجُ رُوحَه بِالمِسكِ.
يَتراءى البابُ له بَوابَةَ الانعِناقِ مِنَ الإِثْمِ، ولِها كانَ ما تَبَقَّى مِنَ الأَمَلِ.

تلك لحظةٌ تشهد ليوسف، أنه رُتِّل الثَّبَاتُ تَرْتِيلًا!

مَشْهُدٌ يَشْتَبِكُ فِيهِ طُوفَانُ الإِثْمِ مع يوسف وهو يَجْرِي {بِأَعْيُنِنَا}.

والاستباق افتعال من السَّبَقِ. وتقدم آنفًا، وهو هنا إشارة إلى تكلفهما

السبق، أي أن كل واحد منهما يحاول أن يكون هو السابق إلى الباب.

وبين المقامين: مقام الهوى، ومقام الاصطفاء.

وبين أول الظَّنِّ بالسُّقُوطِ، وآخر اليَقِينِ، كانت السَّمَاءُ تُحْصِي ليوسف: أنَّ

خَطْوَهُ مَرَّ بِالْفِتْنَةِ.

وعرضت عليه لَذَّةٌ تَتْلُوها لَذَّةٌ، فَتَعَفُّفا!

وما توقَّف في الفِتْنَةِ، ولا تَرَاحَى خَطْوُهُ!

يتكثَّف الزمان في لحظة، ثمة انفلات من جاذبية الطين فوق طاقة الحياة.

لم تعد المسافات في أماكنها، فثمة روح تسابق نحو مقام عبودية خالصة!

وبين سباق المكائِدِ، ومعارج الصُّعُودِ كانت السَّمَاءُ تحْصِي له..

أَنَّهُ كَانَ يَسْتَبِقُ النِّجَاةَ فِي قَلْبِ الْفِتْنَةِ.

تَتَكَرَّرُ مُفْرَدَةٌ (السَّبَاقِ) فِي الْقِصَّةِ.

ففي الصُّغَرِ، كانت لتدبيرِ شكل المَكِيدَةِ.

وفي الثانية، كانت لإتمامِ طَوِّقِ المَكِيدَةِ.

يا الله هي الابتلاءاتُ ذاتها، إيقاع متوالٍ، يزداد عمقها كلما ارتقى المقام.

وتشتدُّ كُلُّما اقترب يوسف من المَقَامَاتِ!

ثم كان «القَدْ فِي الهَزِيعِ الْآخِرِ مِنْ لَيْلِ الْفِتْنَةِ».

﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ﴾ ﴿٥٠﴾، الْمُفْرَدَةُ رَهِيبةٌ، إذ تَسْمَعُ فِيهَا صَوْتَ

عَوَاءِ الشَّهْوَةِ.

تَشُدُّهُ، حَتَّى تَقْدَّ قَمِيصَهُ، اجْتَذِبَتْهُ مِنْ وَرَائِهِ فَانْشَقَّ طَوْلًا وَهُوَ الْقَدْ!

أَنْتَى لَيْدِ الْأَنْثَى، أَنْ تَطِيقَ ذَلِكَ!

أنى ليد منغمسة في نعيم الترف، لكنه عواء الرغبة، أو ربما انتقام الهشيم!
 (فجأة اكتسبت قوة لا يملكها إلا نزاع الشهوة العاصف حين يعوي الجسد
 وتنهار الروح. وفي ضياعها تتنازل عن كبريائها أمام عاصفة الشوق التي
 جعلت يدها الجارحة تمتد في الخلف إلى قميصه، فتتفلق مادته تحت وطأة
 هذا الاصطدام العنيف بين جسدين: جسد يموج بالشهوة، وجسد يتماسك
 بالثبات).

[وَقَدَّتْ]، وفي يدها ما تبقى من وحل روحها!

وبمرارة تسفك على ظهره كل عويلها.
 تملأ يديها بجمر الآه، وفي تلاطم موجها يتعارك يوسف مع الوحشية
 المتألّمة من جراحها.
 تتأرجح بين كبريائها، وبين شوقها.
 بين وقارها، وبين انهيارها.
 بين عقلها، وبين ما امتلأت به من الشوق من طول الاقتراب!
 كانت روحها روحاً مُجْهَدَةً، تُسابق استبسال يوسف.
 تَمْوِجُ، وتَنْثُرُهَا الشَّهْوَةُ عَلَى أَعْتَابِ خَطَوَاتِهِ، (وتَهْزِمُهَا الْهَزِيمَةُ)!
 يَنْفَجِرُ عِشْقُهَا، شَرَسًا.

وفي هياجها، تقتحم من يوسف ما لا يدرك!

**لكن قدر ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا أَلْبَابٍ﴾ ﴿٥٠﴾، لم يكن في حسابان
 خطئها!**

بدت في انفتاحة الباب مثل قَمِيصٍ يَتَطَايَرُ فِي حَقْلِ صَبَّارٍ شوكي، قَدْ
 أَعَمَّتْهَا اللَّهْفَةُ وَالْخَدِيعَةُ!
 يشمُ سَيِّدُهَا الرَّائِحَةَ الْكَثِيفَةَ.
 رائحةٌ، تبعثُ على الانقباض في الرُّوح.

تتناوبُ المَشاعِرُ في لحظةٍ عميقة.

وَيَبْدُو وَجْهَ زَوْجِهَا، مِثْلَ طَقْسٍ غَائِمٍ، لَا يُعْرَفُ إِنْ كَانَ سَيُمْطَرُ عَذَابًا!

وعيناه تتسعان في الفراغ المليء بيوسف.

لكن، لماذا لَمْ يَقُلِ الْقُرْآنُ: زَوْجِهَا؟

كَأَنَّ ثَمَّةَ مَا يُنْفَى مِنْ حَقِيقَةِ الْعَلَاقَةِ.

وَكَأَنَّ الْمَوْقِفَ يَحْتَاجُ إِلَى سَيَادَةِ الرَّجُولَةِ!

(اللحظة تجرد العلاقة الزوجية من بعدها العاطفي الحميم، وتستدعي

فقط مقام السلطة والسيادة والهيبة الاجتماعية، في مقابل مشهد الفضيحة

الداهمة. كَأَنَّ الْقُرْآنَ يَعلَنُ بِفَنِيَةِ الْبَالِغَةِ أَنَّ زَمَنَ الْعَلَاقَةِ قَدْ انْكَسَرَ، وَأَنَّ لَحْظَةَ

المواجهة تحتاج إلى صاحب السلطان لا شريك الحياة).

ولدى الباب، كَانَ بَعْضُهَا هَامِدًا مِّنَ الصَّدْمَةِ، وَبَعْضُهَا صَرِيحَ الرَّغْبَةِ،

وبَعْضُهَا مُبْعَثَرًا.

وبَعْضُهَا مُسْتَتًّا فِي مَوَاجِهَةِ زَوْجِهَا.

وعلى مَرَمَى «هَيْتَ لَكَ» انْتَهَى كُلُّ شَيْءٍ!

تَقْتَحِمُهَا صُفْرَةُ الْمَكْرِ، وَيَبْهَتُ وَجْهُهَا فِي شَحُوبٍ مُفَاجِيٍّ، وَرَغَمَ زِينَتِهَا

المليئة بحرارة الشهوة، تنسل إلى برودة المكر، وتبادر بإعداد السؤال: مَنِ

اعتدى؟

﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ ﴿٥٥﴾

ابْتَدَرَتْ زَوْجَهَا بِالْكَلامِ إِمْعَانًا فِي الْبُهْتَانِ، وَلَمْ تَتَلَعَّبْ، تَخِيلَ لَهُ أَنَّهَا عَلَى

الْحَقِّ.

وَيَمِلُّ لَهَا الْقَلْبُ تَمَتُّصُ أَنْفَاسِهَا.

وَتَنْغَمِسُ فِي عِزَّةِ الْإِثْمِ، فَتُبَلِّلُ حَلَقَهَا الْجَافَّ، وَتَتَقَمَّصُ صُورَةَ الْفَضِيلَةِ.

حَيْثُ أَفْرَغَتْ الْكَلَامَ فِي قَالِبِ كُلِّيٍّ لِيَأْخُذَ صِيغَةَ الْقَانُونِ.

وليكُونَ قاعدةً لا يُعرَفُ المقصودُ منها، فلا يَسَعُ المخاطَبُ إلا الإقرارُ لها.

إحكام قانوني، لا يذكر فيه اسم يوسف، وكأنها تتقن استباق رد الفعل وصناعة حالة التوجيه النفسي الماكر للزوج، لتجره إلى الإدانة قبل أن يبدأ التحقيق!

يا ليوسف من كيد العصابة إلى كيد النسوة!
ها هي تُبادرُ بالسؤالِ الذي لا يحتملُ إلا جوابَ العذاب.
وتُعَبِّرُ عن نفسها بـ «أهلك» وليس «زوجتك».
فلماذا تتحاشى هذا التعبير؟!
فأية دلالة يحملها هذا الأمر؟!

(هنا تبدو تقاطعات اللغة مع العمق النفسي، حيث تتخذ امرأة العزيز قرارها اللغوي المتعمد باستخدام تعبير «أهلك» بدل «زوجتك»، وهو اختيار يحمل أبعاداً نفسية عميقة.

فهي تشي بنفسِ تخشى الاعتراف بالعلاقة الحقيقية، أو تحاول تخفيف وقع الإدانة أمام زوجها، كأنها تتنصل من زواجها أو صلتها به مما يضيف على الموقف مسحة من الإنكار والتشويش.
وكلام امرأة العزيز هنا لم يأت مؤكداً، على الرغم من أن الموقف يتطلب ذلك.

والنص القرآني يرصد هذا التلاعب اللفظي، ليكشف ضعف موقفها (الداخلي).

لَقَدْ كَانَتْ تَقْفُ امْرَأَةَ الْعَزِيزِ فِي الْعَرَاءِ خَالِيَةً مِنَ الصَّدَقِ.

﴿إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

تستخدم التخويف ليوسف.

وَتَشْتَهِي، لو ترى شيئاً في مَلامح يوسف مَلَاناً لكرامتها، تُعلن أَنَّها الحَقِيقَة، وَتَجْعَلُ مِنْ سَطَوْتِهَا مَتْنِ الحِكَايَة!

إِذْنُ هُوَ السَّجْنُ بَعْدَ القَصْرِ، أَوْ عَذَابُ أَلِيمٍ بَعْدَ عِزِّ البُنُوَّةِ!

لكن يوسف يخلع سواد البهتان، محاطاً بالأذى ولا يتداعى فيقول:

﴿هِيَ رَاوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ ﴿٦٦﴾

يبدو يوسف سيِّدَ المَوْقِفِ، بقوة صدقه.

يخلع سَوادَ كلماتها عَنْ نفسه، والرُّوحُ فوق الطُّهْرِ تَرَفُّ.

وَيَسْخُصُ صَوْتُهُ، رَغْمَ ضَرَاوَةِ الأدْلَةِ، يَقْصِفُ صَوْتَهُ بِهَا.

وبوضوح لا غَمْغَمَة فيه:

{هي رَوَّادَتْني}، هي بتقديم الضمير على الفعل، كأنها شهادة

الإدانة باسمها!

والدليل، لهاثُ اللَّذَّةِ فِي صَوْتِهَا!

(هكذا دون تأكيد، حيث لم يأت جوابه بنفي الأمر الذي اتهمته به، ولم يكن

في موقف المدافع عن نفسه

إِذْ لَمْ يَقُلْ مَثَلًا: (لَمْ أَرِدْ بِأَهْلِكَ سُوءًا) وَإِنَّمَا رَدُّ الاتِّهَامِ بِمِثْلِهِ وَأَجَابَ بِلَهْجَةٍ

وَاثِقَةٍ (هِيَ رَاوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي)).

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ ﴿٦٧﴾

تَتَسَرَّبُ القِصَّةُ إِلَى أَهْلِهَا، وَيَحْكُمُ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا.

فَيَنْطِقُ بِمَا يَسْدُلُ القَضِيحَةَ عَلَيْهَا!

﴿إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبْلِ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَذَّابِينَ﴾ ﴿٦٨﴾.

وَالنُّونُ، نُونُ التَّشْكِيكِ.

كَأَنَّ امْرَأَةَ العَزِيزِ، لَمْ تَرْتَدِّ فِتْنَتَهَا!

﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ .

وتلك هي الحقيقة، التي جعلها القرآن آخر التعبير وختم بها القول!

﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ ﴿٢٨﴾﴾ ، خاتمة متوقعة.

فانحدارُ البدايات، يدلُّ على انحدارِ النهايات!

وفي القصة وردت (دبر وقُبَل).

حيث كررت كلمة (دبر) في ثلاثة مواضع في حين كررت كلمة (قُبَل) مرة واحدة، وهنا ملحظ دلالي، حيث نجد غلبة التعداد التكراري لكلمة (دبر) مقارنة بكلمة (قُبَل).

وهذا يتماسك نصياً مع غلبة حجة يوسف عليه السلام على حجة امرأة العزيز!

وفي القصة..

يتكررُ حضور القميص ثانية.

هناك، كي يشهدَ للمتأمرين.

وهنا، كي يشهدَ للمتآمرة.

وفي كلتا الحالتين، يخلّصهم القميص!

وسيظل يوسف يَضَعُ قَمِيصَهُ على كُلِّ الوجَع، عليه هو!

(كيف أصبح القميص رمزاً محورياً للعدالة الإلهية والبراءة التي لا يُمكن إنكارها مهما تكالبت الأدلة الزائفة.

وقد عبّر القرآن عن يوسف بالضمير المستتر، في حين عبر عن امرأة العزيز بالضمير البارز للغائب (هي) وفي هذا دلالة نصية وذلك لتدل على عدم حضور شخص يوسف عليه السلام في الموقف الشنيع، مما أحدث تماسكاً نصياً مع كون يوسف عليه السلام غائباً عن هذه الجريمة، فهو لم

يتعدَّ على امرأة العزيز، فحين عبر عن امرأة العزيز بالضمير البارز ليحدث دلالة نصية هي بروز حضور شخصية امرأة العزيز في هذا الموقف الأثم).

﴿قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ﴾ (١٨).

تنتهي اللغة، وهي تحاولُ سبر أغوار هذه الكلمة!

كيفَ يحتملُ الرَّجُلُ جَمْرَ الشُّهُودِ؟

وكيفَ تتبخَّرُ الرَّجُولةُ؟

أكانَ هذا توقُّيعًا معناه:

والسَّلامُ؟!

﴿إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ (١٩).

ثُمَّ ماذا؟

رُبما هذه لغةٌ ثناء، في موقفِ المكيدة!

وفي التعبير ثمة غبش يكدر المعنى، وامرأة العزيز تدركه في سريرتها.

تبتسم في عمقها فقد بدا زوجها مثل اشتعال منطفئ في لهيب الموقد!

وفي موسم المد كان جزرًا مهزومًا!

تخبئ نبضها والرهق المذل من العياء، وتطل من شرفة كيدها بكل استعلاء!

(تتكرر كلمة (كيد) بمشتقاتها ثمانى مرات، وقد ذكرت في أول السورة

على لسان يعقوب ليوسف، ثم ظهرت مرة أخرى في كيد امرأة العزيز

والنسوة ليوسف، وفي السورة تبدو صفة الكيد من الصفات المحورية التي

تدور السورة حولها، وكلما تكررت اشتد الكيد، ليكتمل يوسف!).

يلتفت زوجها وبين النداء الهامس وقبضة الكتمان.

﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ (٢٠).

حذف حرف النداء، يقتربُ منه إلى الهمس.

يَجْتَذِبُهُ الصَّوْتُ نَحْوَ مَدَى غَامِضٍ، وَيَتَهَجَّى صَوْتًا، فَارْعَا مِنْ الرَّجُولَةِ.

أيها العزيز، لقد كُنْتُ أَنَا هُنَا، كَانَ غَلَامُكَ هُنَا، قَرِيبًا مِنْ سَيَاجِكَ.

مِنْ حَفِيفِ أَثَوَابِهَا، مِنْ شَهِيْقِ نَدَائِهَا وَمِنْ شُعُورِ جَوْعِهَا، وَأَنْتِ أَيْنَ أَنْتِ!

بدا العزيز ظلًا حائرًا لرجولة تتهدم.

يوسفُ، أَيُّهَا النَّبْلُ الَّذِي لَا تَعْرِفُهُ الْقُصُورُ الْمُمْتَلِئَةُ بِفَسَادِهَا.

يوسفُ، أَيَّتِهَا الرَّجُولَةُ السَّخِيَّةُ الَّتِي تَحْمِي الْأَمَانَاتِ.

يوسفُ، ثُمَّ مَاذَا؟

فَقَطُّ أَعْرَضَ عَنْ كَشْفِ السِّتْرِ عَنْ لَيْلِنَا!

وَالْأَمْرُ كُلُّهُ يَخْتَزِلُهُ فِي اسْمِ الْإِشَارَةِ: «هَذَا».

كَانَ الْقَصْرُ شَخَايَا، وَكَانَ الْعَزِيزُ يَلْمُهُ فِي حَرْفٍ وَاحِدٍ: «هَذَا»!

كُلُّ مَا جَرَى، وَصِفَ بِ: «هَذَا»!

ويوسف في ذهوله، يكاد يقول: (مرني بشيء مستحيل، قل لي شروطك

كلها).

لكن مثل حفنة رمل كانت (هذا)، واكتفى بها العزيز ميثاقًا للرحيل.

هل هذه سياسة القصر في الكتمان أمام القضايا الكبرى؟!

هذا (تكتيك متقن، يُخفي الحقائق خلف حاجز من الصمت، يطوي القضية

ويعزلها داخل القصر، ليصبح كل شيء مجرد «هذا» غير محدد، غير ملموس،

كأن لا شيء يستحق المناقشة العلنية).

وهنا درس يوسف.

إِذْ تَرَاتَّبَةُ الْقِيَمِ فِي بَيْتَةِ الْقُصُورِ مُخْتَلِفَةٌ!

تَرَاتَّبَةُ تَعْلَمُهُ أَنَّ أَوْلَوِيَّاتِ السُّلُوكِ الْأَخْلَاقِيَّ

تَرْتَبُطُ تَمَامًا بِمَا يُنَاسِبُ مُصَالِحَ وَاقِعِ الْقَصْرِ.

السُّلْمُ الْقِيَمِيَّ، تَرَاتَّبَةُ الْأَخْلَاقِ، قِيَمَةُ الْمَبَادِي..

كُلُّ ذَلِكَ يَتَحَرَّكُ فِي فَلَكٍ مُخْتَلِفٍ تَمَامًا، تَتَشَكَّلُ وَفْقَ مَصَالِحِ الْوَاقِعِ.
تَتَرَنِّحُ الْقِيمُ وَتَتَبَدَّلُ أَوْلِيَايَاتُهَا، وَكُلُّ الَّذِي يَرَاهُ يُوسُفُ فَسَادًا، لَا يَزِيدُ عَلَى
اسْمِ الْإِشَارَةِ: «هَذَا»!
وَعَلَيْكَ أَنْ تَصْمُتَ أَمَامَ كُلِّ هَذَا الْفَسَادِ، إِنَّ شِئْتَ الْمُضِيِّ فِي مَوَكِبٍ وَمَرَكِبٍ
هَذَا الْحُكْمِ.

وَكَانَ هَذَا هُوَ الدَّرْسُ التَّالِي:
الصَّمْتُ عَنِ الْفَسَادِ، أَوْ التَّغْيِيبِ.
وَقَدْ كَانَ!

وَلَقَدْ كَانَ يُوسُفُ السَّكِينَةُ الْمَقَاوِمَةَ، وَالصَّمْتَ النَّبِيلَ أَمَامَ نِظَامٍ مُخْتَلٍّ.
(هَكَذَا يُحَوِّلُ يُوسُفُ الصَّمْتَ إِلَى فِعْلِ مَقَاوِمَةٍ، وَالصَّبْرَ إِلَى حِكْمَةٍ،
وَالسَّكِينَةَ إِلَى مَوْقِفٍ مَتَمَسِّكِ فِي وَجْهِ صَخْبِ الْفَسَادِ).

﴿وَأَسْتَغْفِرُ لِدَنِّكَ﴾ (٩١)

يُصْبِحُ مَا جَرَى ذَنْبًا مَنَعَزَلًا، وَيَعْلُقُ صَوْتُهُ فِي الْمَسَافَةِ الْمُوحِشَةِ بَيْنَهُمَا.
فِي فِضَاءٍ مِنَ الْفَرَاغِ وَالتَّبَاعُدِ، وَتَنْتَهِي الْقَضِيَّةُ:
بِأَنَّهَا ذَنْبٌ عَابِرٌ!
قُلْ لِي بِرَبِّكَ:

مَنْ يَمْنَعُ الْخَطِيئَةَ الْآنَ أَلَا تَكْمَلُ طَرِيقَهَا؟
هَذِهِ الْبُيُوتُ الْفَارِهَةُ تَحْتَضِرُ فِي دَاخِلِهَا، وَتَأْتِي الْأَحْدَاثُ، لَتَكْشِفَ مَوْتَ
بَعْضِهَا قَبْلَ بَعْضِهَا!
بُيُوتٌ..

طَافِرَةٌ بِالْمَتَاعِ، وَشُحُوبُ الْأَرْوَاحِ.
بَاهِتَةٌ، إِلَّا مِنْ أَلْوَانٍ بَارِدَةٍ تَزِيدُ الْأَمَاكِنَ صَمْتًا.
تِلْكَ هِيَ الْبُيُوتُ الْغَارِقَةُ فِي الْإِثْمِ الْمَسْتُورِ!

المفاسد المتشعبة في النفوس، تشبه سلاسل في قدم سجين يتعثرون بها، وثمان الخطوة آه!

آه من ذبول لا ينتهي!

وبين التهميش والتبرير، يبدو ذوبان الخطيئة في غياهب الخطائين.

﴿إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾.

تشمُّ الفساد، وقد تغلغل في اللُّغة، فجاءت الكلمات خالية من عافيتها! وغبش التعبير، يكشف عن نفسية التبرير.

فهي من مجموعِ الخاطئين، ولا يزيدُ الأمر على ذلك!

تخفَّت خطيئتها، شيئاً فشيئاً.

وتتغمرُ في المجموع العام.

وتُسقطُ الكلمات فوقها ظلام النسيان.

فهي جزءٌ من كَمِّ هائل من الخاطئين!

وتنتهي القضية!

(هنا تكمن خطورة التعبير: فهو يخفف من وطأة الاتهام، ويدوب فعلها في بحر هائل من الخطايا العامة، كأنها مجرد نقطة في كم لا يُحصى من الخطايا، وكأنها قطعة ضئيلة في فسيفساء الفساد الكبير.

اللغة هنا تُغرق الخطأة في ظلام النسيان، وكأنها تسعى إلى إلغاء أثرها، وترسيخ شعورِ ضمني بأن الأمر ليس خطيراً أو مميّزاً. ومن ثم تنتهي القضية بهذا التعميم، تاركة المرأة في عتمة تبرير قاتم، بلا تمييز أو تحمُّل مسؤولية حقيقية، فتصبح الخطيئة جزءاً من نمط بشري عام لا يحاسب عليه).

ماذا يفعل القرآن؟ إنه يرصدُ لك التجربة في كلمات:

أَنَّ سَلَالَ النُّورِ فِي رُوحِ يَوْسُفَ، أَقْوَى مِنْ طُوفَانِ الشَّهْوَةِ فِي عُروْقِ امْرَأَةٍ

العزیز!

وَأَنَّ الصَّرَاعَ بَيْنَ الْمَبَادِئِ وَالْمَسَاوِمَةِ قَدَرُ الْمُصْلِحِينَ.

وَأَنَّ التَّوَهُجَ الْإِثْمُ فِي عَيْنِ يَوْسُفَ، لَمْ يَمْنَعِهِ مِنْ أَنْ يَرَى بُرْهَانَ رَبِّهِ!

إِذْ حِينَ يَمْلِكُ الْقَلْبُ زِمَامَ رَغَبَاتِهِ، يَصْعَدُ إِلَى كَمَالِ الْكَيْنُونَةِ الْإِنْسَانِيَةِ!

يَا يَوْسُفَ..

مَلَائِيْنُ الشَّبَابِ سَتَحُجُّ إِلَى عِفَّتِكَ لِيَرْتَشِفُوا مَعْنَى:

أَنَّ السُّقُوطَ، لَيْسَتْ حَقِيقَةً يَجِبُ أَنْ نَنْحَنِي لَهَا.

وَأَنَّنَا نَحْنُ قَدَرُ الْإِنْبِعَاثِ مِنْ قُوَّةِ الطِّينِ، إِلَى شَفَافِيَةِ الْمَلَائِكَةِ!

(ليس الصراع هنا بين يوسف وامرأة العزيز صراع رغبات فحسب، بل هو

صراع مشروعين كاملين في الوجود: مشروع الإنسان الذي يُستعبد لشهواته فينحني تحت سطوة الجسد.

ومشروع الإنسان الذي يملك زمام قلبه، فيرتفع عن حمأة الطين إلى

مقامات الصفاء الروحي واستقلال علوي مجيد. والقرآن قدم يوسف، قُدُوةَ

الانبعاث من طين الشهوة إلى طهر الملائكة!

وفي مشهد {واستبقا الباب}، يُختبر الجسد في أَشَدِّ لحظات احتدامه، ليكشف

عن «قلبٍ يُبصر» وسط عتمة الجسد، وعن «روح علوية» تسبق الشهوة إلى الباب.

هذا ليس سباقًا بين رجل وامرأة، بل بين مبدأ يتسامى وغريزة تتهاوى،

لتكشف السورة عن فلسفة الاختبار في أوج فتنتها: أَنَّ البطولة لا في غياب

الرغبة، بل في العروج فوقها).



مكتبة

t.me/soramnqraa



﴿حَسَّ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ (٣١)

فَقَدْ كَانَ إِنْسَانًا يَمْتَحِنُ الْبَشَرِيَّةَ كُلَّهَا، عَبْرَ عُرُوجِهِ!



صدى الفضيحة

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ﴾ (٣٢)

وكان هذا يكفي كي تُطبَّقَ الفضيحة على عنقها، مثل حبلٍ مَبْلُولٍ قَاسٍ..
وبألسنتهنَّ هنَّ، يكتُبْنَ نَعِيَهَا.

كان الحديث يكتسبُ حولها بُعدَ الشَّماتَةِ، وتُهنَأُ بها النسوة موتًا لذيذًا!
(وَإِذْ ذَكَرْنَاهَا بِـ (امْرَأَةِ الْعَزِيزِ)، وَهِيَ زَوْجَةُ رَجُلٍ يُوصَفُ بِأَنَّهُ الْغَالِبُ الَّذِي لَا يُغْلَبُ، وَفِي اللُّغَةِ يُقَالُ: «الْأَرْضُ الْعَزَازُ» أَي: الْأَرْضُ الصَّخْرِيَّةُ الَّتِي يَصْعَبُ الْمَشْيُ عَلَيْهَا، وَلَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَطْنِهَا.

لكن من تملك القوة تعجز عن مقاومة نزوة الرغبة، فتراود فتاها لا رجلاً
من عليّة القوم، بل عبدًا فتياً في بيتها. هنا يكمن تناقض المفارقة التي تضج
بها اللغة) حيث..

{تُرَاوِدُ فَتَاهَا}!

نعم فتاهها ولقد كَانَ ذَلِكَ حَدَثًا استثنائيًا في عالم القصور.

جعل الفَضِيحة تجري على ألسنة النسوة، بلا نَعْل.

تَجري حافية، لا تلوي على سِتْر!

وللتُّهمة تلك صَدَى.

وما أوجع الصَّدَى!

{تُرَاوِدُ فَتَاهَا}!

يَنْطَقْنَهَا بِضَالَةٍ متناهية، فتعبرُ الكلمات إليها.

وفي المجالس، يتناولونها النسوة بقسوة تُشبه النهش.

وإضافة الفتى لها لقصد الإشباع في لومها.

لَرْبَمَا لِهَذَا ﴿أَعْتَدْتُ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَءَاتَتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ (٣١).

ومعهن تصبح الفَضِيحة طقسًا اجتماعيًا وتعلو لغة النهش.

حيث كانت القصة تنمو في الوسط الحاكم، مثل نَبْته وَحْشِيَّة.

ترتفعُ الثَّرثرة، زَبَدٌ على زَبَد.

وتديرها النسوة، على نسقٍ خَاص.

أَوَّلُهُ، النَّيْلُ مِنَ اللَّقَبِ «امْرَأَةُ الْعَزِيزِ»، بِاللَّقَبِ الَّذِي يجعلها تموتُ أَلْفَ مَرَّة.

ثُمَّ {تُرَاوِدُ فَتَاهَا}، تلك شَتِيمةٌ بِلُغَةٍ لَا تَخْفَى، واستعلاء طَبْقِي لَا أَخْلَاقِي!

وإِثَارُهُنَّ لِصِيفَةِ الْمَضَارِعِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى دَوَامِ الْمَرَاوِدَةِ، أَيْ أَنَّ الْمَرَاوِدَةَ

صَارَتْ سَجِيَّةً لَهَا، وَدَيْدَنًا.

وبذلك تغدو امرأة العزيز القلبِ المفضوح بين ألسنة النسوة.

فَ {قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا}.

وهو وصفٌ لرعونتها، وليسَ أَقْلُ مِنْ ذَلِكَ!

والشغاف هو الغشاء الرقيق الذي يستر القلب وشغفها أي خرق حبه شغاف قلبها، والمعنى اخترق حبه الشغاف فبلغ القلب، كناية عن التمكن. فعبر عن ذلك ببليغ المعنى بقوله تعالى {قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا}. حيث تبدو الكلمات هنا ملأى بألف معنى، وفي البواطن، ضجيج اتهام عميق.

يشير إلى اختلال أحوالها القلبية كأحوالها القالبية. الفعل «شَغَفَ» والظرف «حُبًّا» يضيفي تصعيدًا تعبيريًا، يصور قوة الحب المهلكة بشكل موجع!

هكذا إذن تبدو هي في المجتمعات الحاكمة. سيدة مهزومة وملوثة بذكري تطفح بها السنة النسوة. نسوة يسترقن السَّمع، وألسنتهن مشغوفة بمحنتها! والكلمات في تعابيرها، موغلة في نزع السُّتر. ويبدو معها قلب امرأة العزيز، مَفْضُوحًا! وعلى حين كانت خُطة النِّسيان {يوسفُ أعرض عن هذا}، إلا أن {نُسوة} بتعبير القلّة، قلبن الخُطة، ومضغنهن قربانًا!

﴿إِنَّا لَنَرْنَهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿٣٠﴾

{إِنَّا لَنَرَاهَا}.

هكذا إذن تبدو القصة، عارية جراحها! وعلى حين غرة، تُبصر نفسها بوضوح في مرايا الآخرين، حيث يُعبر حرف (في) عن انغماس شنيع! {إِنَّا لَنَرَاهَا}، مستقرة {فِي ضَلَالٍ} عن طريق الرشد والصواب، أو عن سنن العقل {مُبِين} واضح لا يخفى كونه ضلالًا على أحد.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ (٣١).

الانتقام حالة شعورية عميقة لدى النساء، وطبيعة نفسية لا تتنازل عنها المرأة والقرآن يكشفها.

والمكر هنا، كان ثروة محبوبكة لها غاياتها.

ولا يتقن ذلك أحد، مثل النساء!

تتداخل السلطة بالرغبة، والمكر بالانتقام، والمجاملات بالمؤامرات. وفي القصور..

تملك النساء السلطة، والإغواء والقرار، عبر الثروة!

تهيي لهن مآدبة المكر وفخ الإغواء في ثوب الحفل!

فكان أن ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ (٣٢).

فقد كان الغضب جموحاً معادياً، وجاء ردّها من ثم قاسياً وجارفاً عبر مشهد غير متوقع!

ترى، هل هذا ما يسمى إغراء التقوى، حالة من التحايل المقنعة لغاية خفية!

﴿وَأَعْتَدْتُ لَهُنَّ مُتَّكِنًا﴾ (٣٣).

والحالة هنا تتشابه.

إذ الاتكاء يوحى بما غمزنها به.

وهكذا..

تبدو المراسم مكتملة، والابتسامات مرسومة بمكر، والزواجر العطرية تجتاح المكان!

نمة قرار لديها بإشعال الجمرة في مواقدهن.

لذا، أتقنت الحبكة ﴿وَعَآثَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سَكِينًا﴾ (٣٤).

(السكين رمز مزدوج لما نهشنها به من الألسن وذبح تسيل فيه كرامتهن: والمتكأ هو الشيء الذي يستند إليه الإنسان حتى لا يطول به مَلَلٌ من كيفية جلُسته، والمقصود بالقول هو أن الجلسة سيطول وقتها).

لقد كانت امرأة العزيز تُعيد رسم المشهد، بكيد هائل.
تنسلُ إليهنَّ بالدهشة.

وعلى حين كان الجَو يبدو مبهمًا ولا أحد يعلم ما خلف الستارة..

كانت كُل لحظةٍ بالنسبة إليها، نصرًا لخطيئتها!

وفي مكر الإدارة النفسية للجماهير المتحفزة وقفت.

﴿وَقَالَتْ أَخْرِجْ عَلَيْنَهُنَّ﴾ (٣١).

يا ليوسف وهو يقف بين عذاب الصمت، ورتابة الانتظار للمجهول!
{اخْرِجْ عليهن}.

كي تقات النسوة على جمرة، يحترقن بها!

وبقدمين حافيتين وعلى نار الفتنة تشتعل اللحظة، ويوسف يمشي إلى
رغبة الغسق!

وَالنِّسْوَةُ يَشْهَقْنَ فَرَاغَهُنَّ فِي مَذْبَحِ الْمَعْنَى.

وفي مَناهةِ الدَّهْشَةِ يَنْعَطِلُ الْوَعْيُ، ويبدو المكانُ مَذْبَحًا وَسْكِينًا.
زُوبَعَةً من فوضى الذُّهول.

ويُوسُفُ يرى وَهْنَ الْقُلُوبِ فِي الْوَجْهِ، يَفُورُ زَبْدُ النِّسْوَةِ دَمًا، وتسيلُ
الجراحُ!

درك من هاوية تسحبه، والأنفاسُ أرخت آهاتها.

حفيف ثيابٍ ويكاد يمسه طائفٌ من هوى النسوة.

المكانُ ساخنٌ، وثَمَّةٌ صُورٌ تَتَقَارَبُ: نارُ إِبْرَاهِيمَ وَسْكِينُ الْفِدَاءِ لِإِسْمَاعِيلَ...

وفي تقاطعٍ عجيبٍ يَفْتَرِبُ يُوسُفُ من مقامِ إِبْرَاهِيمَ، فقد كان هو قُرْبَانَ الْعِفَّةِ!

يَضِجُ الْخَيَالُ بِكُلِّ الاحتمالاتِ الْخَفِيَّةِ.

يا يُوسُفُ، ثَمَّةَ أَسَى هائلٍ يَنْتَظِرُهُ فِي هَذِهِ الْمَسْرُجِيَّةِ الْهَزْلِيَّةِ.

يَقِفُ وَحْدَهُ أَمَامَ مُعَانَاتِهِ بِقَلْبٍ مَخْدُوشٍ، حَيْثُ تَفَاوُضُ النُّسُوءُ عَلَيْهِ، وَيُصْبِحُ جَسَدُهُ مَوْضُوعَ اخْتِبَارِهِنَّ الْبَصَرِيِّ.

هُنَا اخْرُجْ بِقُوَّةِ السُّلْطَةِ الظَّالِمَةِ.

اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ، وَأَنْتِ فَتَايَ النُّكْرَةِ الَّذِي أَفْعَلُ بِكَ مَا أَشَاءُ.

﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ (٣١)

فَجَاءَ تَطْيِيرُ نَفُوسِهِنَّ، شِظَايَا، وَيَحْصِدُ يُوسُفُ أَلَمًا جَدِيدًا.

{أَكْبَرْنَهُ}.

فَثَمَّةُ انفصال مهول، بينه وبينهن.

رُبِمَا كَانَتْ تِلْكَ عَظْمَةُ التَّسَامِيِ الَّتِي لَا يَعْرِفْنَهَا!

{أَكْبَرْنَهُ}.

وَأَدْرَكَ أَنَّ أَكْبَرَ مِنَ الْإِنْتِهَاكِ!

{وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ}، لِحُظَّةِ فَصَلَتْ بَيْنَ وَعِي الْجَسَدِ وَوَعِي الْعَقْلِ.

وَيَا لِلْمُفَارَقَةِ!

يُقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ فِي هَذِيانَ، خَارِجَ الْمَنْطِقِ، تَمَامًا كَمَا قَطَّعْنَهَا بِالسِّنْتَهْنِ!

وَفِي ذُرُوءِ الْإِنْبِهَارِ وَجَلالِ الصَّمُودِ قَلْنِ:

﴿حَسَّ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ (٣٢)

فَقَدْ كَانَ إِنْسَانًا يَمْتَحِنُ الْبَشَرِيَّةَ كُلَّهَا، عَبْرَ عُرُوجِهِ!

{مَا هَذَا بَشَرًا}.

نَفْيٌ يَتَّبِعُهُ إِثْبَاتٌ مُؤَكَّدٌ بِالْقَصْرِ!

يَكَادُ الْخَيَالُ يَذْوِي أَمَامَ يُوسُفَ، وَلَا يَبْلُغُ كُنْهَ هَذَا الْبَهَاءِ.

كَانَ مُشْعًا، مِثْلَ مِشْكَاةٍ مِنَ النُّورِ، فَلَقَدْ كَانَ فِتْنَتَهَا، وَكَانَ اخْتِبَارَهَا.
ثُمَّ هَا هُوَ فِتْنَةُ النُّسوةِ كُلِّهِنَّ!

وَكَانَ هُوَ أَعْزَلَ أَمَامَ حَرِيهِنَّ، كَمَنْ يُحَاوِلُ زَرْعَ نَخْلَةٍ فِي إِعْصَارِ عَاصِفَةٍ.
يَضْجُ الْمَجْلِسُ بِكَامِلٍ وَهْجَهُنَّ، وَيَتَبَعَثْنَ أَمَامَ هَذَا الْهَدْوِ الشَّاسِعِ!
تَتَجَوَّلُ أَعْيُنُهُنَّ فِيهِ، وَلَا يَعْبُرْنَهُ، فَقَدْ كَانَ زَمَنًا مَمْتَلِنًا بَعْدَ الْإِنْهِيَارِ!
{حَاشَ لِلَّهِ إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ}.

يَقِفُ يُوسُفُ فِي الْمَشْهَدِ، وَالْأَصْوَاتُ الصَّاخِبَةُ تَدُكُ فِي قَلْبِهِ، وَلَا أُوتَادَ
حَوْلَهُ!

ثُمَّ فَرَاغَ يَشْدُهُ إِلَى الْهَآوِيَةِ.
وَالرَّوَائِحُ الْعَابِثَةُ تَكَادُ تَسْحُبُ عَنْهُ مِلاَةَ الثُّبَاتِ!
سَبَقَتْ هَذِهِ اللَّحْظَةُ خَالِدَةً فِي الذِّكْرِ، لَا يَقْوَى عَلَيْهَا النَّسْيَانُ.
وَيَشْهَدُ اللَّهُ -فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ- أَنَّ يُوسُفَ كَانَ مَعَهُنَّ.
وَكَانَ هُوَ وَحْدَهُ!

كَانَ يُوسُفُ يَرَى الْفِتْنَةَ فِي ذُرْوَةِ ثَوْرَتِهَا لِأَوَّلِ مَرَّةٍ.
لَكِنَّ النِّجَاةَ مِنْهَا سَتَجْعَلُهَا الْأَخِيرَةَ، وَلَا بَعْدَ لَهَا!
وَفِي غَمْرَةِ الدَّهْشَةِ، كُنَّ يَتَسَابَقْنَ إِلَيْهِ كَسَّاحِيَةٍ يُزْجِيهَا هَوَى عَابِثٍ!
وَهُوَ فِي مَعْنَى «ذَلِكَ»، فَقَدْ كَانَ الْمَسَافَةَ الَّتِي لَا تَقْطَعُ!
وَفِي بَلَاغَةِ الْإِشَارَةِ، تَعْلَنُ الْآيَةُ مَعْنَى ذَلِكَ، ذَلِكَ الَّذِي لَمْ يَبْلُغْهُ قَطُّ:
{ذَلِكَ}.

بِاسْمِ الْإِشَارَةِ لِلْبَعِيدِ، كَمَا كَانَ هُوَ، عَلَى الْحَقِيقَةِ!

﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ﴾ ﴿٢٢﴾، وَبِالْفَاءِ الْفَصِيحَةِ فِي
شَرْحِهَا تُحَاوِلُ أَنْ تَنْزِعَ نَفْسَهَا مِنَ الْفَضِيحَةِ؛ عَبْرَ مُبَرِّرٍ تُحَاوِلُ بِهِ
طَلَاءَ خَارِجِهَا، فَيَزِيدُهَا الطَّلَاءَ تَشَوُّهَا فِي الْدَاخِلِ!

لقد جَفَّ جَسَدُهَا مِنَ الْإِنْتِظَارِ، لَكِنَّ الْحَقِيقَةَ: أَنَّهَا كَانَتْ ضَثِيلَةً فِي قَلْبِهِ.

وَكَانَ بوسعِهِ أَنْ يَهْزِمَهَا!

كَانَ يُوسُفُ مِنْ خِيَالِ الْجَنَّةِ.

سِرٌّ هَادِيٌّ، نَاعِمٌ، تَرَاهُ، وَلَا تَبْلُغُ لَمْسَهُ.

تَخْطُنُهُ عَلَى مَرْمَى قَلْبِهَا، فَإِذَا بَلَغَتْهُ، رَأَتْ سَرَابَ أَوْهَامِهَا.

فَقَدْ كَانَ هُنَاكَ.

{ذَلِكَ}.

فَقَدْ كَانَتْ -كَلِمَا اقْتَرَبَتْ مِنْهُ- امْتَدَّتِ الْمَسَافَةُ!

وَالْتَعْبِيرُ عَنْهُ بِالمَوْصُولِيَّةِ (الَّذِي)، لِعَدَمِ عِلْمِ النِّسْوَةِ بِشَيْءٍ مِنْ مُعْرِفَاتِهِ.

غَيْرَ تِلْكَ الصَّلَةِ.

وَالآنَ تَكْشِفُ كُلَّ مَا يَتَّصِلُ بِهِ (الَّذِي)!

﴿وَلَقَدْ رَاودَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاَسْتَعْصَمَ﴾ (٢٢)

يَا خَجَلِ الْمَعَانِي!

كَانَتْ تِلْكَ كَلِمَاتُ امْرَأَةٍ طَاعِنَةٍ فِي قَرَارِهَا، تُعْلِنُ أَنَّهُ، (لَا) لِلْمَسَاءَاتِ الْعِجَافِ

مِمَّا تَشْتَهِي!

فَاسْتَعْصَمَ، (امْتَنَعَ طَالِبًا لِلْعَصْمَةِ وَهُوَ بِنَاءٌ مِبَالِغَةٌ يَدُلُّ عَلَى الْإِمْتِنَاعِ

الْبَلِيغِ وَالتَّحْفُظِ الشَّدِيدِ كَأَنَّهُ فِي عَصْمَةٍ وَهُوَ يَجْتَهِدُ فِي الْإِسْتِزَادَةِ مِنْهَا وَهَذَا

يَعْنِي أَنَّهُ قَدْ تَكَلَّفَ الْمَشَقَّةَ فِي حِجْزِ نَفْسِهِ عَنِ الْفِعْلِ، كَمَا فِي اسْتِمْسَاكِ

وَاسْتِجْمَاعِ الرَّأْيِ وَفِيهِ بَرَهَانٌ نَثِيرٌ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَصْدُرْ عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ شَيْءٌ

مُخِلٌّ بِاسْتِعْصَامِهِ وَهُوَ قَوْلُ يَثْبُتُ أَنَّ رَجُولَةَ يُوسُفَ غَيْرَ نَاقِصَةٍ، فَقَدْ جَاهَدَ

نَفْسَهُ لِيَكْبِتَهَا عَنِ الْفِعْلِ).

{وَلَقَدْ رَاودَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاَسْتَعْصَمَ}، يَسْمَعُ يُوسُفُ هَذِهِ الصَّرَاحَةَ

فِي الْحَدِيثِ.

وتفيض المشقة من كل شيء!

ويدرك، أن المسافة الهائلة بدأت تضيق، ولا ضفاف آمنة!

فجأة، يبدو التأويل في قلب العاصفة!

﴿وَلَقَدْ رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ (٣٢)

تعلنها، فقد كان الكمال لكل نقصها!

وكان هو فوق كل خيالها.

ولقد أرادته رغبة، وشاءه الله آية!

تحاصره من شمال قلبها إلى جنوبه، ومن شرق الجهات إلى غربها، ومن
أعلى الاحتمالات حتى أدناها!

ويا الله، كيف تسجن الشهوة القلب!

ويحتاجه سبات الاحتضار.

﴿وَلَيْنَ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ (٣٢)

أمره به فيما سيأتي، كما لم يفعل فيما مضى.

فقد كان المطلوب: أن يرضخ لهذا التوحش!

ولئن لم يفعل..

يرتفع صراخها، ويحاول أن يتسلق يوسف.

لكنها تتعثر!

كان يُميط الأذى عن قلبه، وكانت لا تفهم كيف خرج عن النمط والمألوف.

وتمادى في الكمال!

يتجاوزها، وتصبح هزائمه لا حصر لها!

وفي الآية يتغول الوعيد: وتتكلم نون التوكيد في التعبير بـ (لَيُسْجَنَنَّ):

نون التوكيد الثقيلة تؤكد حصول السجن، وقالتها بمسمع منه إرهاباً له.

و(لَيْكُونَا) -بنونِ التوكيدِ الخفيفة- وفيها دلالةٌ خَفِيَّةٌ:

أَنْ حِرْصَهَا عَلَى سَجْنِهِ، كَانَ أَكْبَرَ مِنْ حِرْصِهَا عَلَى إِذْلَالِهِ!

ثُمَّ إِنَّ الإِذْلَالَ أَمْرٌ مَعْنَوِيٌّ، لَا يَمْلِكُهُ إِلَّا اللَّهُ، وَفِي بَاطِنٍ وَعِيدِهَا، نَسِيَتْ ذَلِكَ!

الَلَامُ الدَّاخِلَةُ عَلَى «إِنْ»: مَوْطِئَةٌ لِلْقَسَمِ، وَالْوَعِيدُ غَارِقٌ فِي فَنُونِ التَّأَكِيدِ،

بِمَحْضَرٍ مِنَ النِّسْوَةِ.

لِيَعْلَمَ يُوسُفُ أَنَّهَا لَيْسَتْ فِي أَمْرِهَا عَلَى خُفْيَةٍ.

وَبَيْنَ فِعْلِ الْأَمْرِ وَأَدَوَاتِ التَّوَكِيدِ وَتَتَابِعِ الْأَفْعَالِ الْمُضَارَعَةِ وَالْقَسَمِ الْمُضَمَّرِ

بِلَاغِيًّا عَبْرَ دُخُولِ اللَّامِ عَلَى إِنْ وَالتَّصْعِيدِ أَمَامَ النِّسْوَةِ كَمَحْضَرٍ تَشْهِيرِيٍّ.

تُوَغِّلُ فِي التَّهْدِيدِ.

رَبِّمَا يَسْتَجِيبُ.

لَكِنْ (رَبِّمَا)، تَبْدُو احْتِمَالًا خَافِتًا!

لِيَكُونَنَّ.

إِذَنْ، مَا زَالَتْ الْحَرْبُ لَمْ تَضَعْ أَوْزَارَهَا.

وَرَبِّمَا كَانُوا هُمْ أَوْزَارَهَا!

تَلْفُ يُوسُفُ بِمُقَرَّدَاتٍ:

الْأَمْرَ، السَّجْنَ، الصَّغَارَ، أَدَوَاتِ التَّوَكِيدِ، وَفِعْلَ الْمُضَارَعِ الَّذِي لَا يَحْتَمَلُ

التَّأْخِيرَ!

وَكُلُّ ذَلِكَ لِتَوَقُّفِ تَمَرُّدِهِ.

فَالسَّادَةُ لَا يَرَوْنَ مِنْ حَوْلِهِمْ إِلَّا عَبِيدًا!

وَبَيْنَ الْعِجْزِ وَكِبَرِيَاءِ التَّسَامِي..

كَانَ هُوَ.

مِثْلَ حَقْلٍ سَنَابِلَ تُهَدِّدُهُ الْمَنَاجِلُ!

تَتَوَعَّدُهُ.

فَقَدْ كَانَ عَقْلُهَا مُمْتَلَأًا بِاللَّيْلِ فَقَطْ!

يا الله!

مَا أَعْجَزَهَا، وَهِيَ تُرْمَمُ عَجَزَهَا بِالْعَجْزِ!

مَا أَعْجَزَهَا!

وَهِيَ تُشْعِلُ حَرِيقَهَا مِنْ رَمَادِهَا!

ثُمَّ صِرَاعٌ عِبْثِي يَلْتَهُمْ بَقَايَاهَا، فَلَقَدْ كَانَتْ أَمَامَهُ:

كَابِرَةٌ تَزْمَجُرُ كِي تَحْفَرُ جَبَلًا!

يَا لَهْشَاشَتِهَا وَهِيَ عَلَى عَرْشِهَا، وَلَقَدْ كَانَتْ قَادِرَةً أَنْ تَمْلَأَ حَيَاتَهُ وَعُودًا،

لَكِنَّهَا كَانَتْ فِي غِنَاهَا

الْأَكْثَرَ بُؤْسًا وَنَقْصًا.

كَانَ يُوسُفُ قَدْ وَجَدَ اللَّهَ بَعْدَ الْفَقْدِ.

وَكَانَتْ هِيَ تَفْقِدُ كُلَّ شَيْءٍ، حَتَّى اللَّهَ!

وَفِي هَنْدَسَةِ الْقَدْرِ، وَمَعْمَارِيَةِ السُّورَةِ

كَانَتْ الطَّرِيقُ الْمُحْكَمَةُ لِلنَّهَايَةِ، هِيَ الْمَتَاهَةُ فِي ظَاهِرِ الْمَشْهَدِ.

يَتَشَبَّهُ يَوْسُفُ بِمَا تَعْلَمُ، وَيَتْرَكُ لِلْغَيْبِ أَسْرَارَهُ.

وَفِي الْخُرُوجِ لِلْقَدْرِ، نَحْتَاجُ إِلَى:

مِلءُ الْيَقِينِ بِالْحِكْمَةِ

مِلءُ الْوَعْيِ بِاللَّهِ

مِلءُ الْحُبِّ لِلَاخْتِيَارِ

وَمِلءُ التَّسْلِيمِ

حَتَّى لَا نَغَارِ فِي مُنْتَصَفِ الطَّرِيقِ، تِلْكَ هِيَ رِبَاعِيَةُ السَّكِينَةِ!

أما السؤال، المعنى، الحيرة، الصمتُ الصاخبُ بكلِّ الارتباك، أمام غوامض
الأقدار!

وضجيجُ البحثِ عن الإجابة.

ولأننا ننسى أن بعضَ الأحداثِ ليستُ جزءاً من التاريخ.

بل هي التاريخُ كُلُّه!

وعندها، ومنها، وإليها، تعودُ كُلُّ الحكايات، كأنها بؤرة الحكاية!

هنا تبدو معماريةُ السُّورة.

في بنائها التراكمي، وهندسةِ ظلالِ الخطي، تَكشِفُ لك عن يدِ علويةٍ
تحكم.

لكن، كيف تقبضُ على المعنى؟ في رحلةٍ كُلُّها تأويل!

لقد أدرك يوسفُ أنَّ مواجهةَ هذا الطوفانِ تعني الغرق.

امرأةُ العزيزِ بكلِّ سطوتها.

ونسوةُ المدينةِ بكلِّ دهائهنَّ.

وصمتُ السُّلطة.

وفسادُ القصر... وهو الأعزلُ في وجهِ كلِّ هذا!

ولقد كانت الدَّعوةُ له بنونِ الجمع، (مما يدعونني إليه).

فلا تدري...

أهي نون النسوة؟

أم نون المجتمع؟

أم نون السلطة؟

أم نون الفسادِ الجمعي؟!

وبين التهديدِ الجمعي والإغواءِ الجمعي كان يوسف في مواجهة الطوفانِ
الجمعي.

وكان عمق الوعي اليوسفي بمآلات الصراع يدعوه ليقول:

﴿رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ ﴿٣٣﴾.

مشهد العصابة يتكرر وهذه المرة في قوى السلطة وفي مستويات أشد ثقلًا وكثافة وخطورة.

وفي المرة الأولى كان في مواجهة الكيد في بنية عضلية.

والآن في مواجهة الكيد في قوى السلطة والنفوذ والمكر، كما تبدو شخصية امرأة العزيز في قمة الدهاء والمكر، ويوسف يواجه ذلك مرة أخرى وحيدًا!
ها هو يختار السجن، والسُّجْنُ...

مفردةً يتوسَّطها حرفُ الجيم، وصوتُها يُحْبَسُ فيه النَّفْسُ والنُّطْقُ.
والقلقلةُ تكشف ما لا يُقال، كأنَّ الحرفَ يُصارِعُ ليُخرجَ حيًّا من ضيقِ الحلق،
توحي بصورة صوتية حابسة!
وقد كان السجنُ كلُّ ذلك.

فكان الانسحابُ حفاظًا على الوجود، كان اتساعًا أخلاقيًا وهو
نزوة الوعي العقلي عند يوسف!
أنت..

في مرحلةٍ ما..

تتخلَّى عن أشياءك الأثمن.

لا لأنَّك جبان.

بل لأنَّك اخترت ألا تكون كذلك!

والحرِّيَّةُ كل الحرية:

أن تختار نصَّك.

أن تكتُبَ حلمك.

أن تكمل نجاتك بيدك.

إذْ ما جدوى كلِّ الأيدي
التي تلوح لك وأنت تغرق؟
وربَّما في لحظةٍ انزلاقٍ في وحل الآخرين تدرك كم تأخَّرت في تعلُّم المشي
باتزان!

لا بأس إذن.
إذا مَلَكْتَ اليقظة رغم الدَّمع.
لكنَّ الألم كلُّه
أن يكون عُمرُك مشرَّعًا على كلِّ النهايات.
بانتظار قفلٍ لا يأتي.
كأنَّك على موعدٍ مع تقويمٍ لا يَعرف تواريخَ حضورك!
وحينها كل العمر يغدو عبئًا ثَقِيلًا حين يظل معلقًا بلا يقين ولا مرافئ
ثابتة.

فجاهد...
في حيادك
وفي انحيازك.
قال: رَبُّ السَّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ...
يوسف، بهذا الدعاء، كان يتحرَّر من سجنها.
فتى جعل الدنيا أقلَّ من حذائه!
وكان السَّجْنُ في وعيه انسحابًا لصالح حضورٍ أبديٍّ.
قالها بملء قلبه:
أحبُّ إِلَيَّ!
وهل السَّجْنُ إلَّا وحشةُ العُمر؟!

وأَيُّ مناجاةٍ هذه؟

تبدأ بـ «رَبِّ».

بما تحمل من حماية، وعناية، وتربية، ورحمة!

يا رَبِّ...

يا حاجة القلب.

يا سند الضعف في زحمة القوة الزائفة.

وعلى وحشة المجهول، ينادي: وإلا تصرف عني كيدهن...

الفتن كانت مُحْتَشدة!

وما أعظم الشجاعة في الاعتراف:

أُصِبُّ إِلَيْهِنَّ!

«إِلَيْهِنَّ».

خشية أن يتوه القلب في فوضى الزحام!

والتعبير بـ «إلى» يدلُّ على خوفٍ بالغ أن يميل ولو خطوة!

يا ليوسف!

عبثًا تطرق النساء بابك!

فلقد كان فتى كلِّما فتَّشَتْ في سطورهِ، رأيت ثباتًا لا تملك النفوس مثله.

ومع ذلك...

رأى أبوابَ حريقٍ تلتهم روحه.

فتوسل بكل صوت الروح في عمق الفتنة

إلا تصرف عني كيدهن...

لقد صار يوسفُ كنخلةٍ تعبت من الصُّمود!

والشَّجاعة؟

أَنْ تَعْتَرِفَ بِبَشْرِيَّتِكَ.

أَنْ تَعْتَرِفَ بِضَعْفِكَ.

أَنْ تَعْتَرِفَ أَنَّ فِي الْقَلْبِ غَابَاتٍ تَحْتَرِقُ!

وَالشَّجَاعَةُ؟

أَنْ تَوَاجِهَ ذَاتَكَ، بِأَنَّ بَعْضَ الْهَزَائِمِ انتصار!

نَحْنُ جَمِيعًا هُنَا.

نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ أَنْ تَصْرِفَ عَنَّا كَيْدَ كُلِّ فِتْنَةٍ.

فَنَحْنُ

ضَعْفَاءُ، ضَعْفَاءُ، بَلَا قُوَّتِكَ!

وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ.

رَبِّاهُ!

مَنْ يَمَسُحُ الْآثَارَ عَنْ قَلْبِي إِلَّا أَنْتَ؟!

يَا يَوْسُفَ، حَاشَاكَ، حَاشَاكَ!

يَا اللَّهَ!

كُنَّا نَقْرَأُ السُّورَةَ وَنَحْنُ صَغَارُ، فَلَمَّا اشْتَدَّتْ غَرَائِزُنَا، أَدْرَكْنَا كَمْ كَانَ الطَّرِيقُ

مَرَهَقًا!

وَبَيْنَ السَّقُوطِ وَالصُّمُودِ، وَلَدَ فِي عَمْرِ يَوْسُفَ النُّضْجِ الْمُبَكَّرِ!

فَقَدْ كَانَ يَوْسُفَ شَابًّا غَافِلًا عَنِ التَّجَرُّبَةِ، لَكِنَّهُ، بَيْنَ شَبَابٍ مُقْبِلٍ، وَعَقْلِ

مُكْتَمَلٍ.

كَانَ كَمَنْ أَلْقَى بُرْدَةَ شَبَابِهِ

عَلَى عَقْلٍ بَلَغَ الرُّشْدَ قَبْلَ الْأَوَانِ، وَلِذَا، أَكْبَرُنَهُ!

شَابٌّ حُمِدَتْ عَزَائِمُهُ، قَبْلَ أَنْ تَنْضَجَ سِنُوهُ.

وشهدت مكرماته، وقد درجت بين يديه لذاته!

ولذا، استحقَّ جوابَ السماء:

فاستجاب له ربُّه، فصرف عنه كيدهنَّ، إنَّه هو السميع العليم.

استجاب.

بالفاء للسرعة، والسين والتاء للمبالغة لأنَّ الاستجابة أكثر من مجرد إجابة!

له..

وما أعمق دلالة اللام!

فتخيَّل

أن يكون أعظمُ الاستجابة:

السُّجُن!

وبماذا؟ بالصرف، إذ صرف، أي انتقل.

فقد كانت أسبابُ الفتنة قائمة، لكنَّ الله تولَّى الحماية.

وها هو يوسف، ينتقل ثانيةً، إلى غياية جديدة في لحظة تحول محوري.

وفي غبش منتصف الرحلة، وفي غامض الخطى.

يتشبَّث باليقين.

إنَّ قصَّة يوسف تعلُّمنا:

أنَّ الفرقَ بين السقوط والصُّمود

هو لحظة واحدة.

لحظة فقرٍ مطلق بين يدي الله!

(تنكشف الفضيحة، لتُصَفِّي يوسف من شوائب الصورة، حيث الجسد

مطية للاختبار، والروح ميدان للصعود.

يتقاطع المكر النسائي مع سطوة البلاط، ليُبْتَلَى الجمال بالاستلاب، لكن يوسف ينسحب من فتنة السلطة لا جبنًا، بل ليحفظ مقام الاصطفاء. الفتنة هنا ليست نساءً، بل العالم كله حين يتواطأ على إطفاء شعلة العفة، غير أن الصديق اختار أن يُلقى في غيابة السجن، على أن يُلقى في هاوية الروح.

وفي استجابته للنداء العلوي: «رَبِّ السَّجْنِ أَحَبُّ»، تعلّمنا أن الصعود الحقيقي يبدأ من قاع الانكسار، حيث تختبر الروح حقيقتها أمام مرايا البلاء).





﴿لَيْسَ جُنَّتُهُ﴾

هكذا وفجأة من سعة القصر إلى ضيق السّجن!



﴿ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتٍ لَيْسَ جُنَّتُهُ، حَتَّىٰ حِينٍ ۝﴾
بذلك القرار، كان يوسف يعبر بقيّة الجسر للرّوّا.

يعبر جسراً حتمياً في مرحلة قدرية.

يَعْبُرُ، إلى مرحلة احتراقٍ طويلة!

لَيْسَ جُنَّتُهُ: نوعٌ من الغرق في بئر بعيدة اسمها، السّجن، حفرة معزولة
 في جغرافيا الابتلاء!

و«واو» الجماعة، تُشكل اللحظة القديمة ثانية، حيثُ يتمالأ الرجال العصبية
 على يوسف!

والواو هنا تحكي اشتراك الجميع في قرار السجن.

في المَرّة السابقة، كانوا بِقُوَّتِهِم، واليوم، بِسُلْطَتِهِم.

والسبب كلمة واحدة: {مَعَاذَ اللَّهِ}!

وحرف (ثُمَّ)، يُشير إلى تفكيرٍ ومحاولات طويلة، فهو يحمل معنى الترتيب التراتبي.

وكلمة (بَدَا) تدلُّ على الوضوح، أَنَّ يوسف استعصم كثيرًا!
وإن ما بدا لهم كان أعجب بعدما تحققت براءته.

والتعبير هنا (لَيْسَ جُنَّةٌ حَتَّى حِينَ)، يحمل معنى القسم عبر اللام وإلى أجل غير محدود!
لماذا؟

حتى تُدْفَنَ بغيايه القصة كلها!
(وكل أدوات التأكيد في لَيْسَ جُنَّةٌ، اللام، ونون التوكيد الثقيلة، والتعبير بـ «حتى حين».

تكشف عن إرادة متغطرة في القمع بلا سقف زمني، فـ «حتى حين» مفتوحة على مجهول أرادوه طويلًا، وأراده الله مقدمة للتمكين).
لَيْسَ جُنَّةٌ، تتقلقل الحروف فتتكلم، وتسمع صوت السُّجْنِ في قلب الحرف.
إذ الجيمُ في وسطها تُحاكي كيف يُخَصَرُ الصَّوْتُ لشدَّة الضغط في المخرج، ومع الجهر الذي يمنعُ جَرَيَانَ النفس، والالتصاق المحكم باللق، تَشْعُرُ بروح السُّجْنِ كُلِّهِ!

تبدو الجيم غرفة مظلمة في قلب الكلمة، تعيش فيها أنفاس يوسف محبوسة!

لكنَّ نَبْرَةَ الْقَلْقَلَةِ في صوت الجيمِ تَسْتَدْعِي في المعنى نُهوضًا من الحَبْسِ، كأنَّ الحُرُوفَ تتظاهِرُ ضِدَّ الظُّلَمِ.

وكأنَّ الترتيلَ يُوحِي بأنَّ روحًا تبحثُ عن مَخْرَجٍ بطريقةٍ ما.
وتود لو تهرب من ضيق المعنى إلى سعة القدر!

ومع كلِّ تَقَلُّلٍ، نبض داخلي لروح محاصرة تحاول النهوض مع كل تقلب لفظي.

ومع كل اضطراب وتقلقل سيتفجّر مَخزُونٌ من وعي عميق، قدرة كامنة، أو ثراء مخبوء في السجن!

لَيْسَ جُنَّةً، هكذا وفجأة من سعة القصرِ إلى ضيقِ السّجن!

يا للأقدار!

هل جرّبت أن يُعطيك الله الأسبابَ ثمَّ يَسْلُبَكَ التَّمكينَ؟

أن تُثَقِّلَكَ سِلْسِلَةَ المفاتيح، ثم تُوصَدَ الأبوابُ كُلُّها دون استجابة؟

أن يجتمعَ فيكَ الْفَقْرُ والغِنَى.

حتى لا تدري:

هل أنتَ فارغٌ من القمح، أم أنَّ امتلاء السُّلالِ هو فقرٌ آخر؟

وهل الفراغ وفرة!

سُبْحانَكَ!

حين تُسمِعُ الأذن «أسباباً غير مُفسَّرة».

فتبقى مذهولاً، لأنَّ حِكْمَتَكَ لا تحتملُها عقولُنا الصَّغيرة.

لطالما خَذَلَتْنَا العيونُ الشَّاحِصَةُ في المدى، وتشبَّثْنَا بالمفاتيح التي لا

أبوابَ لها.

وأرهقنا نَحِيبُ الأسئلةِ اليائسة، وهرولنا إلى المُنَى المشتهاة، فإذا بها

مَآزِقُنَا!

بحثنا عن التفسير، فإذا الرحلة هي التأويل!

ما أضنى ألا نُبْصِرَ ونحنُ نُبْصِر.

وما أوجَعَ أن نكتظَّ بوهمِ الرؤية ثم نسقُطَ في كمائن الطريق!

نظنُّ أنَّ المعلومَ أكثرُ عددًا في مسيرة المجهول، وننسى أنَّ الأقدارَ لا تنطقُ، بل تمضي بصمتٍ مهيبٍ..

حتى تعبرَ بنا، فنُدرك كم كنَّا محبوسين في أعيننا!
وبين المنظورِ واللامنظورِ.

بين المرئيِّ والمخفي.

بين المعادلاتِ والغيبياتِ.

يتعزُّزُ العقلُ بمحاولةِ الفهمِ.

وفي محاولة عبورِ البصيرة في ممرَّاتِ الغيبِ.

وحده سبحانه، عالمُ الغيبِ والشَّهادة ونحن الفقراءُ في كلِّ شيءٍ.
إنَّه تاريخُ الرُّحلة.

وفي تفاصيلها نتعلَّم.

نُخطئ، فنهتدي. ونسقط، فنقوم.

ذاك كان قَدَرُ آدمَ، وتلك خُلاصةُ البشريَّةِ.

والحكمةُ أن نَجِدَ الحكمةَ، وأن تأتيَ النهاياتُ حينما يشاءُ الله!

لقد كانت الرؤيا في عَيْنِ القلبِ، وعلى ضفَّةٍ بعيدةٍ، كانَ مقياسُ
الحُلمِ.

فكان التدبيرُ، ﴿ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِن بَعْدِ مَا رَأَوُا آلَايَاتِ لِيَسْجُنَنَّهُ وَحَتَّى

حِينَ ﴿٢٥﴾﴾

وفي قراءة الحسن: لتسجننه بالتاء، حتى يُسَخَّرَ السجن لها.

لكن ثمة ما تكشفه القراءة الثانية، كأنَّ خيطَ امرأة العزيز خلف ستار
السلطة، في التقاءٍ للكيد الشخصي مع النفوذ الجمعي، فهل تحكم القصور
بالنساء؟

وتلك رواية التاريخ كله، فاقرأ التاريخ ببصيرة القرآن!

يتراكم حراس الخطيئة عليه، ويجثو يوسف على قدميه، يجذبه أحدهم من كتفيه، وينهشون أمانه، يترأى له مشهد العصابة ثانية، ويبدأ غياب جديد، فجأة، تشتعل ذبالة النهاية بزيت واهن.

تنطفئ قطرات الزيت، واحدة تلو الأخرى.

يشحب الضوء من القصر.

وتنضب الحركة تدريجياً، ويبدو المشهد فارغاً من يوسف!

المكان صامت من اشتعال الجمال، ثمة من حبك مراسم الغياب، مرة أخرى.

وتومض عينا امرأة العزيز بانتصارٍ مُثْقَلٍ بالألم.

تصفر الأبواب المغلقة بصوتٍ بائس، تتهاوى أحلامها اليابسة، يذروها الخذلان.

وتنتهي، مثل أرض هالكة جفّت آبارها، تتشظى في عشقها، ويكتمل يوسف في تماسكه.

وفي تدبير الله، تبدأ السنون الخصبة ليوسف، ويبدأ الجفاف التدريجي لامرأة العزيز.

كانت تلك محاولة لقتل الإرادة، أو ربما كانت تشبه تأريخاً جديداً ليوسف.

وكان القرار منهم جميعاً، إلى المنفى البارد، والوحشة الطويلة!

تُسَيِّعُ الملائكة غيابه الجديد، حافياً في قيوده من نعلٍ لبقية الطريق، وعارياً مرة أخرى من وشاح أمه!

يا للابتلاءات في عمر يوسف!

{ليسجنته، حتى حين!}، ترى، كم مدة هذا الحين؟

فلقد كان السجن دوماً طريقة في الموت الذي لا ينتهي.

ثمة قبر يبتلعك، ويبقيك عالقاً في برزخ قاس.

ومع الأيام..

يكبر السجن، وتتلاشى أنت في النسيان!

تتلاشى في غيابة الجبّ.

في برزخ الغياب في زمن اللازمان.

ويبدأ يوسف في السجن تجربةً داخلية عميقة، يعايشها منفردًا
تمامًا.

السرايب المظلمة.

الأنين المنتشر في فراغ النسيان.

الوجوه التي تضيء بابتسامة المقاومة، ثم تنطفئ على المقصلة.

الأجساد التي تتلوى من انهياراتٍ لا تُحصى.

الغياب المقصود.

القبور التي لا تملُّ الانتظار للجنازات المنسية.

صوت الطعام الرديء، يزدرده جسدٌ أشبه بخرقة بالية!

ينظر يوسف بقوة إلى الوجوه، ربّما سوف يُشبههم بعد فترة.

حيث النظرات المحتشدة بالقهر، والصمت الحزين.

والوَحدة، وفي السجن تتراجع الكلمات، فقد فقدت رصيدها من الحياة!

صوت الحشرات، يزيد السجن رهبة.

والخبز الحافي من اللذة، يمضغه شابٌ اعتاد الجفاف.

الإنسان المهزوم.

حيث يتكفّف الحقد ويتحوّل إلى قوّة انتقامية.

السجّانون، الذين أصبحوا كُتلاً صلبة!

كيف يتشكّل الإنسان ألف مرة في نهار السجن؟

كيف تظلُّ جدران السجن تنخر في عقله وقلبه حتى يسقط؟
 كيف يُعيد السجن دفنهم كلَّ يوم؟ وكيف يستيقظون بلا جدوى؟
 هل كانوا مثله؟ تهتمهم: الطهارة؟
 أم، هل كانوا مجرد ضحايا لحادث أدلتها مفقودة؟ أو ربما، مخفية!
 يسير به السجَّان في ممرَّاتٍ تشبه المجهول.
 ثمة أغاني حزينَة تنبعث من قبو بعيد، ثمة لحن، يعزف نهاية فارقة.
 يتحوَّل الزمن إلى لحظةٍ مشحونة بالخوف.
 لحظة ثقيلة، غارقة في الصمت، ولحظة مضغوطة بملايين المشاعر
 المتناقضة!

يلمح يوسف جدران السجن القاسية.
 لقد كان في الخارج متَّسعُ كافٍ للجميع، ولكنه الظلم، يُقصي الآخرين،
 ويلقيهم في زمنٍ مفقود.
 خُيِّلَ إليه أنه يسمع بكاءً صامتًا.
 ربما كانت تلك أولى الحقائق التي سيدركها يوسف في السجن:
 أنَّ الإنسان يصبح إحساسه مضاعفًا آلاف الممرَّات!
 تلك الأحاسيس

محاولة لنفي الموت، والبقاء على قيد الحياة!
 يسير في أقبية السجن، ثمة شيء في ممرَّات السجن يقبُض على
 خطواتك، كلُّما توغلَّت، تلتوى الممرَّات عليك، يتمادى الظلام، ويثخن الخوف
 في جراحك.

تفورُ العيون حولك بجحيمٍ ما!
 وفي البرد والوحدة والجوع، لا يستطيع المرءُ شيئًا سوى الانتظار.
 هنا ينتهي كلُّ شيء، ويبقى العمرُ وحيدًا.

في السجن، تحاولُ جهدًا مضاعفًا كي لا تنهارَ.

وفي الليل يتسللُ الحزنُ، ويستقرُّ في قلبك، وتبدو مثل مقبرة مليئةٍ بأحلامٍ لا تعرفُ الأمل!

يتحسُّ السجينُ هشاشتهُ، وتستبيحُ الحقيقةُ كلَّ شيءٍ.

وفي لحظةٍ من انهيارِ العمرِ، تتساءلُ، كيف مضى الوقتُ في الأمسياتِ الفارغةِ من ظلٍّ عابرٍ!

الوجوه الطافحة بالمرارة توحى لك، أنك تقفُ على حافةِ عالمٍ مُتهدِّمٍ.

وأنَّ ثمةَ مَنْ نذرَ بقيةَ عُمرِكَ للعدمِ!

الأجسادُ المُنهكةُ بالجوعِ.

الأكوابُ الفارغةُ، والصُّحونُ التي تنتظرُ الحساءَ.

الطعامُ الرديءُ.

أحدهم يَضَعُ يَدَهُ تحتَ رأسِهِ، يحاولُ سحبَ جسدهِ، لكن لا عافيةَ تكفي لذلك.

منهكونَ بعمرِ سجينٍ بأكملهِ.

صوتُ الأمعاءِ الفارغةِ، إلا من ألمِ الانتظارِ، ومللِ تتلاشى معه الرُّوحُ رويدًا رويدًا.

وفي الدقيقةِ الأخيرةِ من صبرٍ يُقاتلُ على ما تبقى، تسمعُ انهيارَ أحدهم!

ما السجنِ إلا الظهيرة القاتمة في حرِ السجنِ، والخوفُ الذي يَنهَشُ ليالي الانتظارِ!

وفي الليل تتسول الروح من الذكريات دفء الشتاء وخبرًا شهيا.

وفي النهار يواجهون حسرة اليقظة ويختنقون بالانتظار.

وفي كل ظهيرة يقف القلب على جمر ليت ولو، فإذا مضى شطر النهار احتل الصقيع كل المكان! وما يتبقى منهم شبه بقاء.

في وحدة السجن ترى أحدهم يعيش في شظايا نفسه.
وفي زاوية منسية يتبدد أحدهم بالتدريج إلى حد الغياب!
هكذا يموت السجناء، يختفون ذات نهار دفعة واحدة، دون ضجيج! ودون عزاء.

والناس تَرَحَّلُ، في مهرجان صمتٍ مُريب!
وفي القلوب، ألف ألف سؤال.
والذاكرة المُرَهَقَة مِنْ آلامٍ، تحتاجُ إلى عُمْرِ الكون حتى تَغيب.
أو ربَّما لَنْ تَغيب! وهنا، هنا ينتهي الإنسان!
ربما لم تكتب التفاسير عن الليلة الأولى ليوسف في السجن.
وربما انشغل العلماء بتقصِّي معاني الإعراب في الآيات، ومعاني الكلمات
وبعض الإسرائيليات.

لكن أحدًا لم يلمح جدران السجن وهي تتحرَّك.
تكاد تنحشر في عقل يوسف القادم ومشاعره، وتستبيح خصوصية
وجوده: الحرية!
تمارس عنفها النفسي على المشتبكين معها، لتنسج عنقًا خانقًا حول
حرية الروح.

في السجن، كانت الجدران تضيق حتى تهدم الإنسان.
ينتبه يوسف إلى رائحة العرق الثقيلة، وروائح أخرى.
وتنبَّهت ذاكرته إلى روائح النسوة!
تقف أمامه الجدران العارية.

ويستيقظ مشهد المتكأ في عينه، وفرش القصر.
في تباين شديد مع عتمة السجن المظلم.

هذا التداخل بين الحاضر والذاكرة يكاد يلتهم ثبات الروح!

الزمن المحتشد بصوت المظلومين.

صوت أحدهم وهو يصرخ بقوة، كان يتردد في أذن يوسف مع {هيت لك}.

تلك التي دفع ضريبتها غالية!

كان يمكن أن ينجو من كل هذا الرعب، لو أنه أعطاهم بعض ما يريدون!

لماذا هذه التجربة؟

وكيف يُكثّف الألم معرفتنا بذواتنا؟

وكيف تُفصح الذنوب الكثيرة في أرواحنا عن مكتسباتنا؟

لا شك..

أن تجربة السجن، ستردّ يوسف إلى رؤية صافية لذاته.

نحن نعرف الآن نهاية القصة.

لكن يوسف، لم يكن يعلمها!

وبين ظلمات المجهول وبين أمل غير مرئي ظل انتظار يوسف معلقاً

(حتى حين)!

صناعة القائد

لكن..

ما قيمة أن يُعاش الضعفاء والمظلومين والمنسيين؟

ما قيمة أن يتذوّق الألم الإنساني في شتى مستوياته؟

ما قيمة ذلك، قبل أن تبلغ قدماه عتبات العرش؟

في السجن يبدأ الدرس الجديد ليوسف في طريق التمكين.

حيث هنا الوجه الآخر للحياة.

هنا يوسف، بعيداً عن القصر، ورفاهية الإمكانات، وسعة الملك،

وقوة القرار

وسهولة الأحلام وأحاديث نخبة الحكم، ونفوذ الملك.

هنا المنسيون بقرار (حتى حين)!

المظلومون، المجرمون، أو المعذبون بقرار ما، وهنا الذين لا يملكون إلا الانتظار حتى (حين)!

يخطو يوسف، فيرتدُّ له الصدى، إذ ليس في السجن إلا الحزن، وقَدْرٌ كبير من الوحدة!

المظلومون المنسيون، (حتى حين)، لكن في الآخرة، كلُّ شيء لا يُنسى! ثمة ما هو محفورٌ على أرض المَحْشَر، ومَكْتُوبٌ بِحَبْرِ المَلَأِ الأعلى.

ثمة ما لا يُغْفَر!

ثمة ما تَنْتَظِرُه النَّارُ، كل النَّار.

ثمة أمر، هو غَضَبُ الجَبَّار!

وفي السجن يُوسُفُ يبلُغُ وعيًا جديدًا، رؤيةً جديدةً، وإيمانًا بالعدالة وتكتملُ له صورةُ الواقع!

وتثور تساؤلات عميقة.

هل الحياة منقسمةٌ إلى قصرٍ وسجنٍ؟ أم تراها بين محنةٍ ومنحةٍ؟

أم أن الحقيقة أن ثمة ظلمًا بلغ بالناس ضيق السجن كما بلغ به؟

تنفتح ليوسف بصيرة جديدة، فيرى المظلومون المنسيون، (حتى حين).

وما كان ليوسف أن يعرف مرارة الأحكام الجائرة لو أنه ظل هناك في حضن العزيز.

هذه السورة..

مشكاةٌ حقيقية، تكشف حقائق لا بد من وعيها في التعامل مع النص القرآني.

إذ قصة يوسف..

هي قصة صناعة المسؤول، والحاكم الذي لا يخون.

المسؤول الذي يختزن في ذاكرته صوت الضعفاء، وخبايا القصور!

القائد الذي يملك لغة الحكم ولكنه يعرف عدالة التنفيذ.

ما قيمة أن نملك كل أدوات القيادة ونمارسها في ظلم مقيت؟

لذا كان السجن كي يملك يوسف رشد الحكم، أدوات وتنفيذًا، وقد كان!

(تجربة يوسف عليه السلام في السجن، حيث يتحول الأسرُ إلى مدرسة

روحية وعقلية، تعيد تشكيل الذات من قاع الألم إلى أفق النضج والوعي.

السجن ليس مجرد حبس جسدي، بل هو برزخ للغيب والاختبار، حيث

تتصارع الروح مع الظلم وتقاوم محن القهر، وتصبح الوحدة والانتظار

حوارات داخلية مع القدر الإلهي.

ببلاغة تكشف عن تعقيد الحروف وأصداء الكلمات، كما يتجلى السجن

كفضاء لتشكيل القائد الذي يحمل همَّ العدالة والرحمة، ويعلم أن التمكين لا

يكون إلا عبر رحلة الألم والانكسار.

النهاية هنا ليست موتًا بل ميلادًا جديدًا لرؤية الحكم ومسؤولية الإنسان).





يَا يوسف

كان المكان فارغاً من تاريخك، مُكْتَبَتٌ أبجدية
حُضورك بإحسانك



﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ﴾ (٣٦)

معية الأنس في وحشة الابتلاء

تلك لحظة غامضة لم نَحْتَبَرها.

لحظة ارتطام السلاسل ببعضها في صَوْتِ الأقفال.

لحظة يُولَدُ فيها فاصلٌ هائلٌ بينَ الحياة وبينَ السجن.

لحظة الولوج إلى عالمٍ، تكتمل فيه الهزيمة.

لحظة تشعر فيها، أنك فارغٌ ممن يحرس قلبك!

تَجِيءُ كلمةُ {مَعَهُ}، تَمُدُّ له أجنحةَ اللطفِ الإلهيِّ.

وترسلُ من يعبرُ معه إلى ما هيئُوهُ له من يَبَاسٍ!

ويتقدمُ الظرفُ (مَعَهُ) على السجنِ لتلك الإشارةِ، حتى ترى فيها

معنى المعية!

تقديم وتأخير.

تتقدم المعية فتسبق الابتلاء.

ثم تنتبه، فإذا في التقديم والتأخير لطف وتدبير.

وتبدو لك بلاغة القرآن درساً في معاني الحكمة الإلهية!

يتماسك يوسف بقدر {وَدَخَلَ مَعَهُ السُّجْنَ}.

قدّر يسكب على الجرح طمأنينة الشفاء.

والمعية هنا، معية الأنس، حيث ينهمر لطف الله في دهشة القلب من

تدبيره!

يَا الله!

كم نحتاج في لحظة ما، إلى مَنْ يوقف ارتباك الخوف في بدء التجربة!

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٌ﴾ (٣١)

هكذا دون أسماء، كأنهم فتاتٌ على عتبة مُهملة، وتلك مهمة

السجن، أن تجعلك رقماً!

لا بأس.

فهؤلاء الفتية، يتقاسمون مع يوسف عُمر الفتوة، وتلك لغةٌ مشتركة،

تتلاشى بها وحشة المكان!

وذاك جمال لطف الله.

الرؤى نافذة الهروب!

﴿قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرِنِي﴾ (٣٢)

أسرُّ هذا التعبير، إذ تلقى الأحرف أسرارها، فتلمح تصويراً دقيقاً

لمفهوم الرؤيا.

الرائي ينعقُ من الواقع، ويرى ذاته، يُشاهدها، وكأنه مُنفصلٌ عن نفسه،

كأنَّ غيباً هبطَ عليه وهو يرى!

{إني أراني}.

بنون التوكيد وفعل المضارع الحيّ، وتلك آية الرؤيا الحقة، أنها تظلّ في الروح حيّة!

والتعبير بالمضارع لاستحضار الصور الماضية كأنها بين عينيه.

﴿أَعَصِرْ خَمْرًا﴾ (٣٦).

فعل المضارع يشي بتأويل المعنى، فالفاعل ينتظره حدث، إذ ثمة أقذاح تنتظر سقيها!

أو ثمرة، تنتظر تحقيق وعد أو خلاص ما.

لكن..

لماذا يتشبّث السّجين بالأحلام؟!

هل هو نوع من التّشبّث بالأمريّ، بالأمل؟!

ربما، ففي السجن..

يَحوُم اليأس في المكان، وتبدو الأحلام مثل نافذة الهروب كلّما أطبقت العتمة في الليل.

تُصبح الأحلام مثل وعدٍ يُقاوم به السّجين تأخّر الفجر!

مثل مقاومة، أو نافذة الأمل، وفي غمرة التّرقّب للمجهول، لا شيء سوى الأحلام.

في السجن تُصبح الأمطار القليلة خارج النافذة، حلماً.

الرمْلُ المُنتشر خارج أرض السجن، أُمْنِيّة!

ومع كل يوم يَنْصُب السّجن فِخاخ العتمة للغد المُؤمّل، حتى يظل السّجين في فَرْع الحاضر.

ووحدها الأحلام، مَنْ ينفّي اليأس!

هل تدري؟

أَنَّ السَّجْنَ وَغَر؟

وبين الصُّمُود والانهيار، فكرة الأمل.

لذا يَشَاءُ الله أن يَتَّسِعَ يوسف في السجن، ويُصْبِحَ الجواب للأحلام المُولعة بالانتظار!

يتدفَّق على يوسف الراسخون في الألم، فالرؤى مرايا للمصير.

يحملون له أحلامهم، في لغة مشبعة بالقلق والرغبة في معرفة المآلات!

ويُصْبِحُ الجواب عبر ما علمه الله من تأويل الأحلام.

وذاك من كمال التدبير الإلهي!

وهنا يبدو معنى (ولنعلمه من تأويل الأحاديث)، تلك التي سيحملها سجين

ما ويفتح منه باب الخروج للقصر!

﴿وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرْنِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا﴾ (٦٦)

يبدو السجين هنا، صامتًا.

والطير هي الفاعل.

فيُوحى المَشْهَد بصمتٍ كثيف، يُشبه جثة هامدة!

﴿تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ﴾ (٦٧)

الفعل هنا فقط، للطَّير، الطير تأكل وهو صامت!

ماذا يعني ذلك؟

هل كان الرائي يشهد احتضاره بنفسه، وفي رؤياه يتقمص موته سابقًا؟

هل ثمة من ينسج له كفنًا على مهل!

وهل غدا القادم أحلامًا منهوبة!

يستمع يوسف، ويثور سؤال غريب، كيف تُصْبِحُ الرؤى حالة، تختزنُ

تواريخ الحزن والفَرَح!

يقتربون منه، يسند أحدهم كتفه على جرة ماء متشظية بجانبه، ومثل عالق في بئر مهجورة، يشتهي لو يرى حناء الأمل في الرؤيا، وبإلحاح بهيم، يقولون ﴿نَبْنُنَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ ﴿٣٦﴾.

{نَبْنُنَا بِتَأْوِيلِهِ}، كَأَنَّ الرَّائِي يَتَوَجَّسُّ مِنْ انْكَسَارِ مَا، أَوْ يَتَرَقَّبُ نَجَاةَ مَا!

والتأويل، هو العاقبة وما تؤول إليه الإشارات، وغاية المعاني من رموز الرؤى.

(تتصاعد لهفة المجهول، فالإنسان حين يواجه قدرًا ضبابيًا يبحث عن كاشف للغيب يسكب على قلبه شيئًا من اليقين، ولو كان مؤلمًا، وهذا ما يجعل التأويل هنا ليس مجرد بيان لمعنى بل تعرية كاملة للمصير المحتوم).

﴿إِنَّا نَرْنَكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿٣٧﴾، والإحسان يقال على وجهين، أحدهما: الإنعام على الغير، يقال أحسن إلى فلان، والثاني إحسان في فعله وذلك إذا علم علمًا حسنًا أو عمل عملًا حسنًا، ولقد جمع يوسف ذلك كله.

وهنا تتكرر مُفردة الرؤية في ثوبٍ جديد، فالرؤية هنا، بصرية ومعنوية. فلقد رأوا إحسانه بالعين والقلب، وكان يوسف بأسقًا في سياقٍ موغل في الانهيار.

يقتربون منه وينظر إليه الراؤون، وفي تراقص ذبالة فانوس قديم تبدو التجاعيد وشيكة في وجه يوسف.

يبتسم في وقار غيمة مثقلة، يرونه مثل قديس هبط من السماء على حين غفلة من ضلال الناس، ليغزل منظرًا لسوءات الحياة! وفي خراب الوجود كان يوسف صلاح المعاني كلها، كان محسنًا!

تلك شهادة في زمن التشوه، أَنَّ البئر والقصر والسُّجن لم يستطيعوا اغتيالَ جذورك يا يوسف!

(ولا أحد يمكن أن يحكم على آخر أنه محسن إلا إذا وافق عمله مقاييس الإحسان في ذهن مَنْ يصدر هذا الحكم).

فيا الله!

مَنْ ذا الذي يعلو كلُّما انهدم؟

مَنْ يملك: أَنْ يخوض في الوحل دون أن يَزَل!

في السجن..

يُصبح يوسف في عصف المحن بالمِنَح مُزدهمًا!

يا يوسف..

كان المكان فارغًا من تاريخك، فَكُتِبَتْ أبجدية حُضورك بإحسانك!

يلتقط يوسف الإشارة ويبدأ معركة الكلمة في دهاeliz السجن.

﴿قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ ﴿٣٦﴾

هل تُقاتِل الكلمات؟

يقينًا نعم!

وهنا يحمل يوسف سلاح معركته بالكلمة.

ها هي الكلمات، سُلِّمَ النجاة من عمق السجن المعتم.

ويتجلى ذكاء يوسف في إجابة تثير إحساس السجين.

لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ، أي بالتوقيت الدقيق، حيث لا مواعيد ولا شمس ولا ما تتكى عليه الذاكرة، ونوع الطعام، وما تؤول إليه حقيقة ما غيب عنهم من الآتي من الأرزاق.

يعبس أحدهم ويرتب شعره بأظفاره، وعلى انتظار يتوجس، يبتل أحدهم

بعرق كثيف، وينتبه للمعنى!

بِتَأْوِيلِهِ، بينت لكما ماهيته وكيفيته وسائر أحواله.

وقد كان يثير عجب السائلين قوة علمه وعن الطريقة التي حصل بها هذا العلم.

فإنه يجيب بأن ذلك مما علمه الله، وكأنه يخبرهم عن صلة تهیی القلب لرؤية الغيب!

وفي وعيهم تبدو المسافة العقلية بين الإيمان والكُفر، قُرُونًا. لكن يوسف يَسحبهم إليها شيئًا فشيئًا في مُعتقلٍ، موصدة فيه أبواب التغيير!

وفي تباين هائل، تنفتح القلوب في أشد الأماكن انغلاقًا!
إِلَّا نَبَأْتُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا.

إذ كلما امتلأ القلب نورًا، شف له الغيب حتى كأنه يرى ألوان الغدا! تنزاح الحجب ويكشف له ويوهب من خزائن العطاء ما لا يبلغ بالأسباب. وفي تلك البقعة المُنسيّة، كان يُطلق سراح التوحيد. ثمّة تحوّل واضح في لغة يوسف، إذ يعلن يوسف هُويته، ويبدو مثل نجمة بعيدة تُضيء بِصلواته!

ومن الأسر إلى السيادة الروحية يقول يوسف {رَبِّي}. بهذه الكلمات، يجتازُ يوسف مرحلة الغروب، ويوقف خُطة السجّان. خطة الموت البطيء عبر دَمعة تتلوها دَمعة. يوقف الخُطة، بخُطة جديدة، ويهاجم بالكلمة! لقد أرادوا عُمره، تقويمًا مصلوبًا على جُدران السجن. أرادوه إيقاعًا رتيبًا، تقوُّضه الليالي الموحشة، أرادوا له عَتمة، تفرغه من إنسانيته!

لكن يوسف، يعبرُ فوق الانهيار، تلك حالة لا تنالها الهشاشة والعجز! لحظة التحرُّر النفسي، لحظة تكسر قيود السجن الحقيقي.

ويوسف لا يواجه جدران السجن بالحجارة، بل بالكلمة.

(يوسف هنا لا ينتصر على السجان فقط، بل ينتصر على فلسفة السجن ذاتها).

وبالاستقلال الروحي، ومن موقع الفاعل لا المفعول به يعلن:

﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾

للمرة الأولى: يقف يوسف على عتبة الحرية.

إذ يعلن أن القصر وما فيه كان حالة سقوط.

يقف سيّدًا، يمتلك زاوية خصبة يزرع فيها! وينهي زمن العبودية بما يعلن من معتقداته.

ويبدأ الانسحاب للأمام!

ولقد كان يوسف يُمارس انسحابًا واعيًا من القصر وفتنته ثم من السجن وخطته.

انسحابًا يحفظ على الروح عَظَمَتَهَا، عبر حمله للراية في مهب العاصفة.

ذلك الانسحاب كان انسحابًا للأمام!

يا للعظمة!

ومَا أبهى الصُّعود رغم العاصفة!

لقد شأَّوه حَقْل قمح مُحترِّقًا، وشاءه الله حاميًا لسنايل البشرية!

(هنا «الانسحاب الواعي» بوصفه من أعلى درجات القيادة الروحية: يوسف ينسحب لا هزيمة بل حفاظًا على عظمة روحه من الانجرار إلى مستنقعات القصر أو أنفاق السجن المظلم.

الانسحاب هنا فعل إيجابي يتطلب مناعة داخلية عظيمة. هو انسحاب الإمام للأمام! الذي يدرك توقيت الانزواء حين يكون الزمان قابلاً للتشويه، لكنه يزرع البذور التي ستثمر يوم الانبعاث).

لكن..

كَيْفَ يُسْتَمَطَّرُ الْخَصْبُ مِنْ جَفَافِ الْغَيْمِ، وَمَا جَدْوَى أَنْ يَجْرَّ هَذِهِ الْأَرْوَاحُ الْمُهْشَّمَةُ إِلَى اللَّهِ؟

ما جدوى ذلك؟!

إِنَّ الْقُرْآنَ يَعْلَمُنَا أَنَّ الْعُمَرَ يُقَاسُ بِمَدَى الْمَسَافَةِ الَّتِي بَلَغَهَا نُورُ اللَّهِ فِي الْبَشَرِيَّةِ مِنْ جِهَتِكَ.

وَمَعْرَكَتُنَا أَنْ نَحْمِيَ أَرْوَاحَنَا وَأَرْوَاحَ مَنْ حَوْلَنَا مِنْ نَزِيفِ الْعَتَمَةِ.

إِذِ الْحَيَاةُ اخْتِبَارٌ اخْتِبَارُنَا!

وفي السجن..

يَحْمِلُ السَّجْنُ مَقْبَرَتَهُ، وَيَبْنِي حَوْلَ السَّجَّينِ جِدَارًا صُلْدًا يَتْرَاكُمُ عَبْرَ نَسِيَانٍ يَتَوَالِدُ!

كَيْفَ يَفْعَلُ ذَلِكَ السَّجْنُ؟

يَفْعَلُهُ عَبْرَ فَائِضِ الْوَقْتِ.

حَيْثُ لَا لُغَةً تَوَاصَلَ مَعَ الْخَارِجِ، سِوَى الْإِنْتِظَارِ، الْإِنْتِظَارِ الَّذِي يَسْتَهْلِكُ الْمَشَاعِرَ، حَتَّى الْإِنْهْيَارَ!

هُوَ نَوْعٌ مِنَ الْإِحْتِضَارِ الطَّوِيلِ الَّذِي تَنْوَعُ بِهِ الْأَرْوَاحُ.

لَكِنْ يُوسُفُ فِي مَشْهَدِ السَّجْنِ، يَفْعَلُ شَيْئًا مُخْتَلَفًا.

إِنَّهُ يَغْمُرُ الْوَقْتَ بِمَشْرُوعِهِ الدُّعْوِيِّ.

يَتَجَاهَلُ السَّجْنُ، وَيُثِيرُ قَضِيَّةَ تَحْتِلُ السَّجْنِ كُلَّهُ!

وفي نضج رسالي يرفع يوسف كلماته، رِمَاحًا، فتنهض المآذن من وعورة السّجن.

ويبلغ يوسف ذروة وعيه الرسالي.

(لم يعد الحديث الآن مع السجناء مجرد تعزية أو تسلية روحية، بل تحوّل إلى مشروع يقظة حقيقية، حيث يُعيد تشكيل وعيهم من تحت الركام).

يُعلن يوسف ترتيلة البدء بقوله، ﴿وَأَتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ ﴿٣٨﴾.

يبدو يوسف بهذه الحقائق، مثل نور آتٍ من نجومٍ سحيقة.
وتبدو الأسماء للسّجناء مُبهمة وغامضة.

في السجن ثمة نور، يُطلُّ على ضفاف العتمة!

يربط لحظته الراهنة بجذور ضاربة في عمق التاريخ ويتساءل السجناء:
تُرى، ما هي ملّة يوسف؟

مئات الأسئلة يقدّفها يوسف في وجه السّجناء، يهزُّ بها تصالّحهم مع الواقع الظالم، ويُعلن: {إن الحكم إلا لله}، وما سوى ذلك، هو المرارة المضاعفة!

يُثير يوسف مسألة الأرباب.

﴿يَصْحَبِي السِّجْنِ عَازِبًا مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ ﴿٣٩﴾.
تساؤل، يضيء في الأرواح المغلقة.

أو (زلزال داخلي يهدم أنظمة التفكير المشوه التي تستبطنها النفس المسحوقة تحت أنقاض الاستبداد والوثنية السياسية والاجتماعية. فحين يتهشّم الداخل، يحتاج إلى سؤال كبير يعيد بناءه.

وتُصبح كلمات يوسف هنا بمنزلة مشروع تغيير لمستضعفين من متلقّيين سلبيين إلى شركاء في إعادة اكتشاف معنى الواحد القهار).

في السورة يتكرر لفظ الجلالة (الله) بالاسم الصريح تسعًا وعشرين مرة وبالضمير خمس عشرة مرة.

والمجموع هو اثنتان وخمسون مرة.

وفي ذلك دلالة على القدرة والسيطرة والرزق والعظمة المطلقة له رغم ظاهر المشهد الذي تملأ فيه أدوات السيطرة البشرية، رغم امرأة العزيز والعزيز والسجن والسجان وكل الحصار.

يتكرر لفظ الجلالة بالاسم الصريح أكثر من الضمير وذلك لبروز قضية التوحيد والألوهية في السورة.

الله ولا شيء قبل ولا شيء بعد، ولا يهولنك كل ما يملكون!
أربابٌ خير.

ليس جدلاً لغوياً، بل هو استدعاء للوعي المكبوت داخل الإنسان المسحوق بالعبودية.

تتَحشَرُجُ الإجابات وتَهْرَبُ، ويكتشفُ العقلُ أنَّ ظهورهم انحنت ألف مرة ومرة!

يا الله!

كيف يتمزق العبد في القطيع لألف إله!

هؤلاء الأرباب، هم من يصنعون فوضى الحياة، وفوضى التَّصورات، وفوضى الخطوات!

هم كمينُ الشعوب وفخاخها، وهم عُصبة الظلم.

لكن، هل نحن ضحايا اختياراتنا؟

إِنَّ مَنْ يَمْنَحُ الْحَيَاةَ قِيمَتَهَا هُوَ مَنْ يُعْلِنُ أَنَّهُ ﴿مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ ﴿٣٨﴾

مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ!

ضمير الجماعة فيها يوحى، باكتمالٍ عالٍ.

وأدوات النفي {ما كان}، تُعلن التحرُّر التام!

من شيء، (من) هنا لتأكيد النفي، وأدخلت على المقصود بالنفي.

إذ التوحيد هو الحرية وما سواه عبودية الظلم.

(النفي المطلق الجامع، يشي بدقة التعبير القرآني في استئصال كل ذرة

من ذرّات الشرك، مهما صغرت أو خفيت. إن حرية يوسف لم تكن أن يخرج

من السجن، بل أن يُخرج السجن من داخله. فالتوحيد هنا ليس خياراً فكرياً،

بل خلاصاً وجودياً من عبودية الكائنات إلى حرية العبودية للخالق الواحد).

﴿يَصْحَبِي السِّجْنِ عَازِبَاتٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۝﴾.

تبدو الآية في معانيها المزلزلة، مثل صلاةٍ علوية ترتفع من شاهق

المآذن.

يفضُّ يوسف صمته الطويل، ويبدد وهم العقائد الفاسدة، ويقول

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ

اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ۝﴾.

إذ كل اسم، يخلق مدى من التّيه لا متناهٍ.

فهل نحن من يمهّد للشّر سبيله!

ربما في البدء، تنتشي الجماهير بكل هذه الأرباب، وتغرق في ترف

البهجة، لكن الحقائق تُعرفُ بتمامها، وهذه الأسماء اللامتناهية، ستكون

دوامة ألم مفتوحة للعبيد!

يُكمل يوسف معركته في صناعة الوعي: ﴿إِنْ أَحْكَمُ إِلَّا لِلَّهِ ۝﴾.

هنا تتوهج روعة اشتعال الحرية، في التخلّي.

التخلّي عما سوى الله!

وهنا عبّة الحرية.

وامتلاك هذه الحَقِيقَة، يرتفعُ بالإرادة إلى ما وراء المُتَوَقَّع.

ومن عبث الأسماء إلى بهاء الأسماء الحسنَى.

إلى عالمٍ يفيض بالأسماء الحسنَى، إلى العَدَالَة وموازن القسط، إلى حياة قانونها العدل، وليسَ القُوَّة!

لذا..

﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ ﴿١٠٠﴾

هل نحن مَن نخلق الأصنام يوم نرفض عبودية الله، فنُصبح ضحايا
لألف ربِّ وربِّ!

إنَّ الظلم لا يقع دُفْعَة واحدة، بل يتمالأ الأرباب عليه.

ينسجونَ موتنا في التفاصيل الصَّغيرة، ثم في النهاية، يجعلون رؤوسنا
مَصلوبة للطَّير!

﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ ﴿١٠١﴾

حيثُ لا تختلط الحُقُوق والواجبات!

(لتؤسس لصياغة دقيقة لمنهج الحياة: التوازن، والاستقامة، والوضوح
في مرجعية التشريع. إنه الدين الذي لا يترك الإنسان فريسة للهوى أو للقوة،
بل يربطه بمصدر واحد للحق).

وفي السورة..

تكررت كلمة (الرب) في ثلاثة عشر موضعاً، وذلك لتأكيد مبدأ توحيد
الرَّبُّوبِيَّة.

حيث هيمنة الخالق والربِّ القدير على كل شيء فسلطانه مطلق وقدراته
العليا.

ومع شيوع لفظ الجلالة واسم الربِّ الكريم يتضح لك غلبة الحقل الدلالي
المتضمن لمعاني الربوبية والألوهية.

يوجه يوسف الوعي الفردي في مواجهة جهل الأكثرية، ويقول:

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، ف (الجهل هو الوجه الآخر للعبودية).

وكُلِّما كان المدى (مع)، تجذرت عُروش الظلم فينا!

وفي تكرار كلمة (الناس) دلالات عميقة حيث جاءت في ثمانية مواضع من السورة، وقد ارتبطت في ستة منها بالأكثرية، والأكثرية في الغالب غثاء لا وزن له، أو قطيع الاستبداد!

مكتبة
t.me/soramnqraa

وفي النص..

التوحيد مقابل أرباب.

الوعي مقابل لا يعلمون.

يوسف مقابل الناس.

فهل كان هذا درسًا آخر في قدرة الفرد على توجيه الرأي في أضيق الأماكن وأقساها وأشدّها ظلمًا!

(يحتفي القرآن بـ «المعيرة الإلهية» حتى في أحلك اللحظات، وي طرح تجربة يوسف في السجن كرمز للإنسان الذي يواجه وحشة الابتلاء والظلم لكنه لا ينكسر، بل يتشبث بالأمل وبالحقيقة الخالدة. والأحلام والرؤى تمثلان جسور النجاة من قسوة الواقع، والكلمة هي سلاح يوسف في بناء الذات وإيقاظ الآخرين).





وكان يوسف يعلمهم:

بأنَّ من لا يقبُض على جمرَةٍ التَّغْيِير، سيكون ساقِيًا،
أو رأسًا للخراب {تَأْكُل الطَّيْر منه}!



﴿يَصْحَجِي السَّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا﴾ ٥١
يظلُّ في وَرِ الخُطى {يسقي ربه خمرًا}.

سَيَنْتَهِي عُمره آسِنًا في بُقعة القَصْرِ.

يَنْتَهِي كائنًا مجهولًا تحت بَنْدٍ {أَمَّا أَحَدُكُمَا}، دون اسمٍ يوحى بتفرُّده.
ودون حُضُورٍ منفرد.

إذ توجِّي كلمة {ربه}، بتبعية مَقِيَّة، ويبدو هو ساقية الرَّبِّ أبدًا!
تستخدم مفردة الرَّبِّ هنا بمعنى السَّيِّد، ويظلُّ السَّاقِي هنا عبدًا.
وهذه هي الحقيقة:

أَنَّ الْأَقُولَ يَسْبِقُ الْمَوْتَ، ثُمَّ تَرَى الْجَمْرَ مُنْطَفَأً تحتَ رَمَادِ النَّكِرَةِ!
في المَشْهَدِ هنا..

تحتشدُ المعاني بين السَّيادة الثابتة، والعُبودية الدائمة، والمتع للأرباب.

وتَبْدو الحُرِّية ذلك المُستحيل!

﴿وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُضْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾ (١١).

ثُمَّ أَشْلَاءُ وَخَرَاب، يلتهمُ المشهد.

الصورة مقلوبة، حيث الجفاف للإنسان، والحقول مغمورة بالطيور الجانحة!

ما رمزية المشهد الممتلئ بصورة الإنسان المضمحل؟

هنا رجلٌ مصلوب فـ (هل يملك المكتوف أن يذُرَّ) عنه عذاباتِه!

{فَيُضْلَبُ}.

تفغر فاهها في الأذان كلمة {فَيُضْلَبُ}.

فترى ضجيج الخوف يطعن السامعين!

تتراقص سياط الفزع فوق رؤوسهم، ويلتصقون بالجدران ثانية، ويُبقيهم رُعب المجهول، في استعذاب السَّجن!

ودوما..

يكون التهديد أخطر من العقاب!

دعونا نتوغل فيما وراء التأويل قليلاً ونتساءل، ماذا كان يفعل يوسف؟

هل كان يوقظهم بالتأويل؟

هل كان يبوح، بأن واقعه المنتظر سجنٌ بلا حدود؟

{فَيُضْلَبُ}، وفي المشهد..

لا تبدو وثيقة حقوقية، ولا دليل اتِّهام، ولا شيء سوى قرار بالموت!

في المشهد..

يختفي الآخر، ويهزمه صمت الجماهير، ويظلُّ نكرةً كما كان في الوجود

نكرة!

تتبدى صورة العبودية المقنعة، تلك التي تتغلّف بخدمة القصور وتذوب في أدوار النسيان. لا اسم، لا تفرّد، فقط {أحدكما}، وكأنّ الإنسان هنا وظيفة لا ذات، كأس تُملا وتُفرغ دون أثر في الزمان.

وتكرار مفردة {ربّه} ترسّخ طبقية العلاقة، وتوحي أن «العبد ساقٍ دائماً» وإن نجا من الصلب.

بينما في {فَيُصَلَّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ}، تتجسّد النهاية كنقيض للحياة، حيث الجسد ليس إلّا طُعماً. والرأس -مَقَرُّ الفكر- يصبح غذاءً للطير!

وهذا انقلاب رمزي هائل، إذ ما يُفترض أن يكون أعلى ما في الإنسان (عقله ورأسه) يغدو مذبوحاً على صليب العاقبة.

مشهد التباين بين التأويلين يسلّط الضوء على أن الحياة في ذاتها ليست قيمة، بل في ماهية الدور. فالساقى لم يمّت، لكنه ذاب في مهمّة بلا هوية.

أما المصلوب، فقد صار مشهداً للاندثار. وفي وسطهما، يقف يوسف، صاحب التأويل، الذي صعد من ظلمة الجُبِّ إلى نور الهدى.

هذه الرؤيا..

هي واقعُ المَحكومين بالأرباب.

حيثُ كان الموتُ مقسوماً في التأويل، بين غياب الحضور وبين موتٍ واضح!

وكان يوسف يعلمهم:

بأنّ من لا يقبضُ على جمرة الوعي، سيكون ساقياً، أو رأساً للخراب {تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ}!

كانوا جميعاً في السّجن، يسكنهم فراغٌ بائس.

فراغٌ مُميت.

فراغٌ من الفكرة التي تُحييهم، العقيدة التي تحرّرهم!

لذا..

ما قيمة أن تخرج من السَّجْن، والسَّجْن مستقرٌّ في عمقك؟!
 ثُمَّ ماذا، ثُمَّ يَخْتَم يوسف بقوله: ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾. هل يوقفك التعبير بكلمة {قُضِيَ}؟
 لم يقل يوسف لهما: (هذا تأويلي)، بل قال: قُضِيَ، وكأنه ينطق عن قدرٍ ثابت.

بهذا الإسناد يُفصح يوسف عن مصدر علمه: إنه علم موصول بالوحي، مسنود إلى تدبير علوي، يتكلم بما قُضِيَ، لا بما يُظَنُّ أو يُوَوَّل فحسب.
 وكأنَّ هذا الواقع، قضاء سيظلُّ ناشئاً في جروح الناس ما لم يغيِّروه.
 وكأنَّ الأربابَ، حجاب على باب النِّماء، وباب العدالة، وباب الحقِّ الإنساني! والاستفتاء مصدر استفتَى إذا طلب الإفتاء. وهو الإخبار بإزالة مشكل، أو إرشاد إلى إزالة حيرة.

كَانَ يَوْسُفَ مُصْلِحًا وَلَمْ يَكُنْ مَفْسُورًا لِلْأَحْلَامِ.
 والمصلحون، هم ملح الأرض، وعليهم أمانة إيقاظ الناس.
 لِأَنَّ {أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}!

(يقف يوسف نبياً لا مفسِّراً، ومصلحاً لا مجرد قارئ رموز. يصوغ التأويل بوصفه قضاء لا رأياً: {قُضِيَ الْأَمْرُ}، ليكشف أن العبودية للأرباب، إن لم تُواجه، ستؤول إمَّا إلى العبودية الناعمة وإمَّا الموت المحتوم.
 وهكذا تتجلى الرؤيا كمرآة لواقع المسحوقين، وتظهر وظيفة يوسف الرسالية: أن يوقظ الوعي، لا أن يسلي القلوب، ويُسْخَبِلُ جذوة التغيير في قلوب أنهلكها الانتظار).





بين (اذكرني عند ربك) و (ارجع إلى ربك)

هو الفارقُ الزَّمني ﴿فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ ﴿٤٢﴾



الأقدارُ مشغولةٌ يا يوسفُ باصطفائك،

وكنْتَ أنتَ مشغولاً بالنَّجاةِ.

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَهُ

الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ ﴿٤٢﴾

{اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ!}

تضييق المساحة ويبدو يوسف حافي الأسباب في متاهة السُّجن، إلا من هذه الكلمة!

وفي السورة تكررت اشتقاقات مادة (سجن) للدلالة على طول المدة التي قضاها سيدنا يوسف -عليه السلام- في السجن.

لذا كان النداء {اذْكُرْنِي}.

مِثْل مَنْ يُحَاوِلُ أَنْ يَلْمَسَ فَجْرَ النِّجَاةِ، وَيَعْبُرُ إِلَى ضَفَّةِ الْأَمَلِ، هَارِبًا مِنْ
مَنْفَاهِ صَوْبِ نَهَايَةِ الظُّلْمَةِ.

كَانَ يُوسُفُ يَرْخِي لِلأَمَلِ الْعَنَانَ إِلَى مَوَانِي الْفَرْجِ، وَكَانَ تَوَقَّيْتُ الْأَقْدَارِ
مُخْتَلَفًا!

{اذْكُرْنِي}

تِلْكَ الْكَلِمَةُ، كَلَّفَتْهُ انْتِظَارًا طَوِيلًا، فَهَلْ كَانَ التَّوَقُّعُ لِلْمُغَادَرَةِ
خَطِيئَةً؟!

وَهَلْ كَانَ الْقَلْبُ فِي عَجَلٍ؟

{اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ}، أَيْنَ الْخَلَلُ وَمَا هُوَ الْفَارِقُ بَيْنَ الْحُلْمِ بِالْمُمْكِنِ، وَالْحُلْمِ
بِمَا يُشَبِّهُ الْمُسْتَحِيلَ؟

بَيْنَ مَجْرَدِ الْخُرُوجِ مِنْ بَوَابَةِ السَّجْنِ، وَبَيْنَ الْخُرُوجِ لِلْجُلُوسِ عَلَى الْعَرْشِ؟

بَيْنَ مُهِمَّةٍ تُخَيِّطُ لِلْمَجْدِ أَثْوَابَهُ: وَبَيْنَ مُجْرَدِ النِّجَاةِ؟

كَانَتْ الْأَقْدَارُ مَشْغُولَةً يَا يُوسُفُ بِاصْطِفَائِكَ، وَكُنْتَ أَنْتَ مَشْغُولًا بِالنِّجَاةِ.

وَكَانَ الْفَارِقُ بَيْنَ الْمَقَامَيْنِ..

بَيْنَ (اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ) وَ(ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ).

هُوَ الْفَارِقُ الزَّمَنِيُّ {فَلَبِثَ فِي السَّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ}!

«اذْكُرْنِي»، رُبَّمَا تَتَأَخَّرُ الْمَوَاعِيدُ لِتُكْتَمَلَ الرِّسَالَةُ.

لِذَا، {فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ}.

إِذْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ لِيُوسُفَ اكْتِمَالَ الْحَرِيَّةِ، وَكَمَالِهَا، يَصْنَعُهُ التَّارِكُ

الْمُطْلَقَ، التَّسَامِيَّ التَّامَ!

وَكَانَ الشَّيْطَانُ يُرِيدُ أَنْ يُوَقِّعَ بِيُوسُفَ وَيَبْقِيَهُ فِي السَّجْنِ فَكَانَ بَقَاءُ يُوسُفَ

أَوَّلَى وَأَصْلَحَ لَهُ.

{فَأَنْسَاهُ}.

هذا قدر الزمن المَنسَى، حيث تتعثر ذاكرة السَّاقِي، وتتعثّر دُروب النِّجاة إليه.

وفي مَهَبِّ النُّسيان، يبدو السُّجن أبدئًا!
مَا أَقْسَى..

أن يلمح الأمل انطفاء النِّهاية!
فأنساه الشيطان.

ما صلة التعبير بالحالة التي آل إليها تعبير الرؤيا!
فأنساه الشيطان.

(النسيان نسيان الأمل، وهو أشد سجون السجناء قسوة، ذلك السجن الذي لا يرى ولكنه يحاصر الروح ويكبلها).

فُسُبحَانَ مَنْ يَمْلِكُ مَوَاقِدَ الْأَحْلَامِ وحده!
يُشعلها، يُحَرِّك جَمَرها بيدهِ الْكَرِيمَةِ، فَتَظَلُّ أَحْلَامُنَا دَافِئَةً.
مُتَوَهِّجَةً، كَأَنَّمَا سَتَتَنَفَّسَ عَمَّا قَلِيل!

فإذا أطفأها بِحُكْمَتِهِ، رأيناها كَوْمَةً رَمَادَ بَاهِتَةٍ، كَأَنَّ لَمْ تَكُنْ مُنْذُ حِينِ
عَالَمًا مِنَ التَّرَقُّبِ الْهَائِجِ.

والفرح الآتي!

فيا رب، هبنا الصبر على حكمة التدبير وتوقيت الإجابة.
وانفُخْ مِنْ رُوحِكَ فِي أَحْلَامِنَا، حَتَّى نَرَاهَا حَقَائِقَ، لَا أَوْهَامَ رَاقِصَةٍ فِي
مُخَيَّلَاتِنَا!

{فَأَنْسَاؤُا}.

ترى كيفَ يَتِمَّاسُكَ السُّجَّينِ، وَخَطَوَاتِهِ تَتَعَثَّرُ فِي عَرَاءِ الْأَسْبَابِ؟
هَلْ يَنْجُو السُّجَّينِ، بِتَقَبُّلِ الْحُطَامِ؟
بِالاعتراف، أَنَّ مَا يَجْرِي هُوَ اتِّسَاعُ الْمَأْسَاءِ!

كيفَ يتجاوز السَّجينُ كُلَّ هذا القَلقِ اليومي، كيفَ؟
 في السُّجنِ، يتوقَّفُ صَخَبُ الزَّحامِ، يهدأُ صوتُ التاريخِ.
 ويَطوفُ الصَّمْتُ على كلِّ السَّجَناءِ!
 وتَلحظُ العَيْنُ فجأةً، كيفَ يختفي مِنَ النُّصِّ التَّعبيرُ بِـ {يَا صاحبي
 السُّجنِ}.

حيثُ يَمْتَدُّ مَتْنُ الوحدةِ طويلاً.
 خالياً مِنَ أسئلتهم.
 خاوياً مِنَ أحلامهم.
 فكيفَ نَجَا يوسفُ مِنَ كُلِّ هذا الفَقْدِ؟
 ها هو يَمْتَحِنُهُ الوقتُ.
 يَمْتَحِنُ فراغه مِنَ كلِّ شيءٍ.
 يَمْتَحِنُ فراغه مِنَ المَالِ.
 مِنَ العِزِّ، مِنَ السُّلْطَةِ.
 مِنَ الصُّحْبَةِ، وَمِنَ الأهلِ!
 فكلُّ السُّجَناءِ لهم زُورٌ، إلا يوسفُ لا أَحَدٌ يَقتفي أثرَ الوجعِ في روحه!
 في هذا الصَّمْتُ المُتَّسِعِ، يَعْتُرُّ يوسفُ على المَسَافَةِ الفارقةِ بَيْنَ الصَّمْتِ
 وَبَيْنَ الصَّفَاءِ.

يَعْتُرُّ على ذاته، وَيَحْمِي نفسه مِنَ الانهيارِ!

فهل الصَّمْتُ مدرسة؟

يقيناً نعم! ففي الصَّمْتِ تَصْنَعُ صَوْتَكَ الداخليَّ، وَتَجْمَعُ ما تَشَرَّدَ مِنْكَ.
 وَمَعَ الأيَّامِ، تَتَعَلَّمُ أَنَّ الثَّرَثَةَ حَدِيثُ الضُّعْفاءِ!
 ترى هل كانت بعضُ المشاهدِ القادمة، تَنْتَظِرُ تجربةَ يوسفَ؟



بين (اذكرني عند ربك) و(ارجع إلى ربك)

مَشْهَد رُؤْيَا إِخْوَتِهِ، وَأَصْوَاتِهِمْ وَهِيَ تَعْلُو ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ (٧٧).

الهدوء الذي خلق قدرة {ولم يُبديها لهم}.

مَشْهَدُ أَخِيهِ فِي فَوْضَى الْخَوْفِ مِنَ الْإِعْتِقَالِ، وَيُوسُفُ لَا يَنْبَسُ
بِبَيِّنَتِ شَفَةِ!

سُكُونُهُ وَهُوَ يَسْمَعُ أُنْيَنَهُمْ ﴿إِنَّ لَهُ أَبَا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ (٧٨).

اسْتِعْلَاءُ الرُّوحِ ﴿فَسَأَلَهُ مَا بَالَ النِّسْوَةِ﴾ (٥).

لَا شَيْءٍ يَسْتَفْزُ يُوسُفُ.

وَتَلَكْ أَثَارَ مَدْرَسَةِ الصَّمْتِ وَالْعُزْلَةِ!

وَهَذِهِ طَمَأْنِينَةٌ لَا يُمْكِنُ فَهْمُهَا، لَا، بَلْ لَا يُمْكِنُ بُلُوغُهَا!

لَقَدْ أَخَذَ يُوسُفُ مِنْ حَالَةِ الْغِيَابِ مَا يَكْفِي لِحُضُورِهِ.

أَخَذَ مِنَ الصَّمْتِ مَا يَكْفِي لِهَدْوٍ لَنْ تَسْتَفْزَهُ كُلُّ الْأَحْدَاثِ الْآتِيَةِ!

نَحْنُ بِالصَّمْتِ الطَّوِيلِ نَتَعَلَّمُ كَيْفَ نَبْنِي جِدَارًا حَوْلَ ثَبَاتِنَا.

طَمَأْنِينَتِنَا.

وَحَوْلَ رُدُودِ أَفْعَالِنَا!

نَطْلُ عَبْرَ الصَّمْتِ عَلَى جِرَاحِنَا.

نُخِيطُ أَحْلَامِنَا.

وَالْجِرَاحُ الْقَدِيمَةُ، تَفْقَدُ لُغْتَهَا، وَتُصْبِحُ النِّجَاحَ بَطُولَةً!

فِي السَّجْنِ، تَتَضَاعَفُ قِيَمَةُ الْأَشْيَاءِ الْأَصِيلَةِ، وَيَتَسَامَى السَّجِينُ عَنِ

الصِّغَاثِرِ.

رُبَّمَا لِهَذَا، لَمْ يَتَوَقَّفْ يُوسُفُ عِنْدَ الْعِتَابِ، ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ

بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ (١٣).

وفي البَوح الداخلي، تصطفي الرُّوح معاني الحياة.

حيثُ يدرك يوسف قيمةَ العمر، فيبدو ما تَبَقَّى أحوج إلى ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا
وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾.

إنَّ تجربةَ السُّجن، تجلو عن الرُّوح نقائصها.

ينظرُ يوسف في السُّجن، فيرى آلافَ الأرواحِ بلا بارقة أمل.

وفي المكان، تتكدَّس الجثامين الحيَّة حيثُ الانتظار!

البُرودة التي تنهشُ القلوب.

كآبةُ المَكان.

والمَلل، إذ يفوحُ من ثياب الأيَّام.

الليل الجاثم في وجوههم.

والإجابة الواهنة التي لا تصل.

والحُزنُ الذي يَنشَط ليلاً!

في لحظة ما من اختبار كبير ينفجر سؤال كبير، كيف وُلد هذا المُنعطف
في حياتنا، ولماذا؟

هل كنا بحاجةٍ إلى أن ننجو من واقعنا؟!

هل كانت تلك العُزلة زنزانة المواجهة مع الحَقِيقَة، مع الجُزء الذي لا نعرفه
عن الحَيَاة؟!

ربما كان مَشهد الحياة ناقصًا.

وكانت تجربة الألم قطعَ الفسيفساء التي اكتمَل بها الوعي!

كيف صمت الضحك؟ كيف توقَّفت الطمأنينة؟ وكيف ثار كل هذا التَّعب!

مفرداتٌ، مثل القسوة، الخوف، الألم، الفَقْد، التَّعب، الانتظار المُمل،
التَّناقضات، الرِّغبة في الصُّراخ، القيد، كُلها لم نخترُ منها شيئًا.

لكنَّها اختارت يوسف بعناية!



بين (انكرني عند ربك) و(ارجع إلى ربك)

كيف للإنسان، أن يفقد مبرر وجوده، ثم يستمر!
كيف له أن يتقبَّل الخَوَاءَ الغامر، ويصمت عن كُلِّ الكلمات التي لأجلها كانَ يعيش!

كيف له، أن يَظَلَّ قَلْبًا!
كيف له، أن يسمع صوت انطفاءِ اللَّهفة فيه!
كيف يحدثُ ذلك، ولماذا؟
رُبما نحزُّ ندرك حين نسمع صوت السَّجْن وهو يُفتح، أنَّ مدرسة الألم هي التي نتوهَّج بعدها؟ ونُشرق بما صمد فينا!
نحنُ في المدى المأهول بالنَّعم، وصوت الجَمال لا نزهرا!
رُبما تشعُّ ألواننا.
لكنَّها مثل قوس قزح، سُرعان ما يَغيب!
فقط..

في المُعاناة، نحنُ نتجذَّر للأبد!
ولقد استنطاع يوسف أن يهيمَن على وحدته، ويأوي إلى غزلته، كي تنجو آلاف اللحظات من عُمره من دوامة السَّجْن.
من دوامة الموت البَطيء.
من أن ينتهي على قارعة النُّسيان.
فهل تخلُق العُزلة إنسانًا، لا تُمكن هزيمته؟!
رُبما.

فليس هناك أكثرَ وحشةً من الوحدة، والصَّلابَة، هي نتاجها!
وفي هذه العُزلة..
حملَ يوسف عبءَ رُوحه.
وأدرك أنَّ الصَّمْت، كَوْنٌ من التأمل!

لقد كانت عِزلة يوسف، هي الصَّمْتُ المُمْتَلئ.

حيثُ كان يوسف يَحْرُثُ تَرْبَةَ الغَيْبِ، بإعدادِ رُوحه لرؤيا تنتظرُ تأويلها!
وفي وجه المحن لا شيءَ بوسعه أن يَكسرك، سوى أن يتجاوزك أمانُ
اليقين بما في يد الله.

ثم بعدها تهوي في فراغٍ يتلوهُ فراغ.

وحينها تَتَسَّع الحرائق في جَوْفك!

ومع اليقين نحنُ نحتاجُ أن نزهَد في الكثير من الأشياء، لأجلِ طُمأنينة
تَحْمِينا.

نحتاجُ أن نتخلَّى عَنْ أماكن لم تَعُدْ أماكنا!

ليس بوسع أحدهم أن يمنحكَ قرار السَّكينة، إذا لم تكن نابعة من ذاتك!
وفي نهاية الرحلة.

تحتاجُ أن تَمْلِك النظرة الأخيرة إلى ما ورائك.

وأنت مطمئنٌ، أنَّ الطريق كان يُشبهك تمامًا، كان يُشبه روحك.

وكنْتَ أنتَ هنا وهناك، لم تَنفُذ الضَّوْضاء إليك!

لذلك كان قدر: قلبت في السجن بضع سنين!

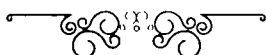
(تجَلَّى التجربة العظمى للصمت والعزلة، حيث يُبتلى يوسف بزمان
النسيان لا كسجن مكاني، بل كابتلاء لصقل الروح. ولم تكن {اذكرني}
خطيئة، بل تَوْقًا بشريًّا للحرية في ممر القدر، لكن الله شاء له النجاة الكاملة
لا المؤقتة. فالنسيان هنا ليس نسيانَ ذِكر بل نسيان خلاص ناقص، كي تنتهياً
الرُّوح لا لمخرِج بل لرسالة.

هكذا تصوير الوحدة محرابًا، والصمت معبرًا نحو الصَّفاء، ويغدو السجن
حاضنة للنبوة، تنحت يوسف نبيًّا لا مجرد ناجٍ من القضبان).



نُذْرُ الجفاف ولغز الرقم والسنابل

﴿يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ﴾ (١٣)



الرؤيا الملكية: بريق الغيب

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى﴾ (١٣)

لأن التوقيت قد حان!

وبالتعبير بالملك (نعرف أن هناك «ملكًا»، وهناك «عزيزًا».

ونحن نعلم أن حكام مصر القديمة كانوا يُسمَّونَ الفراعنة، وبعد أن اكتُشِفَ «حجر رشيد»، وفُكَّتْ أَلغاز اللغة الهيروغليفية عرفنا أن حكم الفراعنة قد اختفى لفترة حين استعمر مصرَ ملوكُ الرُّعاة، وهم الذين يُسمَّونَ الهكسوس. ملك ولم يسمه فرعونَ لأن هذا الملك لم يكن من الفراعنة، ملوك مصر القبط، وإنما كان ملكًا لمصر أيامَ حَكَمَها الهكسوس، وهم العمالقة، وهم الكنعانيون، أو من العرب، ويعبر عنهم مؤرخو الإغريق بملوك الرعاة، أي البدو. وقد ملكوا مصر من عام 1900 إلى عام 1525 قبل ميلاد المسيح

عليه السّلام. وكان عصرهم فيما بين مدة العائلة الثالثة عشرة والعائلة الثامنة عشرة من ملوك القبط.

كانت هذه هي الفترة التي ظهر فيها يوسف، وعمل يوسف وأخوه معهم، فلما استرجع الفراعنة حُكم مصر طردوا الهكسوس، وقتلوا مَنْ كانوا يُوالونهم. وحديث القرآن عن وجود مَلِك في مصر في أثناء قصة يوسف عليه السلام هو من إعجاز التنبؤ في القرآن.

إِذْن {وَقَالَ الْمَلِكُ}، يَنْضَبُطُ الوُصْفُ تَمَامًا مَعَ مَرَحِلَةِ تاريخية مُحدّدة، لَمْ يَكُنْ لِلْفَرَاعِنَةِ سُلْطَانٌ عَلَى مِصْرَ فِيهَا، وَتِلْكَ مَعَانٍ لَا يَنْتَابُهَا اللَّغَطُ! وجاء التعبير بِإِنِّي أَرَى، وَكَانَ الظَّنُّ أَنْ نَقْرَأُ إِنِّي رَأَيْتُ! لكنِ الرؤيا كانت مِلءَ الزمان، فَخَرَجْتُ مِنْ حَيْزِ الماضي، إِلَى مُضَارِعٍ حَيٍّ.

والنون نون التوكيد والفعل المضارع، يَهْبُ الرُّؤْيَا فِي المَشْهَدِ بَرِيقِهَا! {إِنِّي أَرَى}.

ها هي الرؤيا إِذْنُ تُورِقُ فِي عَيْنِيهِ، وَدُونُ مُقْلَتِيهِ تَسْقُطُ الْأَوْهَامُ! فماذا كان يرى؟

﴿سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُتْبَلَاتٍ خُضِرٍ وَأُخْرَى يَأْسِئَتٍ﴾ (١٢).

يُثْنُ المَشْهَدُ مِنْ وَطْأَةِ الفَزَعِ وَعِلَانِيَةِ الهَلَعِ تَبْدُو وَاضِحَةً فِي الصُّورَةِ، وَفَرَطُ الغَرَابَةِ فِي العِجَافِ الْيَابَسَاتِ، يَتَنَاوَلْنَ حُشُودَ الْبَقَرِ الْمُتَمَثِّلَةِ! تَتَجَلَّى ظِلَالُ الْمَعْنَى الْكثِيفَةِ.

الأحلامُ رِسَالَةٌ الحذر تَأْتِي وَمُضًا، لَكِنَّا تَوَقَّفَ الْفَوْضَى! ومن يملك مفتاح التأويل فقط يَسْتَطِيعُ فَهْمَ الرِسَالَةِ الْكَامِنَةِ، وَيَنْجُو مِنْ فَوْضَى الْأَحْلَامِ الْمَشْوشَةِ.

لَكُنْ لَا يُهَيِّأُ لِلأَمَةِ جَوَابَ التَّأْوِيلِ، إِلَّا مَنْ احْتَشَدَ بِالوَعْيِ!
فَالأَحْلَامُ لُغَةُ الْوَحْيِ، تَفِيضُ بِهَا الرُّؤْيَى، وَالْفِتْنَةُ أَلَا نَلْتَقِطُ الْكَلِمَاتِ!
الْأَحْلَامُ، رِسَالَةُ الْغَيْبِ.

وَمَنْ فَقَدَ التَّأْوِيلَ، مَسَّهُ النِّصَبُ وَالسَّغْبُ!

نُذِرُ الجَفَافَ ولَغَزَ الرِّقْمَ والسَّنَابِلَ
{يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ}.

الصُّورَةُ بِكُلِّ قِسْوَتِهَا تَخْرُجُ لِلْعَلَنِ، وَالْبَدَايَةُ كَأَنَّهَا تَتَأَهَّبُ لِلِاحْتِضَارِ.
وَفِي الْمَشْهَدِ تَغْرُقُ الْبَرَارِي فِي الْجَفَافِ، وَتَتَفَاقَمُ الْقَوَاضِي.
تَتَشَّحُ الصُّورَةُ بِرَمْزِيَّةٍ عَالِيَةٍ.
فَفِيهَا حُزْنٌ وَمَوْتُ وَتَارِيخٌ قَلِقٌ.

مَسِيرَةُ الْوَقْتِ عَبْرَ الرِّقْمِ سَبْعُ بَقَرَاتٍ، سَنَابِلُ، حَيْثُ تَتَكَرَّرُ كَلِمَةُ سَبْعٍ فِي
السُّورَةِ سَبْعَ مَرَّاتٍ.

كَأَنَّهَا مَوَاسِمُ تَخْتَنِقُ بِجَفَافِهَا، وَيَضِيقُ عَنْهَا رَحَاؤُهَا.
الزَّمَنُ وَالرَّقْمُ، الْبَقَرُ الْمُنتَفِشُ يَتَّبِعُهُ رَحِيلُهُ، يَتَّبِعُهُ الْمَوْتُ!
وَاللَّقِطَةُ مَرْسُومَةٌ بِعَنَايَةٍ، فَلَا مَقَاوِمَةَ مِنَ الْبَقَرِ وَالْعِجَافِ تَتَعَاظَمُ بِمَا
أَكَلَتْ!

كَأَنَّ اللَّوْحَةَ تَنْتَهِيًا لَطَقِسَ جَنَائِزِيَّ وَفِيهَا يَشْتَبِكُ الْوَقْتُ فِي سَبْعٍ تَتَكَرَّرُ،
كَأَنَّهَا نَاقُوسُ الْخَطَرِ!
يَمْضِي الزَّمَنُ نَحْوَ هَاوِيَةِ الْجُوعِ، فَالسَّنَابِلُ الْجَافَّةُ، تَلْتَهُمْ بِقَايَا الْخُضْرَةِ
وَتَتَقَدُّ جُوعًا.

وَفِي الرُّؤْيَا لَغَزَ السَّمْنَةِ، فَهَلْ هِيَ انْتِفَاشٌ أَمْ امْتَلَاءٌ؟
عَافِيَةُ الْقُوَّةِ، أَمْ انْتِفَاحُ الصُّوْلَةِ!

ما رمزية البقر في العقل المصري؟ هل كانت الصورة توقظ معنى
الخشب والزراعة؟

والسنابل، كيف تنتهي إلى كسرة خبز جافة؟
وتهاوي هذه الرموز يشي بأزمة وجودية تطال الأمة كلها.
الصُور تقتحم حواس الملك، قبل أن يبتلعه الجفاف.
ثمّة فخاخ رهيبة، والمَلِك على يقينٍ من {إنّي أرى}.
حيثُ يمتدُّ به بصره، إلى صَمَتِ الحُقُولِ من هَدِيلِها!
يمتدُّ به بصره، فتحط العين على السُّلال الفارغة!

و(في رؤيا الملك تنبعث أسئلة جوهرية عن مصير الحضارات حين
تعصف بها دورات الجفاف الاقتصادي، وبهذا التشكيل الرمزي، يصبح الحلم
إنذارًا كونيًا أكثر من كونه صورة شخصية.

وتتقدم لغة النص بحمولة فلسفية تتجاوز حدود القصة إلى قراءة متعمقة
في التاريخ الإنساني كله).

«نُذِرُ الْجُوعَ: وَمَجَازُ الْفَنَاءِ فِي لُغَةِ الْحُلُمِ»

{يَأْكُلُهُنَّ}، بالفعل المضارع حاضر، والمَشْهَد يبدو بلا بقايا!

{يَأْكُلُهُنَّ}، تَبْتَلَعُ، تَبْدُدُ.

تَنْهَبُ، وَتُبْعَثِرُ أَتْزَانَ الْمَكَانِ.

تلك العجاف، ستستهلك كُلَّ شَيْءٍ!

لكن كيف يأكل الهزيل الممتلئ؟ أم أنه الجوع حين يتحول إلى طغيان!

(الفعل المضارع يمنح المشهد دينامية الفناء المستمر، وكأن الكارثة

قائمة على التهام لا ينتهي، وكل لحظة تُذيب جزءًا جديدًا من الرخاء!).

{وَسَبَّحَ سُنْبُلَاتِ خُضِرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ}.

يُتْرَكُ النَّصُّ مَفْتُوحًا عَلَى كُلِّ الْخِيَالَاتِ، حَيْثُ لَا مَتَّسِعَ لَأَكْثَرِ مِنْ هَذَا الْمَوْتِ.

حيثُ لا فُتات للّقَادِمِينَ.

تتكرر صورة السباعية، مما يفتح النص على مشهدية الفقد الكلي: ليس هناك فسحة لفائض ولا فتات للآتين، بل جفاف مطلق يزحف في كل الجهات. فالنّهاية تدلُّ بيأسها، وتقول:

انظُر فماذا تَرى؟

تُرى، كيفَ عافَ القَمَحَ خيره للجفاف، وهل للمَشهد بقية؟ هل كانت الرُّؤيا نِصف المسافّة فقط؟ وعلى أحدهم أن يعبرُ إلى بقيّة الرُّؤيا!

كانت الكلمات حُبلى بالكلمات.

ثمّة تفاصيل تُرتّب شيئاً ما، كأنها مشروع اختبار للوعي الجمعي، لا مجرد حُلم خاص بالملك.

لكن، مَنْ يَسْتَنطق الصُّورًا!

من يملك مفاتيح الصورة؟ ومن يجرؤ على استنطاق هذا الخراب الرمزي؟
«نداء العبور إلى مغاليق المعنى»

قال الملك: ﴿إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّعْيَا تَعْبُرُونَ﴾^(١٢)، هذا هو السؤال.
مَنْ يقدِرُ أَنْ يمتطي أفق الكلمات للوصول إلى عوالم الرموز والكنيات والمجازات؟

مَنْ يملك العبور للكشف؟

وَمَنْ يُدليّ الجبال للمعاني!

ويقلق تتضاعف فيه أحاسيس الهلع ينادي:

﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ﴾^(١٣)، مثل مَنْ يبتهلُ في سؤال

التأويل، فقد مسّه الرُّهق!

يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ، وكأن الرؤيا لم تعد شأنه الخاص بل أزمة دولة، فالرؤيا هنا تجاوزت كونها صورة شخصية لتصبح مشروع أمة ينتظر من يفك شفرته.

{أَفْتُونِي}.

بهذه المفردة الصريحة.

فالتأويل فَتَوَى! فَتَوَى تُبْنَى على التأويل.

والتأويل يحتاج إلى علم نافذ، وبصيرة صافية، وحكمة تميز مواضع القدم في مواضع الزلل. فالرؤى ليست ألغازًا بل إشارات تحتاج إلى من يملك سر مفاتيحها.

وَمَنْ يَمْلِكُ بَصِيرَةَ التَّأْوِيلِ، يَمْلِكُ فَوَاتِحَ الْحَلِّ.

وَكُلُّ رُؤْيَا تَبْدُو عَالِقَةً بَيْنَ الْحَيْرَةِ وَالْبَصِيرَةِ وَالتَّأْوِيلِ، فَتَوَاهَا الَّتِي تَوْقِفُ التَّعَثُّرَ فِي الْمَعْنَى!

وبين وهج الرؤيا وعمى الإدراك

﴿قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ﴾ (١١).

يَا ضَيْقُ التَّعْبِيرِ فِي وَغْيِ الْمَلَأِ!

يغلِقون الرؤيا، وقد كانت تطلُّ على الجراح القادمة، يتوشَّحون جهلهم، وتتعثَّر الحاشية كلها في ظنونها.

يَفِيضُونَ بِعَرَقِ الْحَيْرَةِ، فَقَدْ كَانَ التَّأْوِيلَ عَلَيْهِمْ شَاهِقًا!

وَالضُّغْتُ: هُوَ حِرْزَةٌ مِنَ الْحَشَائِشِ مُخْتَلِفَةِ الْأَجْنَاسِ شَبِهَتْ تِلْكَ الرُّؤْيَا بِالْأَضْغَاثِ فِي اخْتِلَاطِهَا وَعَدَمِ تَمْيِيزِ مَا تَحْوِيهِ لَمَّا أَشْكَلَ عَلَيْهِمْ تَأْوِيلُهَا فَلَا مَعْنَى لَهَا.

إِذْنِ هِيَ أَضْغَاثٌ تَفُورُ بِأَسْرَابِ الْأَوْهَامِ، وَكَفَى، وَفِيهَا تَبْدُو السَّنَابِلُ، أَحْلَامًا يَابِسة!

﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ﴾ ١١١

بتأويل، والباء، من قبيل باء الإلصاق، لأنهم نفوا التمكن من تأويل هذا الحلم.

فالباء هنا تلتصق بالضعف الذاتي وتدل على خلوهم من مفاتيح عوالم التأويل.

تكتظُّ الرؤيا، وتضيق رموزها بين استحالة الفهم وبين عجز استشراف المعنى! الملاء.

هؤلاء المنغمسون في دِفء النُشوة يُكدِّسون الدُموع للمستقبل، العاجزون عن قراءة الظواهر الطبيعية.

عن قراءة القادم، هم من يصنعون لنا العتمة!

ولقد كانت السُّنبلات، تفضي بأسرارها.

وكانت الكلمات، تشفُّ عمَّا وراء سطورها.

وكان الملاء، أعجز من أن يعبروا إلى ضفة المعنى!

(وهنا فجوة المعنى بين من يرى في الرؤى إشارات السماء، ومن لا يرى

فيها إلا تراكمًا من خيالات لا تستحق عناء التأمل. ولا يملكون سوى صناعة العتمة).

موعِدُ التدبير

﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ ١١٢

هذا هو إذن توقيتُ القدر.

وبُلغةِ علوية، يُعلن التدبير الإلهي مواعيده!

{وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ} مِنَ السَّنِينَ.

(بعد زمن مضى على نسيانه وصاية يوسف عليه السّلام. والأمة أطلقت هنا على المدة الطويلة، وأصل إطلاق الأمة على المدة الطويلة هو أنها زمن ينقرض في مثله جيل، والجيل يسمى أمة).

{وَأَذْكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ}، كَأَنَّ الْحِكْمَةَ تَقُولُ لَهُ:

(تَاهِبْ، فَمِيقَاتِكَ الْآنَ تَم).

وَكَأَنَّ مَا كَانَ، كَانَ لِهَذَا الْيَوْمِ!

ويوسف في ذاكرة الساقى مشحون بالدلالة، فهو ليس تذكُّراً عادياً، بل تذكُّراً ثقیلاً استلَّ من غياهب النسيان.

انبعاث من عمق الغيب بعد أن اكتمل ميعاد الاصطفاء.

وبفعل القوة الإلهية التي تضبط الموازين. كأن الذكرى كانت حبيسة، ثم جاء الوقت الذي فُك فيه قيدها.

وعلى نشوة السبق، يَمَّ خطاه نَحْو الذكرى، نَحْو حُلْم نَجَا به!

يا الله! مكتبة سُرَّ مَنْ قرأ

كيف تُستلهم النِّجاة من النِّجاة؟

وكيف تَحَطُّ الذِّكريات النائية على أقدارها!

﴿أَنَا أَنْبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ (١٥).

لا جهة هناك إلا يوسف، لا ثمَّ إلا الصديق!

وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في سياق الإثبات يفيد التقوي.

بتوكيد في تقديم الضمير لبيان الثقة العميقة بمصدر التأويل.

يَجري إلى الذكرى الأولى، حيثُ ثمة شخصٌ يتَهَجَّى المعنى الرَّاخِر

بالهَمْس.

يتَهَجَّى الصَّوت الخافِت.

يتَهَجَّى رسائل الغَيْب.

وَيَعْتَزُّ عَلَى الْمَرْسَاةِ!

(تتجلى الرؤيا الملكية كحدث مفصلي في توقيت الغيب، تنبعث كوميض من السماء لا كحلم عابر، بل كمشروع إنقاذ أمة.

الحلم ليس رؤيا شخصية بل إنذارًا وجوديًا، تختلط فيه السُّنبلات والبقرات كرموز لفصول التاريخ ومواسم المصير.

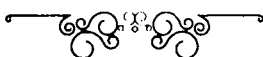
العجز عن التأويل يصبح فضيحة معرفية للملأ، فيما تتوهج ذاكرة الساقى لتستدعي من النسيان مَنْ له مفاتيح الغيب: يوسف، الذي يُسْتَنْهَض من قاع السجن إلى قمة التدبير).





﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾

الوعي ينبثق في زلزلة التأويل



لحظة النداء، والعبور إلى الاصطفاء

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا﴾ (١٦)

تلك لحظة لا تشبه الأوقات.

لحظة اكتمل فيها يُوسُفُ علوًّا، فتهيأت له الأقدار!

أيُّها الصِّدِّيقُ، وأصلُّها من الصِّدِّيقِ، وهي صيغة مبالغة، وتدل على ملازمة الصِّدِّيقِ في كل الأحوال وعلى الثبوت واللزم والاستمرار، ولقد صدق الله يوسف في ثباته، ويقينه وكان باطنه كظاهره.

وبالنداء له بدأ التكريم المهيب، تكريم في منطق الابتلاء يواسي القلوب الحافية من أسباب الأمل!

كلمة لا يبلغها المجازُ، وهي الحقيقة وحدها:
يوسفُ، أيُّها الصِّدِّيقُ.

ولقد كانت مصرُ على قَدَرِ الانتظارِ لمُعْجَزةٍ تُغَيِّرُ قَادِمَها.

وكان يُوسُفُ هو قَدَرُ التغييرِ.

يقترُبُ إليه السَّاقِي.

ويفتحُ السَّجَانَ أَقْفَالًا التَّهْمَها الصَّدَأُ، وشَطَفَ الانتظارِ!

يبدو الحُزْنَ في السَّجَنِ، غفِيرًا، حيثُ يَخْطُو السَّاقِي بحذرٍ إلى مكانٍ

يَنْطَفِئُ فيه القلبُ آلافَ المَرَّاتِ.

وينسابُ حُزْنٌ عتيقٌ، على مَنْ تركوه مأخوذًا بما لم يفعل!

{يُوسُفُ أَيُّهَا الصَّدِيقُ}.

تري، كم خريفٍ مرَّ على هذا الوجه؟

وكيف تشيخ الأعمار قبل أوانها؟!

{أيها الصَّدِيقُ}.

يرتطمُ صوته بذكرياتٍ قديمة، وتجذبه الكلمةُ إلى ذكرياتِ السَّجَنِ، ويسيلُ

الحنين في قلبِ يوسف!

كان السَّاقِي يخيْطُ بالكلمةِ، الكثير من مَسافات الغياب!

{أُفْتِنَا}، إذ لا يملك أن يرى ما بعد حجابِ (الآن)، إلا المصلحين الراسخين

في العلم والحكمة!

﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ﴾ ﴿٥٦﴾.

يعيدُ الساقِي بدقة ترتيل الرؤيا، ويغرقُ في غُموضها.

لكن المعنى يضيءُ ليوسف، ويبلغ في التَّأويلِ قَمَّةَ الوعي!

(يعيد الساقِي تلاوة تفاصيل الرؤيا بكلمات الملك نفسها، كمن يسلم

الأمانة كما تلقاها، إذ يشعر بعجزه أمام رمزية المشهد وتداخل معانيه.

الرؤيا تتجلى له لغزًا، وتتجلى ليوسف حكمة كاملة.

وفي هذا التفاوت يتجلى الفرق بين النبوة والملاء، بين الاصطفاء والعمى.

ها هو يوسف يقف على قمة التأويل، تلك القمة التي صعد إليها عبر سلالم الألم، والعزلة، والصبر الطويل، فبينما يراها نورًا صريحا، يراها غيره ظلمة متشابكة).

مفارقة السَّبْعِ!

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ﴾ ١٧.

قال، يبدأ موروث الفهم الذي صنعتها الرحلة يفيض على لسان يوسف ويكشف لهم أن العقدة في كلمة واحدة: «سَبْع». وكان فكُّ الشُّفرة، وحلُّ العقدة، كامناً -أيضاً- في الكلمة ذاتها! لكن بين «السَّبعين» وشائج نَصِيَّة، تنبثق من ألية المفارقة النابعة من التكرار.

وهو ليس تكراراً عبثياً، بل هو تَقَابُلٌ دلالي، يَجْمَعُ بين جفافٍ وقَحْطٍ في الأولى، وخصبٍ وخيرٍ في الثانية.

هنا سبع، الرقم الذي يحمل في طياته تناقضاً دلالياً جلياً، إذ يجمع بين قطبي الخير والشر.

وهكذا يلتقي النقيضان:

الخيرُ والشرُّ.

الخصبُ والجفافُ.

الفقرُ والغنى.

وفي هذا التَّقَابِلِ، يَحْدُثُ الاكتمالُ!

وذاث يوم كان شر العصبية هو الخير ليوسف ونقص امرأة العزيز سلم

الاكتمال ليوسف!

تَتَجَلَّى الرُّؤْيَى، وَيَشْتَدُّ تَمَاسُكُ النَّصْرِ، وفي التَّقَاءِ النَّقِيزِينَ فِي رَحْلَةِ التَّأْوِيلِ، حَيْثُ رَمْزِيَّةُ الصَّرَاحِ بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ، الْاِسْتِقْرَارِ وَالْاِضْطِرَابِ، الْوَعْدِ وَالْاِبْتِلَاءِ.

وَحْتَمِيَّةُ الْمَوَاجَهَةِ بَيْنَ مُوسِمِينَ مُتَقَابِلِينَ، وَيَبْرُزُ التَّحْذِيرُ مِنَ الْاِسْتِهْلَاكِ بِلَا حِكْمَةٍ، فَالْسُنْبُلَاتُ الْخَضِرَاءُ رَغْمُ إِغْدَاقِهَا قَدْ تُنْذِرُ بِنَهَايَةِ قَاسِيَةٍ.

{ قَالَ تَزْرَعُونَ }.

بِالْفِعْلِ الْمُضَارِعِ الَّذِي يَتَوَهَّجُ «الآن»، وَبِابْصِيرَةٍ تَسْتَتِمِرُ الرِّخَاءَ لَزَمَنِ الْجَفَافِ.

وَبِ«وَإِوَاكِ الْجَمَاعَةِ» كُلِّهَا، فَهَذَا سُلُوكُ أُمَّةٍ، تُرِيدُ أَنْ تَحْمِيَ مُسْتَقْبَلَهَا! وَهَنَا..

يَعْدُ يَوْسُفُ الْمَوَاقِدَ لَزَمَهِرِ الشِّتَاءِ، وَيُوقِفُ صَوْتَ الدَّمُوعِ مُبَكَّرًا!

{ تَزْرَعُونَ }.

بِالْفِعْلِ الْمُضَارِعِ الْمُسْتَمِرِّ وَلَوْ كَانَتْ الْحَدَائِقُ مَلَأَى بِأَسْرَابِ الطَّيُورِ. لِمَاذَا؟! لِأَنَّ الَّذِينَ يَسْتَهْلِكُونَ دُونَ حِكْمَةِ الْإِنْفَاقِ، عَدُوٌّ مَلِيٌّ بِالْأَرْغَفَةِ الْيَابِسَةِ!

وَلَقَدْ كَانَتْ الرُّؤْيَا تَكْشِفُ مَا لَيْسَ يَنْكَشِفُ.

لِذَا..

انْظُرْ إِلَى التَّحْذِيرِ الْقُرْآنِيِّ، كَيْفَ تَصْطَفُ سَنُونَ الْجُوعِ بِجَانِبِ سَنِينَ الشُّبْعِ الْمَلَأَى! { وَسَبَّحِ سُنْبُلَاتِ خُضْرٍ وَأُخْرَ يَابِسَاتٍ }.

إِذْ هَكَذَا يَوْرِقُ الْخَرَابُ، رَغْمَ السَّنَابِلِ الْمَلَأَى.

وَالنِّهَايَاتُ بِالْبِدَايَاتِ تُعْرَفُ!

مَخَازِنُ الرُّؤْيَا، وَصِيَّةُ التَّدْبِيرِ

يَتَابَعُ الصَّدِيقُ وَيَتَدَفَّقُ بِالْحَلِّ، فَيَقُولُ:

{تزرعون سنين دأباً}.

حيث الفعل المضارع مع واو الجماعة، والوقت المُكْتَظُّ بالجهد الهادف، هو فعلُ أُمَّةٍ تنقشُ حُضورها قَدْرًا.

وهذه ليست فقط خُطَّةَ زِراعةٍ، بل مدرسةٌ فِكْرٍ أن خُطَّةَ الصُّمود هي:

إِنَّ الوقتَ والجُهدَ هما معادلةُ الإنجازِ!

إذن، الصبرُ هو خُطَّةُ الصُّمودِ.

والمُنسَجِبُونَ هُمُ العَاجِزُونَ عَنِ سُنَّةِ الكونِ!

وفي هذا التَأْوِيلُ..

تَخْلُقُ الكلماتُ خَزَائِنَ، تُوضَعُ فيها وديعةُ الأجيالِ، فلا يَغْدُو مُستقبْلُهم دَمْعَةً.

في زمنِ الآهاتِ القادمةِ!

وفي الرؤيا سُنَنُ الجَفَافِ والتَّدْبِيرِ: ويوسفُ يُصْغِي بوعي لَصَمَتِ الرُّوَالِ.

لذا قال {تَزْرَعُونَ}.

وبذا تَنْتَهِي احتمالاتُ المجاعةِ، فنحنُ مَنْ نَمْشِي إلى أَقْدَارِنَا!

يفتح يوسف لهم أفق التخطيط والعمل المستمر رغم الامتلاء الحالي.

وهنا، يُقَرُّ القرآنُ أَنَّ المسافةَ بين الجُوعِ والسَّبعِ.

قَرَارُ خَزِينَةٍ عليها: {حَفِيزُ أَمِينِ}، يتجاوز قراءة الرؤيا إلى بناء خطة نجاة طويلة الأمد.

وما سِوَى ذلك..

شعوبٌ محكومةٌ بالعذابِ، يَغْيَبُونَ بِصَمَتِ، وبألوانٍ باهتةٍ.

فللبقاء سُنَنُ الإعدادِ.

وللجِرارِ الفارغةِ، حَسْرَةُ التَمَنِّي!
 كان السَّاقِي يَرْتَجِفُ، وهو يَتَلَوُّ الرُّؤْيَا: {يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ}.
 وكان يوسفُ ساكناً.
 سَبْعُ عِجَافٍ؟ لا بأس.
 فتلك سَنَةُ اللهِ في حَرَكَةِ الحَيَاةِ، ولكُنَّا -نحن- نُدَافِعُ الأقدارَ بالأقدارِ!
 يُصْغِي يُوْسُفُ إلى صَمَتِ المَشْهَدِ.
 فيَسْمَعُ أنينَ الزَّوالِ.
 كُلُّ يَوْمٍ يَحْمِلُ مِنَ الوَجَعِ ما يَكْفِي لِعُمُرٍ كامِلٍ.
 تُطَوِي السَّنَابِلُ اليابِسَةُ على قَحِطٍ لا يرحمُ، والعيونُ تَنْتَظِرُ أرْغَفَةَ الأَمْسِ
 بشغفٍ المنفَى!
 لن يَبْقَى إلَّا فَتاتُ الحِكْمَةِ التي تحصَّنت في مخازنِ الأيامِ.
 وفي غمرةِ الخواءِ..
 تبدو خُطَّةُ يوسفَ، كمخطوطةٍ نادرةٍ، تلمعُ في ظِلِّ الجفافِ،
 وتَهْدِي الطريقَ لِمَا بَعْدَ القَحِطِ!
 {سَبْعُ عِجَافٍ}، ستكون فيها الأشجارُ العاريةُ، والغُيومُ العقيمةُ،
 والسَّلَالُ الفارغةُ!
 لذا..
 إياك أن تَأْذَنَ لفأْسِك أن تَغْتال كلَّ أشجارِ الغابةِ.
 إياك وحَرِيقِ المواردِ!
 وإنَّها لسننُ الله التي لا تحابي أحداً، أن الكثير في إنفاقه، قليل في قادمِ
 أيامه.

ولقد كانت الرؤيا تُنبئُ عن أواخر الطريقِ.

تنبئُ عن الهَجِيرِ، إذ يفجأ المطايا الضامئة.



وكان يوسف يَنْصت لرسائل الله جيداً!

ويرى لحظة الانهيار الاقتصادي والاجتماعي إن لم تسبقها يقظة رشيدة.

يُتِمُّ يوسف خَطَّتَه، فيقول:

﴿فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

فلا يغدو المَشْهد القادم خالِياً من البِبادر!

وهذا (مما آتاه الله جل علاه ليوسف عليه السلام من علم في كل نواحي الحياة، من اقتصاد ومقومات التخزين، وغير ذلك من عطاءات الله، فقد أثبت العلم الحديث أن القمح إذا خُزِّن في سنابله فتلك حماية ووقاية له من (السوس).

وهنا تتجلى عبقرية يوسف:

الاقتصادُ في الاستهلاكِ جزءٌ من فقه النِّجاة!

وهذا، فقهٌ اقتصاديٌّ تُحفظ به الدول، (فقه المخزون الاحتياطي).
إذ كم أمة سَقَطت مِن أعلى النّص.

كم أمة كتبت سَطرها الأخير، وماتت الأنهار فيها عَطْشًا، وصارت غُبار الغبار!

وفي نَسَقِ الرؤية يتجلى قانون البقاء، ويوسف بما امتلك من وعي في قصر العزيز وصلاَح في حُضن يعقوب يدير المشهد بالعلم والحكمة.

هنا يتجلى درسُ الحِفاظِ على المُكتَسبات، درسُ إدارة الوفرة قبل إدارة الحاجة.

مع (فقه المخزون الاحتياطي).

لأنَّ نَزف المَزيد مآله عيش القليل.

ولقد كان يوسف يُدرك أنَّ فراغ السنابل، يهدر عُمر بقائنا.

ثم يعلمهم اقتصاد النجاة: في حكمة الزرع وصمت السنبلة.

{فَذَرُوهُ فِي سِنْبَلِهِ}.

أمرٌ وليس ترجيًا، لأنَّ بعض الهفوات الاقتصادية عويلٌ طويل!

وبين الحضور والغياب كان يوسف يرى حزنًا ما سيولد!

ذروه في سنبله!

والمُدْهَش، أنَّ هذا الأمر ومصر في وَفَرْتِهَا.

لكن يوسف كان يلتقطُ رسالة الرؤيا، ويستشرف المُستقبل!

يوسفُ يقرأُ من الرؤيا نبوءة الحزن القادم، يرى وجوهاً تظماً حين يُغتال الحذر، فيجعل من السنابل أوعيةً مؤجَّلةً للفرح، تحفظُ الحبة في غلافها حتى لا تعبث بها يد الرطوبة ولا تهلكها آفات الخزائن.

{إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ}.

وليس مما تهدرون.

حتى لا نصبح حكاية {بئْرُ معطلَّةٌ وقَصْرٌ مَشِيدٌ}!

يخرجهم من شهوة الاستهلاك إلى حكمة الادخار.

يفهم يوسف معنى {يَأْكُلُهُنَّ سَنَجٌ عَجَافٌ}، ويقرأ من الغيب أعلى

رسائله.

ويتعلَّم كيف يخلقُ روح الحَيَاة من أسباب موتها!

لذا قال:

{تَزْرَعُونَ}.

حيث تعبُر الأمة من الجُرح إلى الشفاء، وتخزّن من حكمتها خُبْرًا

لمجاعتها!

وبين الجوع والوفرة، قرار!

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا

مِمَّا تُحْصِنُونَ ﴿١٨﴾﴾.



يتجرع الوعي ملح الحقيقة.

وَيَمْسِكُ يوسُفَ حَيْطَ النُّجَاةِ، ويلبسُ الحقائق أثوابها!

ويكشف عن ميزان دقيق لمدى حكمة الأمة في صنْعِ قدرها.

{يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ}.

ثُمَّ صوت مُرِيعٍ في التعبير، حتى كأنك تسمع أُمَّةً تُطحن بين

أنياب الجُوع!

{يَأْكُلْنَ}.

حيث تشتد أعوام الرمادة، وتموج الحقول بِسعال المتعبين.

تتكدّس خيبات الأمل كرمادٍ يغطي أرض مصر.

تلتئم طوابير الرغيف المفقود، وتتقن الأمة صلاة الخوف، وتأكلها الهزيمة.

ولا ينزع حينها عن المواسم سوادها، {إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ}!

القليل، ذلك الجزء الذي يُحصَن بالوعي، ويُدار بالصبر.

هل هذا معنى ترشيد الاستهلاك وترشيد الإنفاق؟

إنَّ الموارد (مائدة)، يأكل منها أولنا ويبقى منها لآخرنا، وهي عيدنا.

والنَّاهبون لها، يُمهّدون لموتنا!

{إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ}.

كانت فتات أمل يتشبث به الشعب، بقايا حصن يحمي من الانهيار الكامل.

وَسراب الوفرة يبدو هنا كخدعة قاتلة، يظنُّها الناس حياةً، لكنها تمهّد

ببطء إلى الجفاف.

ما أوضح الوضوح في الصُّورة!

وما أقسى وهم الأمان والقَبْض على السراب!

سراب الوفرة، والمَجاعة تقترب!

والدول دون يوسفها مآلها النفاذ والاندثار!

(يتلقى يوسف نداء التكريم الإلهي: {يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ}، ويبدأ العبور إلى مقام الاصطفاء.

ليس التأويل هنا مجرد قراءة حلم، بل تأسيساً لوعي أمة تقف على شفير الجفاف.

ويوسف يتعامل مع الرؤيا كخارطة خلاص، ويضع دستوراً للنجاة: زرع، تخزين، وتدبير واعٍ.

الفصل يعمق رمزية الرقم سبعة، ويكشف عن صراع الأزمنة بين الخصوبة والقحط، بين الرخاء والغفلة. يوسف لا يُفكِّك الرؤيا فحسب، بل يُنقذ مستقبل شعبٍ بأكمله، متمثلاً فقهاً اقتصادياً نابعاً من النبوة، يُحوّل المحنة إلى مشروع بقاء).





لا يَقْدِر على الأمل إلا من مهد له السبل!

ولا يقدر على صناعة البشرى إلا من امتلك قوانين السنن



مِسْك الخِتام في منتهى التأويل

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ ١٩ .
هنا..

قال يوسف ما لم تَقْلُهُ الأحلام!

قرأ الرؤيا، وَمَسَحَ عنها دَمْعَهَا.

وَبَلَغَ شَاهِقَةَ البَصِيرَةِ، وَأَسَدَلَ على السَّبْعِ العِجَافِ سِتَارَ السُّنَنِ الإِلَهِيَّةِ.

سَنَابِلُ نَهْبِيَّةٍ تَتَوَجَّعُ المدى.

وَحِينَ تَصْحُو الحُقُولُ، سَيَنْهَمُرُ يَوْسُفُهَا في أَبَدِيَّةِ النِّجَاةِ!

وإنْ كَانَتْ كُلُّ الدُّرُوبِ جَرْدَاءَ، فَأَيْنَ تُنْبِتُ الزُّنَابِقُ؟!

تُرى..

كَيْفَ يَتَهَجَّدُ الْأَنْبِيَاءُ فِي سَكِينَةِ الْيَقِينِ؟
 وَكَيْفَ يَتَّخِذُونَ الْأَمَلَ خَارِطَةً الطَّرِيقِ؟
 وَكَيْفَ تَذَرِفُ قُلُوبُهُمُ الْفَرْحَ فِي غَمْرَةِ الْأَسَى؟
 وَكَيْفَ يَعْبُرُونَ تَسَاقُطَ الْخَرِيفِ؟!

رُبَمَا نَحْنُ نَحْتَاجُ إِلَى يَقِينِ الْأَنْبِيَاءِ، كَيْ نَرَى مَا بَعْدَ الْأَمْلِ إِذَا بَلَغَ الْأَمُّ
 الذُّرَى!

مكتبة

t.me/soramnqraa

من الرماد إلى الندى.

{عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ}.

يَحْمِلُ يَوْسُفُ الرُّؤْيَا إِلَى قَدَرِ التَّأْوِيلِ، وَيَرَى مَا بَعْدَ حِجَابِ السَّيِّعِ
 الْعِجَافِ.

يُسَافِرُ بَعِيدًا، يُسَافِرُ إِلَى عَالِي الْفَهْمِ عَنِ اللَّهِ!

لكن..

كَيْفَ عَبَّرَ يَوْسُفُ سَنِينَ قَائِظَةِ مَغْمُوسَةٍ فِي الشَّمْسِ؟

كَيْفَ عَبَّرَ الشُّحْبَ الْخَالِيَةَ مِنَ الْغَيْثِ، وَخَشْرَجَةَ الْعَطَشِ؟

وَرَأَى الْفَرَاغَ الْبَعِيدَ مَغْمُورًا بِالْأَمَلِ؟

وَسَمِعَ صَوْتَ الْمَطَرِ عَلَى الْمَطَرِ، وَأَضَاءَ مِنَ الرُّؤْيَا مَا يَكْشِفُ مِنَ الطَّرِيقِ
 كُلَّهُ!

ربما..

لَأَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْأَمَلِ إِلَّا مَنْ مَهَّدَ لَهُ السَّبِيلَ!

وَلَا يَقْدِرُ عَلَى صِنَاعَةِ الْبَشَرِيِّ إِلَّا مَنْ امْتَلَكَ قَوَانِينَ السَّنَنِ، وَبَيْنَ
 صِنَاعَةِ وَهْمِ الْأَمَلِ وَحَقِيقَةِ الْمَتَوَقَّعِ، الْوَعْيَ بِالْوَاقِعِ وَالْمَتَوَقَّعِ.

لِذَا لَا يَقْدِرُ عَلَى عِبُورِ الرَّمُوزِ إِلَى حَقَائِقِهَا، إِلَّا الْمُبْصِرُونَ!

ولهذا قال القرآن:

{إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ} بِ {إِنْ}، التي تحمل التَّشْكِيكَ وليسَ اليَقِينَ
في شَأْنِ الْمَلَأِ!

{ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ}.

هنا، يَقْتَضِ يَوْسُفَ الْمَعْنَى مِنَ السُّنَةِ الْإِلَهِيَّةِ:

بِأَنَّ اللَّهَ يَصْطَفِي مِنَ الْجِرَاحِ شِفَاءَهَا!

تَرَى..

كَيْفَ أَضَاءَ الْغَيْبَ الْبَعِيدَ لِيَوْسُفَ، وَانْطَفَأَ الْخَوْفَ حَتَّى قَالَ:

{عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ}!

أَلَا تَرَى مَا بَيْنَ غَوْثَيْنِ، كَانَتْ سَبْعُ عَجَافٍ، سَبَقَتْهَا {سَبْعُ خُضُرٍ}، وَخَتَمَهَا
{عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ}!

كَانَتْ السَّنَابِلُ تَحْتَضِرُ.

لَكِنَّ يَوْسُفَ يُبَشِّرُ بِتَسَاقُطِ النَّدى.

كَيْفَ؟ هَلْ كَانَتْ الْمَسَافَةُ إِلَى الْغَيْثِ سَبْعًا عَجَافًا فَقَطْ لِمَنْ يُتَقَنُّونَ هَزًّا
الْحَيَاةِ مِنْ جُذُوعِ الْمَوْتِ؟!

الْحَقِيقَةُ..

نَحْنُ نَنْجُو، إِذَا فَهَمْنَا سَنَنَ التَّعَامُلِ مَعَ الْوَاقِعِ.

وَلَكِنَّا نَفُوزُ، يَوْمَ نَرْتَحِلُ إِلَى الْأَمَلِ بِالْعَمَلِ.

وَالْأَمَلُ أَكْبَرُ مِنَ الْحُلْمِ!

يَوْسُفَ وَالسَّنَنَ: وَعَيِ الْإِعْدَادَ وَبِشَارَةَ الْغَيْثِ

{ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ}.

يَعْلَنُهَا يَوْسُفُ، مِثْلَ مِثْذَنَةٍ تَرْتَّبُ مَوْعِدَ الْأَفْرَاحِ.

بِأَنَّ لِلْأَوْجَاعِ مِيقَاتًا.

لَكِنِ الْمُخْتَتَمَ، يَقُودُ إِلَى الْمُنْطَلَقِ.

والعجاف طارئُ الحياة، وليس أصلها.
وحاشا لمن يَبْذرون في وَفَرْتهم، أن تأكلهم مِحْنَتهم!
هكذا إذن كان يَعرِج يوسف بوعيه، إلى غيبٍ تكشفه السُّنن.
يفهم السنن ويغرسها في خزائن الأمة.
كان يوسف يُسافر بالناس إلى الطُّرقات، وهي تغصُّ بحريق الجوع،
وتغص بحُشود الهلع، وهي تتكالب على السنابل الفارغة!
يسافر إلى المَلاح الخائفة، ثم لا يقف على الحياض، بل يمدُّ يده إلى
السُّنن، ويملأ بها الخَزائن بوعي الإعداد!
كان يقول لهم، للوفرة رائحةُ الإغراء.
ولا يشمُّ ريح النُّقص إلا {حفيظٌ عليم}!
كان يوسف هنا، وكانت السُّنَّة الكونية هناك.
وكان يوسف يعبُر إليها عبر {فَذَرُوهُ فِي سُنْبَلِهِ}!
إذ إنَّ الأُمَّة تظلُّ ترحلُ من أرقٍ إلى قلق، إذا غفلت عن صوتِ السُّنن
في الكون.

عن سنَّة المُدافعة للكوارث.
عن سنَّة الإعداد، {مَمَّا يَحْصِنُونَ}.
عن سنَّة النَّسَق، أن العُسر دوماً بين يُسرَيْن!
دعونا ننتبه أنه في البدء، كانت رؤيا.
وقبلَ الخاتمة، جاءت رؤيا.
وبينهما، كانت مَراحل الإعداد للتمكين!
ألا تَلَحْظ أن تلك سنَّة بهيَّة رآها يوسف في عُمره، وتراها الأُمَّة في عمرها.
ومن يغفل عن فقه الابتلاء، يغمره الحزن، وينس أنَّهُ تهيئةٌ لعام {فيه
يُعَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ}!

كم هو الفارق إذن؟

بين من يدفنه وهم العُقم، وبين من يخطط يأسَه عبر تفاصيل الواقع!
ولقد كان يوسف يوقظ من أول الرؤيا آخرها، ويقىم الأمة من مرقد الأمان.

وهذا هو الوعي الواعي!

كان يوسف يدرك أن الأمل ليس حَسرة الخيال.

بل هو صبُّ النهار في القناديل، إذا رأيت العيون يغشاها العمى.

هو تحرير المُستقبل من زمن (الرمادة)!

وفي صفرة الغابات، يوقد المصلحون حطبًا {مما يحصنون}.

وينتهي بهم صقيع المجاعة!

إن صناعة الأمل، هي أن تلم أكفان الجداد، ولا تجعل تاريخ الأمة
ليلاً!

{عَامٌ فِيهِ يُعَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ}.

حتى ترى المطر شلاًّلاً من الغيث، يرتدُّ غيمًا مُترفًا.

يتدفق النّيل والمطر، حتى ترتوي الأرض والكروم إلى حد عصرها!

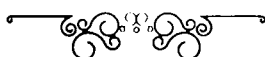
أدرك يوسف «فقه الابتلاء» ومن فهمه العميق أدرك أن الأزمات ليست
نهاية، بل هي مرحلة في مسار سنني مكتمل: وبهذا الوعي، يضرب يوسف
مثلاً في «الوعي الواعي»، الذي لا يستكين لليأس ولا يستسلم للخيال، بل
يصنع الأمل من رحم الواقع القاسي.





﴿ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾

**سجين تستشرف الدولة كلها رؤيته،
لكنه يقرر شروط مجيئه!**



**نداء السُّلطة، خطوة نحو العرش
{انثوني به}**

ينصت الملك للساقي ويشد يده على الصواع، يكاد يختطف الوقت وهو
ينادي، انثوني به، وحراس الفناء وأضغاث الأحلام صامتون، يغمغم الحرس
بكلام مبتور، يتراخضون فقد كان كل شيء مأهولاً بالدهشة.

يتمتمون، هل قال كل شيء عن كل شيء!

كانت الأحلام في غيابة الجهل وكان يوسف معناها، يحرس رائحة الحلم،
ويوقف لحظة الفوضى، ومسيرة المجهول، وفي صمت أسئلة معلقة كان هو
الجواب!

**انثوني به! فيوسف هو الوعي بالسُّنن، والقدرة على صناعة الأمل
عبر خُطّة العمل.**

هو الوعيُّ الأعلى، الذي لا يرتقي إليه كلُّ الملأ!
ولقد أدرك الملك أنَّ هذا التأويلَ ليس مجردَ تفسيرٍ للأحلام، بل هو مشروع ديمةٍ ونماء.
رؤيةً، واستشرافاً، وقُدرةً على فهمِ الواقعِ، وصناعةِ المُستقبلِ،
وإجابةِ الأسئلةِ المذعورة!

وفرق بين من يحلمون، ومن يقفون على تخوم الحلم ويرون خارطة الآتي.
وما يقدِرُ على ذلك إلا مَنْ أُوتيَ علماً وحكمةً!
قدم يوسف خُطةً كاملة، لصناعةِ مستقبلٍ اقتصاديٍّ وافرٍ.
بعقل يعي دورة الزمن، ويقرأ توازن الخصب والجفاف، ويؤسس لمعادلة
النجاة وسط أمواج الهلاك.
فهلْ كان السَّجينُ رقماً عادياً؟!

سجين يقرأ سنن الكون، وينحت من وعورة الواقع لوحة محال لا يبلغها
الخيال!

{اِثْنُونِي بِهِ!} سَيَتَكَرَّرُ هَذَا الطَّلَبُ فِي السُّورَةِ مَرَّتَيْنِ.
في المرَّةِ الأولى..

كان عُمُقُ هائلٌ يَفْصِلُ بين يُوْسُفَ، وبينَ بَوَايَةِ الخُرُوجِ!
وفي الثانية، سيكون بدءُ التَّمَكِينِ الأخير!

﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي
قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ ﴿٥٠﴾

وبين اِثْنُونِي بِهِ، واخرج عليهن، آن أوان خريته فقال، ارجع، وفقط الآن
كل شيء يشبهه!

سجين تستشرف الدولة كلها رؤيته، لكنه يقرر شروط مجيئه!



لَقَدْ كَانَ يُوسُفُ دَلِيلًا، عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ يَمْلِكُ اللَّحْظَةَ الرَّاهِنَةَ إِذَا امْتَلَكَ النِّجَاةَ مِنْ فَوْضَى الْقَيُودِ.

وَبَعْدَهَا يَصْبِحُ الْمُسْتَحِيلُ مُمْكِنًا!

وَرِغْمَ عَاصِفَةِ الْأَحْوَالِ الْمُرِيعَةِ!

فَإِنَّ بَعْضَ الْأَرْوَاحِ، تَخْتَارُ أَقْدَارَهَا!

وَنَمَطُ الْاِسْتِجَايَةِ مَنْ يُحَدِّدُ مَنْ أَنْتَ، عَلَى الْحَقِيقَةِ!

لَرُبَّمَا هُنَاكَ مَنْ يَمْلِكُ تَوْقِيتَ خُرُوجِكَ، لَكِنَّهُ لَا يَمْلِكُ مَاذَا يُكْتَبُ فِي وَقْتِكَ!

لِذَا قَالَ يُوسُفُ:

{ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ}.

أَمَّا كَانَ يَنْتَظِرُ هَذِهِ اللَّحْظَةَ؟

أَمْ أَنَّ الْمَعَانَاةَ، صَنَعَتْ نَبْضَةَ مَا ضَمَهَا غَيْرَ قَلْبِهِ؟!

يَا اللَّه!

كَيْفَ تُصْبِحُ الْمَعَانَاةُ عَتَبَةَ التَّحَرُّرِ كُلِّ مَرَّةٍ؟!

كَانَ يُوسُفُ يَحْمِلُ ذَاتَهُ، وَلَمْ يَسْمَحْ لِلْأَلَمِ أَنْ يَحْمِلَهُ، وَلَا لِلْخَوْفِ أَنْ يَبْلُغَ

مِقَاسَهُ!

وَبَعْضُ الْأَلَمِ يَمْنَحُكَ مَسْتَوَى الْعَظْمَةِ الَّتِي لَا تَبْلُغُهَا فِي الرَّخَاءِ!

كَانَ السَّجْنُ فُرْصَةً يُوسُفُ الْمُتَفَرِّدَةَ.

وَكَانَتْ عَظَمَتُهُ تَكْمُنُ فِي طَرِيقَةِ تَعَامُلِهِ مَعَ مُعَانَاتِهِ!

هُنَا عَبَقَرِيَّةُ التَّعَامُلِ مَعَ الْمُحْنَةِ، حِينَ لَا تَجْعَلُ الْإِنْسَانَ يَنْدُبُ الْمُحْنَةَ، بَلْ

يَنْشَغِلُ بِبِنَاءِ ذَاتِهِ دَاخِلَهَا.

وَبِهَذَا صَارَ الْأَلَمُ لَهُ وَقُودًا، وَأَضْحَى السَّجْنُ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ فُضَاءً إِعْدَادٍ لَا

جَدْرَانِ سَجْنِ.

{فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النُّسُوءِ الْآتِي قَطُّعَنَ أَيْدِيهِنَّ}.

أَيُّ نِسْوَةٍ؟

لقد بدا ضجيجُهنَّ بعيدًا، ومتناهيًا كأنَّه انطوى.

لكنَّ يوسُفَ لا يتخلَّى عن وَجَعِ ضَحَى لَاجِلِهِ طويلاً!

{ ما بالِ النِّسْوَةِ؟ }

سؤال كأنَّه نَقْشٌ غامِضٌ على جدارٍ قديمٍ، يَثُورُ مِنَ الرُّكَّامِ.

كأنَّه صَوْتُ الْحَقِيقَةِ حِينَ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَزْمَنَةُ!

سؤال العدالة المؤجلة لتهمة ظلت عالقة في ذاكرة المدينة.

وحين ينفَتَحُ المعنى.

سَتَتَساقُطُ دَهْشَةُ الصَّمْتِ الطويل!

كُرِّرَ اللَّفْظُ بِالاسْمِ الصَّرِيحِ، ثُمَّ بِالضَّمِيرِ، لِيَعُودَ التَّوَازُنُ إِلَى الْقِصَّةِ.

كَأَنَّ الْحَقِيقَةَ تَسْتَعِيدُ مَلَامِحَهَا!

لقد سُجِنَ يوسُفُ ظُلْمًا، ورفضَ الخُرُوجَ.

إِلَّا أَنْ تَشْهَدَ النِّسْوَةُ بِكَيْدِهِنَّ، وَتَرْتَفِعَ الْحَقِيقَةُ مِنْ تَحْتِ الْغُبَارِ!

فالتَّكَرُّارُ هَا هُنَا ليس زِينَةً أَسْلُوبٍ، بَلْ هُوَ مِيزَانٌ إِنْصَافٍ يَرْبِطُ أَوَّلَ الْجُرْحِ

بِآخِرِ التَّبَرُّثِ.

وَيَجْعَلُ الْخُرُوجَ فِعْلَ عَدْلٍ، لَا مُجَرَّدَ نَجَاةٍ!

وَحِينَهَا يَسْتَرُدُّ الْجُرْحُ صَوْتَهُ!

هَذَا الْمَشْهَدُ يُضِيءُ وَاحِدَةً مِنْ أَكْثَرِ لَحْظَاتِ يوسُفَ صِلَابَةً وَإِنْصَافًا لِلذَّاتِ.

فليس الخروج هو النصر، بَلْ اسْتِعَادَةُ الْحَقِيقَةِ مِنْ تَحْتِ أَنْقَاضِ الظُّلَمِ

وَالصَّمْتِ.

لِذَا قَالَ: { اذْجِعْ إِلَيَّ رَبِّكَ }.

فقد كانت هذه آخر المحنة، وأول بشارة اليقين لمن احتمل جمر العِفَّةِ.

وخلع من نفسه، نفسه.

وتدرج في المِحنة، مقامًا يتلوه مقام.

مَنْ مَدَّ لَاءَهُ مَدًّا، حَتَّىٰ بَلَغَ النِّهَايَاتِ وَصَلَّىٰ بِالثَّابِتِينَ إِمَامًا!

لقد تألم يوسف لأجل قراره.

فكَانَ بِذَلِكَ خَارِجَ النُّطَاقِ البشري.

أَوْ رُبَّمَا كَانَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ الدَّلِيلُ عَلَى الْكَمَالِ البشري!

﴿قَالَ مَا خَطْبُكَ إِنَّ رَاوَدْتَنِّي يُوسُفُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ ٥١.

كلماتٌ، تحلُّ وثاقَ حكايةٍ ملأى بدسائسٍ خفيةٍ.

ونونُ النسوةِ فيها مُتَخِمَةٌ بالهوى حَتَّى الْمُنْتَهَى!

نونٌ، تملأتُ كُلُّها على يوسفٍ كُلِّه.

نونٌ، تجرَّعَ يوسفُ جَمْرَ حريقِها، لكنَّهُ لَمْ يَحْرِقْ، وعلى كثرتها،

كانت في الخِتام هي الأقل!

{مَا خَطْبُكَ}.

هذه النون، تضجُ بصدى الخطيئة، تبدو كرمز بلاغي ثَقِيل، إذ تُجسد

جماعة الفتنة في أقصى صورها.

لكنَّها في سِرِّها، تتوضأ بِطُهرِ يوسف.

إِذْ مَنْ يَثْبِتُ أَمَامَ هَذَا الْحَشْدِ مِنْ نُونِ الْفِتْنَةِ؟!

تزاحم النون، فيظلُّ بعيدًا مُنفردًا، وينكشف من باطن النون ظاهرها،

فَظُنَّ مَا تَشَاءُ فِيمَنْ تَشَاءُ، فَقَدْ كَانَ السُّؤَالُ بَدَايَةَ انْتِهَاءٍ لِمَا أُسْدِلَ مِنْ خُمَائِلِ

الضباب!

كانت الحادثة، مثل طيفٍ تقتفيه الذكريات، وتأبى إلا أن تعيده ومعها

يمضي إلى زمانٍ، قد مضى!

محكمة الإنصاف لنون النسوة!

{مَا حَطْبُكُنَّ}، السؤال محكمة لفظية عن التكالب الأنثوي على رجلٍ واحدٍ
اختبرته الفتنة.

كل الفتنة!

لكن، مَنْ ذا يطيقُ أن يجيب عن غرائز، قد خَبَتْ؟
عن نزوة، كان ثمنها شباب يوسف في السُّجن؟ مَنْ ذا يطيقُ أن يجيب،
عن هوس العبث!
يا الله!

كم كان يوسف مُتعبًا إذ قال: ﴿أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسَأَلَهُ مَا بَالَ الْإِسْوَةِ
الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ ﴿٥٠﴾.

وكم كان مُثقلًا بتلك الحادثة!
{إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ}.

تلك نونٌ، هائجٌ فيها الزُّبد، نون واحدة كأنها قافلة إغواء مستعرة
أو ظوفان الفتنة!

ويا للمفارقة!
إِذْ تَشْهَدُ النُّونَ، أَنَّهُنَّ جَمِيعًا أَشْعَلْنَ الْفِتْنَةَ لِيُوسُفَ، وكلهن راودن
يوسف بطريقة ما!

يُحِيطُ شَوْكُ السُّؤَالِ بِعُنُقِ الْجَوَابِ، فتنغصُ النسوة بمرارها!
النُّونُ فِي {رَاوَدْتُنَّ}، مُشْبَعَةٌ بِوَسْوَسَةٍ إغواء عميق، إغواء، كان كُلُّمَا تَقَدَّمَ
من يوسف تأخرًا!

وعلى أبواب سرايهم..

ظَلَّتْ {وَعَلَقْتَ الْأَبْوَابَ}، تنتظرُ جواب {هَيْتَ لَكَ}.

وهيهات هيهات، ما خارت في يوسف عزائمها!

مَشْهُدٌ، تُطَوِّى اللُّغَةَ بَعْدَهُ، وَتَسْعَى الْعِفَّةَ عَلَىٰ أَعْتَابِهِ، وَمَا تَكَادُ تَبْلُغُهُ وَلَا تَصِلُ!

{إِذْ رَاودَتْهُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ}.

تَدَاعَتْ عَلَيْهِ الْفِتْنَةُ، وَبَسَطَتْ كَفَّ الْهَوَىٰ، وَكَادَتْ نَجْوَى الشُّهُوَةِ أَنْ تُقَارِبَهُ، فَأَلْفَتَهُ بَيْعَةً لِلَّهِ لَا تُنَالُ!

يَا لِيُوسُفَ، كَانَ نَائِيًا وَهُوَ قَرِيبٌ، يَا لِيُوسُفَ، لَا يَلُودُ إِلَّا بِـ {مَعَاذَ اللَّهِ} إِذَا اسْقَاطَتْ عَلَيْهِ نَوْنُ الْفِتْنَةِ كِسْفًا، يَوْمَهَا، كُنْ هُنَّ فِي يَبَاسِهِنَّ، وَكَانَ هُوَ فِي زُهْدٍ نَاسِكٍ!

وَفِي بِلَاغَةِ الْبِرَاءَةِ

﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ (٥١).

وَفِي كَهَوْلَةٍ مَا آلَ إِلَيْهِ صَبَا النِّسْوَةِ، تَنْطِقُ الشَّفَاهُ، إِنِّي رَوَيْتُ مَا رَأَيْتُ، وَرَأَيْتُ مَا رَوَيْتُ!

وَالْتَعْبِيرُ مَبِينٌ لِإِجْمَالِ النَّفْيِ وَنَفْيِ الْعِلْمِ، يَنْفِي كُلَّ شَكٍّ وَالتَّبَاسِ، عَمَّا جَرَى فِي وَلِيْمَةِ الشَّيْطَانِ!

وَالنَّفْيُ بِصِيغَةِ الْمَاضِي شَهَادَةٌ عَمَّا مَضَى!

تَنْطِقُ اللُّغَةُ، فَهَذَا أَوَانُ الْبَوَّاحِ، وَهَذَا أَوَانُ بَعْثِ الْحَقِيقَةِ!

{مِنْ سُوءٍ}، لِيَصِيرَ النَّفْيُ هُنَا نَفْيَيْنِ: نَفْيِ الْفِعْلِ وَنَفْيِ الشَّبْهِةِ مَعًا!

الْبِلَاغَةُ هُنَا، تَشْتَغِلُ نَفْيًا لِكُلِّ سُوءٍ.

حَيْثُ تَرْتَّلُ الْبَشَرِيَّةُ، أَنَّ يُوسُفَ كَانَ صَرَحًا كَشَفَتْ لَهُ الْفِتْنَةُ سَاقَهَا، فَمَا ابْتَلَّ وَلَا غَرِقَ!

(بِالْغُنِّ فِي نَفْيِ جَنْسِ السُّوءِ عَنْهُ بِالتَّنْكِيرِ وَجَرَحَ الْأَيْدِي فِي السَّرِّ، يَنْتَهِي الْآنَ فِي الْعَلْنِ شَهَادَةً طَاهِرَةً. وَالْعِبَارَةُ جَامِعَةٌ لِنَفْيِ مَرَاوِدَتِهِنَّ إِيَّاهُ، وَمَرَاوِدَتِهِ إِيَّاهُنَّ، لِأَنَّ الْحَالَتَيْنِ مِنْ أَحْوَالِ السُّوءِ.

ونفي علمهن ذلك كناية عن نفي دعوتهن إياه إلى السوء ونفي دعوته إياهن إليه لأن ذلك لو وقع لكان معلومًا عندهن).

يوسف..

مَنْ أَيُّ عَشْقٍ كَانَ نَبْضُكَ، كَانَ شَوْقُكَ، كَانَ قَلْبُكَ، حَتَّى تَسَامَيْتَ إِلَى هَذَا الْمَدَى؟!

وَمَنْ سَوَى اللَّهِ، أَعَاذَكَ مِنْ هَذَا الْوَهْجِ الْحَارِقِ!

{مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ}.

بهذه الصراحة حيث الوضوح الأخلاقي دون غموض للألوان.

هنا العفة والشهوة، والظلم والتسامي!

وهنا الذاكرة الحية، التي هي دليل تماسكنا وصدقنا!

يتململ الملك، ساهم، يكاد لا يثبت على عرشه، يمر معنى يوسف فيراه شاهقًا وكثيرًا.

من يكون! ومن شبه نسيانٍ عميق يخرج صوتها.

﴿قَالَتْ أَمْرَأْتُ الْعَزِيزُ أَلَنْ حَضَحَصَ الْحَقُّ﴾ (٥١).

ترتفع أستار قصة تسيلُ أسى وشجواً، ومن سكون هاوية قديمة، يطل وجه قديم.

عيناها في شبه انطباق، وكأنها تخشى قولاً مقيماً لا يُطاق.

وَقَالَتْ أَمْرَأَةُ الْعَزِيزِ، حَيْثُ بَقِيَتْ عَلَى سَطُورِ الْمَصْحَفِ نَكْرَةٌ بِلَا اسْمٍ فِي ضَبَابِ النِّسْيَانِ!

وبقي يوسف معرّفًا!

وذاك شؤم الخطيئة إذ تجعل منك فائضًا في هامش منسي، وتلغي حضورك في نص التمكين!

ولا تمكين إلا للحسنة، إلا ليوسف!

بقيت بلقبها الذي كان سوط تهديد مارسته على كل خارطة الضعف وأوغلت بكل جبروتها فيه.

{قَالَتْ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ}، حصحص:

ثبت واستقرَّ أو تبَيَّنَ وظهر بعد خفاء، وحصحص تعني الاستئصال، وقطع الباطل.

وفي هذه اللحظة تحديداً، كان يوسف يختتمُ الحزن، وكانت هي تفتersh العزاء!

وأخالُ أَنَّ أَقْصَى تَجَلُّلٍ لِلْحَقِيقَةِ، كان فوقَ ما تَرى!

(كان هذا زمنَ انفلاقِ الأسرار بعد سباتٍ طويل، فكأنَّ «حَصْحَصَ» ليست مجرد صوت لغوي، بل هي هزةٌ في عُمقِ القصة، وهي لفظة نادرة، انفجارية الإيقاع، تنفلت من الحلق كحقيقةٍ تُزاح عنها جميع الحجب! تكررت الحاء والصاد لتجسّد انكشافاً تدريجياً، كأنها الحروف نفسها تكابد الانعتاق من سجن التورية والمواربة.

الحقُّ لم يُعلن ببساطة، بل تَفَجَّرَ بعد طول احتباس.

ثم تتبدّى المفارقة الوجودية:

يوسف في صعودٍ نحو صفاء التمكين، وهي في هبوطٍ نحو غبار الاعتراف، تُمسكُ بخيوط الندم المتأخرة.

لقد كان يوسف يطوي آخر صفحة من الحزن، وكانت هي تفتح أول صفحة في حزنٍ أبديٍّ!).

رُبّما كان يوسف ذات يومٍ، بعيداً.

ولكنّه الآن، مُتغلغل في المشهد، ومعه مفاتيح الخزائن كلها ويخرج من الغياب بكامل المعنى!

وعليه..

فلا بد الآن من ترتيب كل ما سبق.

فقد كان يوسف في السُّجْن بين الشُّك المُوجع، وبين نفوذ السُّلطة.
مسجى على سطور تهمة ضبابية، وفي نار الحقيقة احترقت آخر أوراقِ
التُّهمة.

هنا تعلن امرأة العزيز: ﴿أَنَا رَاودَتُهُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ ﴿٥١﴾.
كانت تلك زفرةٌ أخيرة، انقطعت بعدها حبال بهتانٍ عظيم!
وتبقى الذِّكْرَى دفينَةً في زاوية من الروح، حتى ينزع أحدهم عنها سترها.
{أنا راودته}، وعجزتُ عن ارتشاف مذاقِ قُربه.
فقدتُ قميصه، فجعل عمره قربان عِفَّتِه، لقد كان فتى، عقد على وعد
الإله ميثاقه!

{أَنَا رَاودَتُهُ عَنْ نَفْسِهِ}.
هُنا، تشمُّ رائحة العريِّ تنسدُّ على جسدِ فاتنةٍ، فلا يسترُ القلب من
إغرائها إلا {مَعَاذَ اللَّهِ}!

أنا راودته، بكل وطأة الإقرار على لسانها بعد طول إنكار.
وأسرار التعبير تبدو بالتعبير بالماضي مع أنه لم يثبت إلا من إقرارها
الذي لم يسبق لأنه قريب الوقوع فهو لتقريب زمن الحال من الماضي.
وتقديم اسم الزمان (الآن) للدلالة على الاختصاص، أي الآن لا قبله للدلالة
على أن ما قبل ذلك الزمان كان زمنَ باطل وهو زمن تهمة يوسف عليه السَّلام
بالمراودة، فالقصر قصر تعيين إذ كان الملك لا يدري أي الوقتين وقت الصدق،
أهو وقت اعتراف النسوة بنزاهة يوسف عليه السَّلام أم هو وقت رمي امرأة
العزيز بإياه بالمراودة.

وتقديم الفاعل على الفعل في جملة {أنا راودته} للقصر، لإبطال أن يكون
النسوة راودنه.

فهذا إقرار منها على نفسها، وشهادة لغيرها بالبراءة، وزادت فأكدت صدقه —إن واللام. وصيغة {من الصادقين}.

ها هو يوسف يقترب من الخزائن، وتغيب نون النسوة.

فَمَنْ ذَا الَّذِي عَنِ الْمَجْدِ أَعَاقَهُ؟!

﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿٥١﴾.

بكل أدوات التأكيد، إذ كان يوسف في نقطة اتزانه العالية.

يرتد إليه صوت الكلمات {وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ}، التي قالها شاهد من أهلها، وكان القميص يشهد له، لكن سلطتها حجب الحقيقة.

الآن يفتح المشهد بتوكيد براءة يوسف عليه السلام {وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ}، بتراكم أدوات التأكيد: إن، اللام، صيغة الجمع في الصادقين، ليقيم النص حائطاً صلباً من النقاء أمام كل محاولات التشكيك السابقة.

وفي اعتراف يرتجف تكمل ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ ﴿٥٢﴾.

وهذا هو قانون السماء، أن كيد الخائنين مهما كان عددهم سراب مآله الخذلان!

كَيْدُ الْخَائِنِينَ، ما أفصح الاعتراف!

كان كيداً اجتمعت فيه الخيانة واجتمعت له الجموع.

لكن، أكان يكفي هذا الاعتراف؟

وهل كان ما جرى خطأ خالياً من التماذي؟

أم كان عُمرًا، تغشاه الخيانة؟

لذا قالت:

﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ ﴿٥٣﴾.

ربما كان هذا وهم البراءة ببعض الاعتراف.

كأنها تشتفي لو يشفق عليها، وقد اغتالت ذات يوم مطلعها!

وجاءت الجملة هنا دون تأكيد، كونها جاءت في سياق الاعتراف بذنب يدعو للخجل أمام الملك.

فلم يكن من البلاغة إذًا أن يأتي اعترافها هذا مؤكدًا.

تعتزف أمام الملك لا أمام النسوة، فينكشف التفاوت النفسي بين اعترافها العاري سابقًا واعترافها الحذر الآن.

ومن هشاشة الحاضر، كانت تنسلُّ هاربةً، وتودُّ لو غَضَّ يوسف عنها كما غَضَّ القلبُ عنها ذات يوم!
تَمُدُّ كلماتها نحو يقينه.

وتوقن أنها الآن في العراء بعد سنواتٍ ملأى بذكرياتٍ جَفَّ ماؤها،
فتركتها يَبَاسًا!

اليوم..

لَمْ يبقَ إلا وجوهُ هَرَمَةٍ، وألوانٌ يَلْفُها الشُّحوبُ!

ومضى زمن، ما انفك يبدل في عمره أقنعة.

(ما للحقيقة غير لونٍ واحدٍ، فعلامٌ فاضتْ جَرَّةُ الألوانِ).

{ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ}.

تتكرَّر مفردةُ الخيانة في شهادتها مرتين، لأنَّ ما استتر في القلب،
تُترجمه الكلمات!

فهو ما زال كثيفًا في قلبها، غادرها وما غادرته!

وتوكيدها أن النفس أُمارة بالسوء بمؤكدٍ (إِنَّ واللام في لأمارة)، فيه تبرير لفعل شائن صدر عنها، إذ أكدت أن الأمر خارج عن إرادتها.

ولنتذكر اعتراف امرأة العزيز أمام النسوة وقد هتكت أمامهن ستر الحياء:
(لَقَدْ رَأَوْتُ عَنْ نَفْسِهِ) كيف جاء الاعتراف مقترنًا بالتوكيد، بعدما رأت في

موقف النسوة عند رؤيتهن يوسف ما يبرر فعلها، أما أمام الملك فالأمر مختلف
 حتمًا، فجاء اعترافها مبطنًا بالحياء (أَنَا رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ).
 لكن..

هل يعرف مَنْ خذلنا عَنْ الألم المَعْتَق في جِرار الذكريات؟
 عَنْ عُمْرٍ، كَأَنَّهُ مَوْتُ مُوجِّلٍ مِنْ شِدَّةِ الحُزن وَوَجَعِ الكُرْبَات؟
 والزمن يتآكل قطرة بعد قطرة تحت وطأة الانتظار الثقيل.
 وأي رثاءٍ لمن قضى يَنْصَتْ لِهَمْسِ الوقت، وعمره يتلاشى!
 في السُّورة..
 يشفُّ الوجع مُنْكَشَفًا، ويصبح الوُضُوح لغة الأحداث.
 وعلى حين تبدأ السورة برمزية الرؤيا، تبدو الوقائع فَصِيحة في قَسوة
 وضوحها!

تَفِيضُ السورة في خواتيم كُلِّ مرحلةٍ بالرحمة.
 لَكُنْهَا سُنَّةُ التَّمْكِينِ، أَنْ يَسْبِقَهُ الْإِبْتِلَاءُ!
 فَلَا تُثْقِلَنَّكَ الخُطَى.
 فَأَنْتِ عَلَى شَفِيرِ التَّمْكِينِ!
 ربما تَرَى ذُرْوَةَ المعاناة، لكنها تُمَهِّدُ لَذُرْوَةِ التَّمْكِينِ فِي سُنَنِيةٍ
 صريحة.

وَكُلُّمَا مَالِ الْمَشْهَدِ نَحْوِ الزَّوَالِ، أَدْلَى وَارِدٌ بِدَلْوِهِ.
 وَتِلْكَ هِيَ رَحْمَةُ اللَّهِ!
 هل كانت قصة يوسف مرآةً لكلِّ قلبٍ ذاق طعم الخذلان؟
 السورة..

هي معنى التَّدْبِيرِ الإلهي، فَلَا تَجْعَلِ الحُزن قُرَّةَ عَيْنِكَ، وَلِتَأْنَسْ
 بِجُرْحِكَ، فَلَا خَلَلَ فِي الْمَقَادِيرِ!



﴿اَتْتُونِي بِهِ اَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي﴾ ٥١

بحبر هذا المعنى، كتبت الأقدارُ آخرَ المرحلة!



بِوَابَةِ التَّمَكِينِ وَعَتَبَةِ الْمَجْدِ

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ اَتْتُونِي بِهِ﴾ ٥٢

يقبل يوسف بوجهه الناضح بالطمأنينة والسلام، ويراه الملك كزادٍ تحمله الحياة لهذا اليوم الغائم.

فقال الْمَلِكُ: اَتْتُونِي بِهِ، تلك كلمة استمطرت زمنَ التمكن.

ربما بدا يوسف، وهو يخرجُ من بوابة السجنِ نحيلًا، مثل سُنْبِلَةٍ شاحبة.
لا بأس..

فمن شحوبه، خصبُ السنابل القادمة.

لا بأس..

فقد كانت النهايات تُهَيِّئُ له سَعَةَ المآلات.

يا يوسف، ها هي الأعالي تنهياً لِقُدُومِكَ، ويُجْمَعُ التاريخُ عندك.

وتمضي في جلال المُرْتَقَى!

يخرج يوسف من السجن.

ويطوي في خطوته الأمس، ومن بعيدة إلى بعيدة، كانت هذه آخر عتمة

الفتنة!

حيث كانت امرأة العزيز تتضاءل، مثل ذكرى باهتة وتنتهي.

وكان يوسف يغادرها، ويترك لها ظلام إدبارها، يمضي خصبًا، وقد جفت

سحائبها!

﴿أَتَتُونِي بِهِءَ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي﴾ ﴿٥١﴾

بحبر هذا المعنى، كتبت الأقدار آخر المرحلة!

وعلى صوت الملك، تشتبك على جفون يوسف المتعبة رؤيا عتيقة.

ينفتح له المغلق، (ويكون كل ما ليس يكون)!

(أستخلصه للمبالغة، مثلها في استجاب واستأجر. والمعنى: أجعله خالصًا

لنفسي، أي خاصًا بي لا يشاركني فيه أحد.

وهذا كناية عن شدة اتصال الملك به وعمله معه، ودلالة على استحقاق

يوسف عليه السلام تقريبه منه، لما ظهر من حكمته وعلمه)، وهكذا صار

يوسف جوابًا للرؤيا.

﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾ ﴿٥١﴾، كان صوت يوسف، يفوق الانتظار والتنبؤ.

وفي راحة يده، تسترخي السنابل وافرة، وأفكاره، تستجلب المطر!

فقد كان وعي يوسف عليه السلام جوابًا حاسمًا، لا على سؤال الملك

فحسب، بل على كل أسئلة المرحلة.

كل خطة من فمه، تدفن الحطام فوق الحطام.

وقبل اصفرار الحقول، كانت الخزائن تستعدُّ لأسراب الجراد.

وفي تدبيره، كانت الأغصان لا تنزف ولا تستنزف!

مضى المَلِكُ يَنْسُجُ من أفكار يوسف، أَلْفَ معنى.

حتى قَابَ الملك من فجر الحَلِّ، أو أدنى!

إذن لقد كانت الرؤيا سؤالاً، وكان يوسف جوابها.

وفي حُطَّتْه، وحَدَّ يوسف خارطة مصر، فجعل أولها وفرة،
وأخرها امتلاء!

والقيادة الصالحة لا تمنع الجوع فحسب، بل تحوّل الأزمات إلى فرص
امتلاء، فالمجاعة لا تنتهي فقط بنجاتهم منها، بل بفيض الامتلاء في نهايتها.

﴿قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ (٥١)

تشفُّ الآيات عن أسرارها، وتنحُتُ عربية القرآن من لغتها ما يطلق المعنى،
فتَجَمَّع التوكيد، والصفات، والظرف، كي تفيض المعاني إليك، حيث المُمكِن
هنا، هو الأفق كله!

{لدينا}.

هنا معنى، (والأحلامُ قد تصل).

لقد طوى يوسف المسافات، فانطوى الكون إليه!

ولقد كان يوسف فردًا، مقابل نون الملك، وكان فردُه أكثر!

المكين صفة مشبهة من مَكُن -بضم الكاف- إذا صار ذا مكانة، وهي
المرتبة العظيمة، وهي مشتقة من المكان.

والأمين فعيل بمعنى مفعول، أي مأمون على شيء، أي موثوق به في
حفظه.

والمكانة تقتضي العلم والقدرة، إذ بالعلم يتمكن من معرفة الخير والقصد

إليه.

وبالقدرة يستطيع فعل ما يبدو له من الخير. والأمانة تستدعي الحكمة والعدالة، إذ بالحكمة يوثر الأفعال الصالحة ويترك الشهوات الباطلة، وبالعدالة يوصل الحقوق إلى أهلها.

يا يوسف..

أرادوا نُقصانك، فتمَّ اكتمالك، ومِن تيه نقصهم، خرجتْ مُكتملاً.

وتكثَّرت وتضاعفتْ، كأنك سبع سَنابل خُضر ما لهنَّ انتهاء!

ودوماً، المُعانة، رحمٌ لأعظم أزمان قوتك!

{قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ}، كان يوسف في هذه اللحظة، يقبض على حقول النهار، فما تأخَّر!

{مَكِينٌ}، فإذا هو نخلة باسقةٌ لها جذور.

و{أَمِينٌ}، فقد اكتملت له وثيقة البراءة!

والأمين على الأعراض، أمين على ما فوقها!

﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ ٥٥

هكذا إذن، من احتمال الموت في النعش، إلى الجلوس على العرش!

{على} هنا للاستعلاء المجازي، وهو التصرف والتمكن، أي اجعلني متصرفاً في خزائن الأرض.

وهو الطلب الذي يليق بما هيأته له عناية الله.

ربما كان السُّجن مليئاً بالرمل، لكن يوسف كان يستشفُّ النبع!

وربما كان السُّراج شاحباً.

لكن يوسف كان يسَّاقطُ زيتاً، فلقد كان يوسف مِلء نفسه!

{اجْعَلْنِي}، يشرع يوسف الباب (على حلم يراوده).

ويرتفع إلى قُدسية البطولة، ويجاوز مدار البشرية.

ها هو روح فوق معترك الذات، آلامه سرُّ نبضه، وأنقاض السجن ترفعه!

وبيده خيطٌ يرُمُّ ثقوب السنابل، وينحْتُ لِمِصرٍ مستقبلها!

{اجْعَلْنِي}، قُربانًا، أنقذ غيب أُمَّة مهدة بالجوع!

أفق غير مألوف، إذ يطلب فيها يوسف موقع المسؤولية لا طلبًا للسلطة، بل فداءً لأُمَّة ستجتاحها سنوات القحط والمجاعة. وهذه «النفسية الفدائية» في طلب المنصب تضع النصَّ في أفق أخلاقي عظيم: حين تكون الإمارة ثقلًا يحمله من يعرف قدرها، لا من يفتتن ببريقها.

فقال {اجْعَلْنِي}.

قبل أن يصبَّ أحدهم فوق انطفاء النهار انطفاء.

ولقد كان يوسف يرى نوافذ العيون المُشرعة للدموع.

صفير الهواء الحزين، الوجوه الغائرة في الخوف، الصُّمت، يخطط كفَن الراحلين.

الأشجار العتيقة وهي تلتصق بالموت، فيقول، {اجْعَلْنِي على خُزائن الأرض}!

حيث يجيء يوسف، تأويلًا لحلم.

وفي تدابير القدر، كانت الرؤيا تهرب إليه عبر الساقى، وتطوى الأحداث صوب مُناه!

{اجْعَلْنِي على خُزائن الأرض}.

يعتزل يوسف ظاهر الحكم، ويرتفع إلى معنى الحكم، ويقول ﴿إِنِّي حَفِيزٌ عَلِيمٌ﴾!

إذ هذه هي الخيوط الخفيفة، لثياب الحكم الرشيد.

وبها، تزدادُ سعة الخُزائن!

الحِفظ وجذره الأمانة، والعِلْم الذي تشرَّبَه يوسف في قَصر العزيز.

أَمِين على الخزائن لأن كل درهمٍ هو جَمْرَةٌ في يَدِ الحاكم.

إن لم يضعها في مواقد الأمة، أحرقتها!

وعليم ففي قَصر العزيز، كانت خطوات يوسف تتغلغلُ في تجربة الحكم،

وكان اليوم هو الصَّدى!

وهذه الثنائية هي سرُّ كفاءة الحكم، وجوهر الاستحقاق.

ومن هنا تصنع اللغة القرآنية هندستها الدقيقة في اختيار المفردتين،

حيث يبذر يوسف اليوم بذور الحياة، ويوقف انتحابَ المَقبرة.

وهكذا تتحوَّل الرؤيا من حلم شخصي في صباه إلى مشروع إنقاذ أُمَّة

في كهولته.

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ ﴿٥٦﴾

هكذا إذن تكتمل دورة الغيب، ويتمُّ له الميقات، ويولد من مشكاة مأساته

نور التَّمكين!

يقول ابن عاشور: «كانت الإشارة إلى التمكين المستفاد من كذلك، تنويهاً

بأن ذلك التمكين بلغ غاية ما يطلب من نوعه، بحيث لو أريد تشبيهه شُبه

بنفسه»، فلا تمكين أتم منه.

ومادة «التمكين»، وما فيها من دلائل النصرة مأخوذة من المكان، والمعنى

جعلناه في المكان، وهذا يؤول إلى الاستقرار والبقاء مع القدرة.

ودخول اللام على (يوسف) وهي (لام) التعليل أي لأجله، وإن كانت هناك

دلالة أوضح من ذلك وأنسب بالسياق وهي التمكين، لما في اللام من دلالة

الحياسة والملك، ويؤيد هذا المعنى تحديد مكان التمكين في قوله: الأرض

مشيرة إلى دلالة السعة، وعظم التمكين، وهو ما دلت عليه الأحداث بعد ذلك.

ولا يمكن أن نتجاوز دلالة الظرفية في حرف الجر الذي يزيد معنى التمكن

رسوخاً.

تلك سنواتٌ مضت لكنها بسَّطت له درب تمكينه!

وبين أمواج الليل وولادة النهار، مضى وقتٌ كثير، لكنَّ يوسف كان يتوضأ فيها بيقين الفأل!

يا كل ما مضى، هل انتهى يوسف؟
لا ولا.

بل ما أشد اليقين في وحشة الطريق!

اليوم، يبدو يوسف معنى هائلاً، يجمع رماد احتراقه ويتدفأ به فيما تبقي من الصعود.

يتنفس الحب لكل رغبة في الروح كانت، ثم لانت، ثم هانت، ثم حانت، ثم دنت ودانت!

تنادي روحه مولاه..

يَا رب.

اطو لي ما تبقي من آلاف الأميال لعظيم ما في قلبي!

يَا رب.

يتسرَّب العمر، فبارك في كل ثانية حتى أبلغ ما أملت!

يَا رب.

شمعتي صغيرة، والظلمات كثيرة.

ومن أوى إليك، أويته وسترته، وألبسته وهبته، ورفعته وأدهشته.

وكل ذلك منك أسأل!

مد لي جبال الوصل، فأفعل ما أشاء فيما تشاء، بأهون الأسباب والأشياء!

معك من ركب الأمل الواسع، لم يستبعد الأمد الشاسع، والعطاء الواسع!

وقد كان وشاء الله له قدر ﴿يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ ﴿٦٧﴾.

وهي كناية عن تصرفه في جميع مملكة مصر فهو عند حلوله بمكان من المملكة لو شاء أن يحل بغيره لفعل.

يا الله كان قرار القوم حينها، أن يكون يوسف سطرًا باليًا في وثائق السُّجن.

لكن قلب يوسف نفّض نبضه منهم، وأيقن أن الله قادر أن يعيد تشكيل المشهد!

كانوا في غمرة احتشادهم، يقررون تلاشيهِ، لكن موج امتداده، كان قَدْرًا. وكان القدر، وألنَّا له الخُطى حتى يتَّسع، ويفتح للرؤى مَعبرًا، ويسكُن في علوه!

ومن انتقال جغرافي في أرض مصر إلى انتقال وجودي يقول الله تعالى:

{يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ}!

يَا الله!

من جدران الحصار، إلى منازل النُّجوم!

{يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ}! لمن كان في السُّجن.

هناك يملك السَّجين فقط عيني ميت، يجول بهما في برزخٍ لا ينتهي للحياة.

لكن الله إذا أراد، بَعَثَكَ مِنْ رَمَادِكَ!

(ويتَّبِعُوا، عبارة عن كمال قدرته على التصرف فيها ودخولها تحت ملكته وسلطانه فكأنها منزلُهُ يتصرف فيها كما يتصرف الرجل في منزله).

﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ﴾ ﴿٥٦﴾، لِمَنْ هذا الوعد؟

للذين يمحون العتمة بما أشرقَ فيهم.

لمن يملؤون الحَياةَ يقيناً، رغمَ يأسها، للذين يُسقون الأرضَ الشُّفاءَ، رغمَ جراحهم.

أولئك الذين طرَّزوا الأحلامَ من خيوط الألم.

لمن سيومض في دُجى الجوع الآتي، فتتفياً السَّنابل ضوءه!

﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٥٦).

كلُّ شيءٍ الآن، كان برَّج الصِّدى.

الهمس والخفايا، والوقائع اليومية، تكتب مشهد المصير، وهي {الرُّجعى}.

وصحائف القلب، مُحالٌ أن تُمحي.

وذات يومٍ، تُصبح صحائفٌ مرثية.

وما نراه تناثياً، يغدو حين اكتمالِ التوقيتِ تدانياً، والأقدارُ، تَسرجُ من زيتنا ضوءنا.

وما بعد ذلك، ﴿وَلَا جُرْ الْآخِرَةَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (٥٧).

والتعبير في جانب الإيمان بصيغة الماضي وفي جانب التقوى بصيغة المضارع، لأن الإيمان عقد القلب الجازم فهو حاصل دفعة واحدة وأما التقوى فهي متجددة بتجدد أسباب الأمر والنهي واختلاف الأعمال والأزمان. «آمنوا» كعقد قلبي ثابت قد أبرم، و«كانوا يتقون» كمسار دائم مستمر يتجدد كلما نهضت الفتن في طرقاتهم. نبي نجا من المحنة؛ بل صار أنموذجاً لمن... لا يُضيع الله.

ولقد ظلت التقوى طوال الرحلة اختبار يوسف، وها هو يوسفُ يُستخرج من سجنه لا ليكون حرّاً فحسب، بل ليكون جواباً قدرياً عن سؤال الزمان.

لقد صار الحلم خريطة، والجرحُ منصة التمكين. وفي هذا الصعود تتلاشى الذوات الصغيرة أمام عظمة التكليف، وتتحولُ الإمارة إلى «فداءٍ للأمة» لا رغبة في السُّلطة.



﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ ﴿٥٨﴾، والجوع فحَّ القصاص!

وكانوا له منكبين، إذ كان التمكين
فوق ما يتوقعه خيال الذاكرة



حين يُصبحُ الجوعُ قَدْرًا للعدالة

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ ﴿٥٨﴾

تنيح القوافل بغبار الترحال على بوابات مصر، القipzig يزيد شتات الرؤية.
وعطش الصحراء يلتمع في العيون، والقوافل في هزالها مثل نساء خائفة
وصوت الباحثين عن القمح يعلو، وما طوته القوافل من هواجسها يشتعل على
زحام الجموع المحتشدة هنا، والكل يتساءل:

هل فيك يا مصر متسع؟ أم أن الوصول محال!

يعلو صوت مطايا السفر، كأن مصر أول الأرض وآخرها!

وفي الجموع وبين جلبة الحشود، وبأقدام عارية على رمل أسود لا يعرف
المطر، {جَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ}، مرهقة شفاههم من جفاف الجوع، وفي الداخل،
رجفة الخوف من خيبة الانتظار!

وطريقهم مزروع بألفٍ جُرحٍ وجرح، وألف سؤال بلا جواب!

ويا لخديعة الجوع، إذا صار الجوع لهم فحَّ القصاص!

(كان مجيء إخوة يوسف عليه السلام إلى مصر للميرة عند حلول القحط بأرض مصر وما جاورها من بلاد فلسطين منازل آل يوسف عليه السلام، وكان مجيئهم في السنة الثانية من سنين القحط. ممتازين لما أصاب أرض كنعان وبلاد الشام وما أصاب أرض مصر وقد أرسلهم يعقوب عليه السلام جميعاً).
والتعبير بـ {إِخْوَةُ يُوسُفَ}، يوحي بأنهم كلهم مُضافون إلى يوسف، كأنهم مُجَلِّلون بفتنتهم.

نكرة أسماؤهم، وصيغة الجمع لا تُغني عنهم شيئاً!

(يُعرفون من خلال صلتهم بالمظلوم الذي سبق أن ظلموه، وكأن هويتهم كلها تذوب في تلك الجناية الكبرى التي ستلاحقهم إلى مشارف الخزائن).
{وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ}.

وكان مجيئهم اليوم مُتَعَبًا، لكنه قَدَر القصاص!

يَا الله، أيُّ قدر أوصلكم إلى موانئ النِّهاية؟

{وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ}.

هنا بلغت مراحل التَّمكين آخر الشُّوط.

وكلُّ مشهد، كان يضيف مسافة نحو الخاتمة!

ودومًا، تجيد الأقدار الصَّمَت، وترسم ليوسف الطريق بألوانِ الرؤى، وترتب على مهل كل الحكاية.

فلا يجتزئ الحدث من سياقه، فما وُعْثاء الطرق، إلا قدر الوصول!

ربما أنت لا تلمح العطاء وهو يحبو إليك.

وفي عينك لا شيء كان مرثيًا، لكن لا خطأ في نصِّ التدبير، ولا شيء يفضي إلى هباء!

كان إخوة يوسف على بوابات القصر المنيعة، وبقلق وفزع يتحسسون هيئاتهم، وملابسهم الرثة.

وما تبقى من الخسارات!

ينادي حاجب ضخم الشكل أسماء القوافل، يتراصون ويجرون أقدامهم المثقلة بالسفر.

مكدسون بشظف المشقة، واحدًا تلو الآخر، يحملقون في الفراغ الشاسع للقصر، ويمشون في اتجاه البهو الشاسع حيث عزيز مصر، فجأة يرون أنفسهم أمام الباب مباشرة.

{فَدَخَلُوا عَلَيْهِ}، والفاء توحى بفجأة الدهشة في المدى المستحيل!

﴿فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ وبسرعة معنى الفاء، انبعثت كل اللحظات السوداء السابقة.

القلق الهائل.

صوت الخطى، وهي تغادر.

الليل، وهو يهبط كله على قلب يوسف في البئر المهجورة!

شيء ما يتحرك، يكاد يلدغه.

قلبه وهو يكاد يتوقف من زوابع الخوف.

أنين البكاء، فقد كان عاريًا من قميص يتشبث به، كانت لحظة، مأهولة بالفجيعة!

وما زال يوسف حتى اليوم، يسمع صوته من داخله.

يسمع شرخًا، أعقبه انهيارٌ ارتجف بعده الصغير وحيدًا!

فَعَرَفَهُمْ، هؤلاء الذين تكفلوا بوجعه كله.

من البدء حتى النهاية، في غياية الجُبِّ، أو في وديان الموت البعيد!

فالذاكرة لا تمحى، ربما نطويها، لكنها غير قابلة للنسيان!

هذه لحظة..

اصطفى الله توقيدها بعناية، فهي من تقويم السماء.

لكنهم له منكرون، فقد كانت أعينهم خالية منه! وبعينيه لاحق ما غيره
الدهر في وجوههم.

فقد كانوا ما زالوا في البادية، ما زادوا.

بل نَقصوا!

ربّما تتشابه بعض الملامح في أعينهم، لكن هيئة النبل والإمارة فوق ما
يظنون!

(منكرون له وذلك لطول العهد، وتباين ما بين حاله في نفسه ومنزلته
وزيّه.

ولاعتقادهم أنه هلك.

فَعَرَفَهُم الدالة على الحدث المتجدد من جهة يوسف، و«وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ»
الدالة على الثبات والتمكن من الجهل في جهة الإخوة. وجاء التفريق بين
الجملتين:

الجملة الفعلية في جانب يوسف تفيد المفاجأة الحيّة وفاعلية التذكر رغم
تغير ملامحهم.

الجملة الاسمية في جانب الإخوة تفيد رسوخ الإنكار لديهم، وكأنهم لم
يخطر لهم قط احتمال لقائهم معه حيًّا.

أما البلاغة الدقيقة في تقديم المجرور بلام التقوية في قوله «له منكرون»
فهي توضح حالة إنكارهم المرگبة التي بلغت أقصى درجات التثبيت، حتى
احتاج التعبير إلى مزيد تقوية دلالية.

ووقع الإخبار عنهم بالجملة الاسمية للدلالة على أن عدم معرفتهم به أمر
ثابت متمكن منهم، وكان الإخبار عن معرفته إياهم بالجملة الفعلية المفيدة

للتجدد للدلالة على أن معرفته إياهم حصلت بحدثان رؤيته إياهم دون توسم وتأمل).

هل تُنصتُ إلى النَّبِضِ اللُّغَوِيِّ؟

هل تَلْمَحُ دلالة التعبير؟

إِذْ تَحْمِلُكَ مِنْ يَوْسُفَ فِي الْبَيْتِ عَارِيًّا، مَنْسِيًّا، مُنْكَرًا، لَا يَزِيدُ وَضْفَهُ عَلَى: «هذا غلام».

ثُمَّ هَا هُوَ الْآنَ.

فِيمَا تَبَقَّى مِنَ الْعُمُرِ!

فهل كانت هذه لحظة التعرف، أم لحظة الانكشاف العظيم، أم مقامًا يختزن وجعًا وسؤددًا؟

وفي لحظة قَدَرِيَّة، التقت عيناهُ كلَّ سنواتِ الماضي.

فَعَرَفَهُمْ! ترى، كم خذلت عُيُونُهُمْ عُيُونَكَ.

ها هو يطوي السنين في داخله، ﴿وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾.

وهذه هي الحقيقة، فقد كانوا في عُمَقِهِمْ لَهُ {مُنْكَرُونَ}.

{وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ}، إذ كانت المسافة بينه وبينهم، موجشة!

والحال، وصف من القلوب المكنون!

كان سِرُّ يَوْسُفَ حَتَّى هَذِهِ اللَّحْظَةِ، مَخْفِيًّا.

وكان هذا وقت التجلّي!

{فَعَرَفَهُمْ}.

ثُمَّ صَمْتُ كَثِيفٌ فِي الْوَقْتِ، وَصَرِيرُ الذِّكْرِيَّاتِ، يَشْتَدُّ فِي أَرْوَاقِ الرُّوحِ.

وَالْعَيُونُ الْحَائِرَةُ، تَحْفَرُ فِي ذَاكِرَتِهِ أَخْذُودًا عَمِيقًا نَحْوَ الْمَاضِي!

لكن يَوْسُفَ فِي لَحْظَةِ انْتِصَارٍ عَالِيَةٍ، تَجَاوَزَ أَلَمَ رُؤْيَتِهِمْ، وَكَانَ فَوْقَ

الانفعال للوجع الدَّفِين!

لماذا، لأن السُّجْنَ غيَّر ترتيبَ الأشياء في عمق يوسف!
 وَمَنْ يَمْلِكُ ذَاتَهُ، يَمْلِكُ لُغَتَهُ، وَيَمْلِكُ قَرَارَ الصَّمْتِ!
 كانت مدرسة {فلبث في السُّجْنَ}، ترتفعُ به إلى مدى هائل من السُّكُونِ،
 وكان الصبر على طول الانتظار مدرسة!

ها هو يعرفهم، بعد أن أَلِفَ الصَّمْتِ، واستقرَّ في طمأنينةِ العواقب!
 {وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ}.

ينهالُ فراغُ قلوبهم على فراغ أعينهم، فما يبلغون خيال هذه اللَّحظة.
 إذ كانت عاقبة يوسف، معنى ما فوق المعنى.
 وما فوق التَّوَقُّعِ.
 وما فوق المَنَاطِقِ.

مكتبة

t.me/soramnqraa

وبقي يوسف في أوائل الأقدار وأواخرها!
 ثمة مفارقة غريبة في المشهد.

فالطفل الذي اشترته قافلة التجار تعود إليه القوافل خاسرة دون عطاءه.
 القوافل التي أسرته ثمنًا، تعود إليه متسولة متوسلة، من رماه ومن باعه
 ومن صمت على المظلمة!

وفي هذا المشهد، تتقاطع أقدار المجاعة بتاريخ المظلمة، وتعود
 القوافل التي فرطت بيوسف باحثة عن نجاة ولا تدرك أنها في يد
 من ظلموه. الجوع يصبح القصاص، والتاريخ يعيد وجوه الجناة في
 حضرة المجني عليه، والبُعد البلاغي ينسج مفارقة دقيقة بين الفعل
 المتجدد «فَعَرَفَهُمْ» والثبات الكسير في «وهم له منكرون»، في لحظة
 انكشاف قدرِّي تتجلَّى فيها السيادة لمن صبر.

هنا لا يعود يوسف فقط سيّدًا على مصر، بل على المعنى كُلِّهِ.

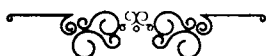


﴿أَتُتُونِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَبِيكُمْ﴾



﴿أَتُتُونِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ ﴿٥٩﴾

يوسف يُدير الخطة، ويبدأ بناء تفاصيل المحكمة



نُبَلِ الْمُنتَصِر

سَخَاءٌ فَوْقَ الْجَرَاحِ: وَيُوسُفُ بَيْنَ الْعَدْلِ وَالْعَفْوِ

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ﴾ ﴿٥٩﴾

لا أدري كيف احتمل يوسفُ فعلَ ذلك!

كيفَ لم تَضْطرب يداه وهو يُناوِلهم زادهم، وقد كانوا ذاتَ خيَانَةٍ يقطعون عنه القُوَّة؟!

تُرى..

مَنْ يُنصِتُ لعمقِ يوسفَ وهو يتمتُّ في قلبه نحوهم:

لقد أخطأتُم دمي.

لكنَّ سياجَ الرؤيا كان يحميه!

يا للأقدار!

ها هي العذاباتُ الطويلة، تنتهي.

وأَسْرَارُ الغيب وحدها تملكُ جوابَ الأسئلةِ الغارقةِ في الأسى.

يوسفُ، بنفسه، هو الذي يُجهِّزهم!

ها هم يمدُّون أيديهم له.

فلا يجعل أنصبتهم عَصْفًا مأكولًا، ولا ترك سنابلهم فارغة!

وما باعهم بثمنٍ بخس.

بل أكرمهم، كما تُكْرِمُ الأنبياءُ نفوسَهم حين ينتصرون!

وبين التناقض، وفلسفة العفو، ويقين التأويل، كان يوسف في مبلغ من

العلم!

لكنَّه الآن..

ينتصر فيقول، باتِّزان عالٍ وسكينة عميقة:

اَتُتَوْنِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَبِيكُمْ ﴿٥١﴾ وهنا، ما تبقى من الوجع!

ترى كيف قالها يوسف؟! {بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَبِيكُمْ}.

ويا لارتجاف الذكرى: حين ينطق بندوب القلب.

يا الله، كم هو محزن أن نسترجع الذكريات، فنعلق باللحظات الحزينة!

فقد كان لهم أخوان من أبيهم ما زال أحدهم في حكم ضمير الغائب!

(وطلب منهم ذلك لما قيل من أنهم سألوه عليه السلام جَمَلًا زائدًا على

المعتاد لبنيامين فأعطاهم ذلك وشرطهم أن يأتوا به).

{اَتُتَوْنِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَبِيكُمْ}.

يلقون في الطلب، فثمة كلام في القلب، لا يمكن اجتيازها!

تهزُّ الكلمة طمأنينتهم، وتنفض آثار الأذى، وتقصي عن سر قديم ستاره!

يتلفتون حولهم، فكلمة {من أبيكم} ثقيلة، وخلف المعنى سواد ذكرى

اسمها (يوسف).

كأن العبارة حقل ألغام عاطفي تتشابك فيه الذاكرة بالحاضر.

وبعض الجراح، تأبى إلا أن تظلَّ مَكشوفة!

(التعبير يحمل دلالة نفسية شديدة الإيحاء: فهو يذكرهم بـ «الأب» الذي كان المشترك بينهم يوماً، وفي طيات هذا الذكر لمحة خفية إلى غياب يوسف نفسه، إذ إن الذي يتكلم هو ذلك الأخ الآخر الذي غُيبوه).

ترى..

هل يملك أحد أن يمحو نبرة الذكرى عن القلب؟

يحمل يوسف مكياله ومكايل النبوة أشد إنصافاً من ميزان الذاكرة، فيقول بنبرة سامية:

﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أَوْفِي الْكَيْلِ﴾ (٨).

ربما اللحظة، مشبعة بمرارة موجعة.

والمُفردات منتقاة بعناية، وتشتعل فيها معانٍ مقصودة.

إذ ثمة معنى باطن مليء بالأسى المتدفق، يتجه نحو ذكرى بعيدة يوم قالوا: ﴿لِيُؤْسَفْ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيَّ أَيْبَانًا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٨).

كانوا يومها يخسرون الميزان.

وكان المكيال ناقصاً!

لكن المكايل في يد يوسف تفيض بوافر الدَّفء!

تنقذهم من الفزع، وتمنحهم الطمأنينة، ويرتحل بها الألم!

(تعيد المشاهد ذاتها، ففي المشهد الأول: كان الميزان مختلاً في قلوب الإخوة، وكانوا يرون الحب ميالاً لا إلى العدل، فقالوا: {إن أبانا لفي ضلال مبين}).

وفي المشهد الثاني: يقف يوسف ممسكاً بالمكيال، لا ليزن الحنطة فقط، بل ليعدل الميزان في الجراح القديمة).

﴿وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ٥٩﴾.

وقد كانوا هُم، أسوأ المنزّلين يوم ألقوه في غيابة الجب!

﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرُبُونِ ٦٠﴾.

خليط من التهديد والقسوة، يتسلّل إليهم، تلتبس عليهم اللّغة، ويشتبك الغيث واليَبَسُ فجأة.

فَيهرعون كعادتهم الانفعالية، في سُرعة اتّخاذ القرارات!

﴿قَالُوا سُرَّوْذُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَعْلُونَ ٦١﴾.

يتكرر فعل المراودة هنا، بسين المُستقبل، وأدوات التأكيد، وحشد نون الجماعة.

فقد كانت معركة حياة وبقاء!

وأكدوا ذلك بالجملة الاسمية وحرف التأكيد.

وغابَ عنهم أنهم في حضرة من أرادوا له مآتم العمر.

في حضرة من ﴿ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ ٦٢﴾.

(المراودة الأولى في طفولته سلبت منه حقه في الطفولة والأمن والعائلة وكانت النتيجة، {وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب}.

والمراودة الثانية سلبت منه سعة الرخاء والحرية وكادت أن تعبث بدينه والنتيجة كانت السجن.

لكن المراودة الآن ستعيد له كل ما سلب وللمرة الأولى يمتلك يوسف نتيجة فعل (المراودة!).

وفي هذا العلوّ، كان يوسف في فردوس غربته.

وكانوا هُم في قحط هزيمتهم!

﴿وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ أَجْعَلُوا بِضَعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا
أَنْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٢٣).

تغيب التوقعات والاحتمالات في مخيلة الظلم عن هذه اللحظة.

وقال لفتياناه فقد صار للفتى فتيان يأتمرون بأمره، وتلك قفزة قَدَرِيَّة من
العبودية إلى السيادة.

(والبضاعة هي: المال أو المتاع المعدُّ للتجارة. والمراد بها هنا الدراهم
التي ابتاعوا بها الطعام، فقد أعطاهم ما يبتاعون به في المرة القادمة كي
يعيدهم إليه، والتفضل عليهم بإعطاء البدلين ولا سيما عند إعوازِ البضاعة من
أقوى الدواعي إلى الرجوع).

وهنا يوسف يُدير الخطة، ويبدأ بناء تفاصيل المحكمة.

يعلو وجوههم إعياء الجوع والسفر، يغادرون كأنهم بقايا تاريخ انتهى.

أما هو، فكان مثل سكينَةِ الفجر، وسلام الأسحار.

فقد كان كل شيء على أهبة الفجر، حيث لا أنا، بل الله.

وما يفعله العارفون بالله هو الاطمئنان.

لكن، لماذا وضع البضاعة في رحالهم؟

وقد أكدوا العودة له بكل أدوات التوكيد!

ولماذا قال: «لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ»؟

هل ثمة ما تخفيه هذه الكلمات؟

ذات يوم، قالوا ليعقوب عليه السلام:

«أرسله معنا غداً يرتع ويلعب، وإنا له لحافظون!».

وكانوا كاذبين.

كيف لقلب يوسف أن يصدق الكلمات، مهما فاضت بالتأكيدات؟

لذا قال:

اجعلوا بضاعته في رحالهم (لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ، لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ).

فقط مصلحة الذات هي التي ستردهم!

وقد كان ما أراد، ويرى المشاهد لهيب شوقهم، والفاء في دلالتها على السرعة تكشف ذلك.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَتَابَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَكْتَلُ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ ﴿١٣﴾﴾.

يكاد يعقوب لا يصدق.

هل كانت تلتوي الكلمات؟ أو ربما تتشكل وعودًا كاذبة.

أو تختبئ المعاني، وتتوارى؟

يحاول يعقوب أن يقبض على الحقيقة، (على المعنى قبل أن يصبح التباساته).

يقفون أمامه بعجلة مريبة، أرسل معنا أخانا، كأنها سؤال النقصان إلى النقصان!

وفي ذاكرة يعقوب تتشابه المفردات، أرسل معنا، وإنا له لحافظون.

فيا خيبة اللغة في فم الظالمين!

ينظر إليهم بمرارة:

﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٤﴾﴾.

فجأة، يشعر يعقوب بقلبه وهو ينبض بقوة، ضلالٌ كثيرةٌ. وشَجَنٌ خَافَتْ والهواء يبدو قليلًا، بياغته ألمٌ عنيف وعينه تنفتح على ماضٍ بعيد، شعور ثقيل وعبء المسافات غصة في الذاكرة.

يتنهد يعقوب فتلك سنون بلون الرماد.

يمشي إلى ليل الذاكرة، وفي المتسع من الخلاء، تستبدُّ به تباريح الشوق.

ولا يملك إلا أن يقول:

هَلْ أَمْنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمْنُتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ؟

قالها يعقوب لأن لا أحد، لا أحد يخطئ لغة روحه، ولا أحد يتعثر في معرفة إيقاعها.

لن يأذن لهم يعقوب بوجع جديد، فالقلب (لا يلدغ من حزن مرتين).

لو يعلمون أن أصواتهم تنهش النسيان، يسمعها كأنها الآن.

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَنْصِحُونَ﴾ (١١).

كانت تلك الكلمات ذكرى الغياب الأخير ليوسف أو صوت الحريق وهو يلتهم آخر الورق!

﴿أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَع وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (١٢).

تتوهج الذاكرة وترتبط الكلمات، فَأَرْسَلْ مَعَنَا أَخَانًا نَكْتَلُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ.

وفي المشهدين خيال رهينة في قضبان خديعة ما، يحدق إليهم ويهتز يعقوب بالرفض.

فقد كان الصغير سلوى قلبه، وعبر حدود الزمن كان يعقوب يرى في الصغير الذي بقي يوسف.

فالإخوة يتشابهون في تفاصيل كثيرة.

في ارتشاف الماء، في اتكاء صغيرة، في تتأوب الليل، في ضحكة سريعة، وفي وهن الطفولة.

ومن رغيف الذكريات ظل يعقوب يقاتل ليلاً طويلاً!

ينسل الواحد تلو الآخر وفي صمت البوح يتنازلون عن محاولاتهم، ويوشك جمعهم أن ينفل.
لكن..

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتْعَهُمْ وَجَدُوا بِضَلْعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَبْنَائَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَلْعَتَنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلُ يَسِيرٍ﴾

فقد فجأهم وجدان بضاعتهم في ضمن متاعهم، فالحسارات لا تصدر صوتاً.

أو ربما كانت إغراء صامتة عسى ترجع القافلة!
يبدو المشهد مربكاً، وبين نوبة أمل وشعور مبهم، وبصوت يائس يعودون إليه متوسلين.
يا أبانّا!

وبين قلق الفقد وغضب المحاولات، يركضون بكامل لهفتهم.
يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتَنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلُ يَسِيرٍ

و {ما نبغي} والتعبير بالاستفهام الإنكاري بتنزيل يعقوب منزلة من يتطلب منهم تحصيل بغية فينكرون أن تكون لهم بغية أخرى، فالمدن الواجفة، ومخايل الفقر، وأرض ساخنة تئن من الجفاف، وفي انتظار ما يتلاشى من العمر زفرة زفرة، ينفجر صمتهم ويتوسلون بكل المحاولات!

{هذه بضاعتنا ردت إلينا}، كأنها شاهد يقلص احتمالات الخديعة!
وإنما علموا أنها رُدَّتْ إليهم بقريئة وُضِعَها في العدل بعد وضع الطعام وهم قد كانوا دفعوها إلى الكياليين.

ونمير أهْلنا، فقد أنهكت الأرض جفافها.

ثم ها هم يحاولون مع قلبه بقولهم، أهلنا.

فهل تبدي المعاني ما تخفي؟ كأنهم يحاصرونه فإن قال لا فقد قبض كف الميرة عن كل أهله!

والميرة هي الطعام المجلوب.

ثم يتنفسون بصعوبة وينطقونها، {ونحفظ أخانا}، يبدو الكلام مثل تفصيلا صغيرة نطقت في زحمة الوعود، لكنها كانت كل شيء!

تشدد المحاولة، يقترب أحدهم بنية مطمئنة، {ونزداد كيل بعير}، ففي سلامته فائدة لهم بازدياد كيل بعير، لأن يوسف عليه السلام لا يعطي الممتار أكثر من حمل بعير من الطعام، فإذا كان أخوهم معهم أعطاه حمل بعير في عداد الإخوة.

لكن يعقوب بعد كل ذلك يقول:

لن أرسله معكم، بلن النافية الجازمة فالذاكرة لن تنسى (أرسله معنا يرتع ويلعب)!

﴿لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

ثمة حزن خفي في الرفض، ثمة حزن كبير!

حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ، أي موثقًا صادرًا من الله تعالى.

وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنْ يَجْعَلُوا اللَّهَ شَاهِدًا عَلَيْهِمْ فِيمَا وَعَدُوا بِهِ بِأَنْ يَحْلِفُوا بِاللَّهِ فَتَصِيرُ شَهَادَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ كَتَوْثِيقٍ صَادِرٍ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِهَذَا الْاِعْتِبَارِ.

وذلك أن يقولوا: لك ميثاق الله أو عهد الله أو نحو ذلك، وبهذا يضاف الميثاق والعهد إلى اسم الجلالة كأن الحالف استودع الله ما به التوثيق للمحلف له.

والحلف على لَتَأْتُنَّنِي بِهِ، حيث تتكرر النون وتشعرك بحالة من التتبع والاستقصاء والبحث المجهد في التقاط الطريق إليه، يقابل ذلك مشهد قديم من (وتركنا يوسف)، دون أي خطوة بحث!

إِلَّا أَنْ يُخَاطَ بِكُمْ.

يكاد صوته يضيء بوهج بحجم المجهول، إِلَّا أَنْ، وإلا فقط! والإحاطة: الأخذ بأسر أو هلاك مما هو خارج عن قدرتهم، وفي ببداء يثور فيها ملح الجفاف واصفرار السنابل، لا أمان للقوافل المجهدة من فوضى الأيدي الناهبة!

و{الله على ما نقول وكيل} كان يوقظهم بالكلمات.

فكل الشواهد كانت رمادًا، وكل التوكيد دون الله حطامًا.

يمد يعقوب قلبه لله، وكل أسراب الخوف لا أمان لها إلا بك يا الله.

كان يعقوب يربيههم بأن الله قبل النية وبعد النية وفي النية والكلمات.

وكان هذا توكيدًا للحلف!

ولقد كان يعقوب يحاول إذا أضرم جمر السؤال في قلبه، أن يجد في قدر الإحاطة مخرجًا!

وربما كان يبحث عن طريقة أقل قسوة لغياب محتمل!

وَقَالَ يَا بَنِيَّ.

يا بني! ويعقوب يعلم أن بنيه فعلوا ما فعلوا.

ثمة معارك لا انتصار فيها ولا خسارة، لا موت فيها ولا حياة.

ها هو ينحني بعظامه الواهنة عليهم، يا بني!

﴿لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَلْحَكُمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾

للمرة الأولى سيمضون متفرقين، وفي الأقدام معنى البوصلة!
يجوب يعقوب في معنى العصبية ويفتته، ثمة هشاشة عميقة
تحتاج أن يفلتها المجموع كي تتضح، فقد كانت العصبية وهم القوة،
وكانت الأبواب المتفرقة معنى أن تعرف فقرك بنفسك.

وحينها ستتسع لهم الأبواب!
ولربما إذا دخلوا برداء الفقر لله اجتمعوا!
هل كان يعقوب يوقظ فيهم ما لم توقظه الذات؟ فعلى امتداد الوقت
كانوا في ضجيج قوتهم.

كانوا ملء فتنتهم، كانوا في عصبته معنى الانتصار الوحيد!

لا تدخلوا من باب واحد، فالوحدة وسط الزحام فقر ثان!

أتعلم ماذا يعني أن تمشي والعصبية ليست في نبضك؟

ألا ينتبه أحد لارتطامك في الجموع.

أن تمضي منهكاً ولا يد تشد عزلتك.

وفي خضم الوقت لا تنتمي إلى أحد سواك، وليس فيك إلا أنت.

أن تحدد إلى الآخرين.

فلا يشبهك إلا أنت في طوفان الآتين ليوسف!

كان يعقوب يحررهم ويطهرهم ويفتح لهم أبواب البصيرة، ويغلق مقبرة

الأنا الجماعية!

وَمَا أَغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ
وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ.

هناك أشياء لا يراها أحد، لا يراها إلا أب نبي.

فراغ الروح من التوكل إلا على معنى العصبية، العجز عن التوكل على الله.

فهل كانوا مسكونين بقوة المجموع منذ انهيار بعيد؟ أم كان تماسكًا يسترون به ضعفًا عميقًا؟

وهل كانوا في كل الجهات لكن الشتات كان يملؤهم!

وهل كانت هذه الكلمات مثل محاولة أخيرة لترميم ما تبقى!

وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِّنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ، هذا النفي التام كان معنى أنت لنا إذا خذلتنا أنفسنا.

وبدا مثل اعتراف مؤجل إذا بقيت أرواحهم في حطامها.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَاهَا، ربما كانت حاجة الطاعة بعد عصيان منهم طال عمره كله!

تشتعل الحاجة كأنها من قسوتها منتصف الظهيرة، يحاصرهم الفقر.

والوحدة في مدى الجوع تتسع، وفي كل ناحية رحيل لأجل رغيف خبز.

وكومة من غبار كثيف في ظهيرة ساخنة.

وجدار ورث الانهيار من جدار يريد أن ينقض.

ربما كل هذا كان مهمًا كي تنهض بعدها الروح لترى العصبية هزيمة العصبية والأنا وكل أدوات التأكيد (وإننا له لحافظون).

كانت العصبية فكرة ناقصة، والاكتمال فقط في فهم الفقر الكلي لله، الفقر التام لله والذل له!

في المشهد تمتد خرائط الوجع، الأبواب المسدودة، اللهفة على كيل بعير، والتشبث ببعض الحنطة، وفي عمق القلوب بعض من هاوية الاستغناء بالمجموع!

وكان يعقوب يريد أن يعلمهم أن من يمد قلبه لله لا يمد يده.

ومن اشتد بعصبته هوى في ذل، يا أيها العزيز تصدق علينا!

ربما هذه بعض من حاجة خفية ما زالت في نفس يعقوب.

وسيزل في كل منا في صدره دبيب حاجة لا يعلمها إلا الله!

(في هذا المشهد يوسفُ في أوج التمكين، لا ليثأر، بل ليُرَبِّي خصومه بميزانٍ لا يُخطئ، ميزان النبوة. لقد امتلك زمام القوة، لكنه لم يجعل منها سيفًا، بل جعلها مكيالًا يفيض بالكرم والعدل، مكيالًا يُوازن بين الجراح والمقاصد، ويعفو دون أن ينسى.

فالعفو في هذا المقام ليس مسامحة ساذجة، بل وعيًا عميقًا بأن العذاب الأكبر لا يُورَث بل يُطَهَّر، وأن الطريق إلى إصلاح النفس يمرُّ عبر عدالة لا تنتقم، بل تربي.

أما يعقوب، فكان يُبَصِّرُ أبناءه بمقام التوكل، ويفكك لهم وهم «العصبة» التي أسقطتهم في الماضي.

لقد علَّمهم أن أبواب القدر لا تُفتح بالقوة، بل بضعف صادق يوقن أن الحكم لله، وأن الأمان لا يستقرُّ إلا في قلوبٍ فقيرةٍ إليه.

في هذا المشهد، تتهاوى أدوات التأكيد الكاذب: «وإنَّا له لحافظون»، «سنراود عنه أباه»، «ما نبغي»، أمام صمت الذكرى ووضوح التجربة.

المشهد كله احتفاء بلحظة التمكين المُطَهَّر، لا تمكين الغلبة، بل تمكين الروح، حين ينزل يوسفُ المكيال ليزن به الذاكرة، لا الحنطة، ويعيد ترتيب الحكاية لا على مقاس الخسارات، بل على نسق العناية. وها هو يعقوب، إذ يتنفس بالحزن، يُعلِّمهم أن الطاعة المتأخرة لا تبرئ، لكنها قد تُمهِّد لبداية النجاة (إن صدقت).



وفي انتشار الحرائق تشيع الحدائق

وفي سواد الألوان اختمار أقدار خفية



أَوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ، مثل غيمة، والورد يخشى فجأة رحيل الساقى.
﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُسُفَءَ أَوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ
فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

أَوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ، للمرة الأولى في السورة تعلن الآيات ليوسف أخا.

فقد كان أولئك في عمره مجرد (عصبة)!

إِنِّي أَنَا أَخُوكَ، وتحت وطأة الحنين كانت روح يوسف تتماسك شوقاً!

تفتتح آية «أَوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ» على مخزون يوسف من الحنين والافتقاد والجرح العائلي، ويغدو لقاء أخيه لقطة مفعمة بأسى وانبلاج معاً.
ولعظيم غرابة الأمر كان لا بد أن يأتي قوله (إِنِّي أَنَا أَخُوكَ) مشفوعاً بالتوكيد.

فيوسف الذي غاب هذه السنوات الطويلة، دون أن يُعلم مصيره، هو الآن عزيز مصر.

والتعبير بأوى، يحمل شعورًا غريبًا.

ربما دمعة تكاد تصرخ.

عناق أو إيماءة عين، أو ربما كلمة كفيلة بأن تقول كل شيء فجأة.

أَوَى إِلَيْهِ أَحَاهُ، مثل غيمة، والورد يخشى فجأة رحيل الساقى!

وفي غفلة من الوقت تكتشف تطاير أوراق عمرك وأنت ما زلت تبحث
عن أحد يشاركك لحظة تشبهك، لقد حرم يوسف من كل شيء، من تفاصيل
كثيرة.

وعلى ضفة بعيدة كان الطفل يحتاج إلى كل شيء!

فلله ما ضاق علينا.

ولله ما اتسع.

ولله ما كان بين الصمت والوجع!

لله ما آلت إليه الخطى.

لله الملامح التي امتلأت بزحام القلق.

لله من نثروا أرواحهم على أرضفة المواجه، وأشعلوا جمر الدُعاء، كي لا
يبرد الانتظار!

لله أول الدمع، وأول الألم، وأول الطريق وآخره، وما بين الوريد والوريد
من التعب!

لله التخلي الذي لم يكن سهلاً قط!

ولله كل من مضى نحو أطراف الحلم.

لله كل فزع إذا ثقب في سفينتنا بدا وما فهمنا أن الله أبقاها لتحتمل!

نحن هنا في سطر ما، في لحظة ما، في لقطة أو في كلمة.

نحن هنا نشبه يوسف ويشبهنا ونكاد نئن معه ونتنفس الحزن

مثله.

وفي لحظة آيلة للسقوط يسندنا يوسف!

في السورة تتكرر كلمة أخ أكثر من كلمة أب، فبينما جاءت كلمة «أب» في ثمانية مواضع، وردت كلمة «أخ» أربع عشرة مرة بالاسم الصريح، وست عشرة مرة بالضمير، فكان تكرار الإخوة أكبر عددًا من الوالدين، لأن عدد الإخوة أكثر، وتأثيرهم أكبر.

لكنَّ التكرار هنا ليس مجرد إحصاء.

بل هو علامة دالة على عمق الأثر النفسي الذي تركه الإخوة في حياة يوسف.

فالغيرة التي أشعلت نيران الحسد في قلب القصة.

عكست نفسها في التكرار اللغوي، فصار لفظ «أخ» أكثر حضورًا، كأنَّ الجرح ينطق باسمه مرارًا!

وقابل هذا التكرار، تكرار آخر لكلمة «النفس»، كأنَّ الإخوة أنفسهم تتكرر، لكنَّهم كانوا ليوسف عدوًّا!

التكرار هنا بوصلة، والعدُّ مفتاح لفهم العمق الشعوري للقصة.

والفاصلة في إيقاعها تُخبرك عن القلوب، قبل أن تُخبرك عن الوقائع.

فتكرار كلمة الأخ دال على الجرح المتكرر، تمامًا كأنَّ الكلمات تنزف مرات بعدد خناجر الإخوة!

وهذا يدل على أن التكرار هنا ليس تكرارًا سرديًّا، بل تجسيدًا شعوريًّا متكررًا لحالة الغيرة والحسد والتآمر، مع الانتباه أن «الأب» كان حاضرًا في خلفية العاطفة، لكنَّ الإخوة هم من شكّلوا امتحان يوسف، ومجده!

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَتَيْتَهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَرْقُونَ ۖ﴾ (٧)

(والسقاية إناء كبير يُسقى به الماء والخمر).

والصُّوَاع لغة في الصاع، وهو وعاء للكيل.

وتعريف {السقاية} تعريف العهد الذهني، أي سقاية معروفة لا يخلو عن مثلها مجلس العظيم.

وإضافة الصُّوَاع إلى الملك لتشريفه، وتهويل سرقة على وجه الحقيقة).

(والعير اسم للحمولة من إبل وحمير وما عليها من أحمال وما معها من ركابها، فهو اسم لمجموع هذه الثلاثة. وأسندت السرقة إلى جميعهم جرياً على المعتاد من مؤاخذة الجماعة بجرم الواحد منهم.

وتأنيث اسم الإشارة وهو {أيتها} لتأويل العير بمعنى الجماعة لأن الركاب هم الأهم).

﴿قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ﴾

قالوا وأقبلوا، فقدم القول على الإقبال وعادة السلوك أن المرء يقبل ويقترب ثم يتكلم!

لكن بلاغة التقديم للقول توحى لك بتلاصق الأنفاس حتى تكاد من فرط الارتباك تسبق الأقدام التي نجت من الجوع بالكاد!

مَاذَا تَفْقِدُونَ؟

يرف إيقاع الكلمة بقوة تنزاح بالمشهد إلى زمن بعيد، زمن كان كله فقداً! من هذا المشهد تبدأ مفردات جديدة في السطوع.

الفقد، الظلم.

الأخذ، السرقة.

الفساد، الجزاء، السجن.

يسيطر الفقد بكل مستوياته أو ربما تداعياته في حالة متكررة، تفقدون، نفقد.

يقابلها مفردة الوجد في تكرار مقابل.

ثمة ما ينثال في فراغ المشهد، حتى تشعر أن محكمة أعلنت عبر الكلمات!

يجتاح الضوء المشهد وتبدأ اللغة في كشف المنسي المخبوء!
وتبدأ الأسرار في قدر الخروج.

﴿قَالُوا نَفَقْدُ صَوَاعَ الْمَلِكِ وَلَمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ (٧٢)

يتنفسون بشهيق يفزعه اختناق مفاجئ.

حمل بعير!

تزدحم في عيونهم أكوام المؤنة وصوت هطول المطر وغنيمة باردة.
لكن فجأة يتذكرون.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ (٧٢)

والتاء حرف قسم مثل الواو لكن التاء تكون مختصة بلفظ الجلالة (الله)
وتُستعمل للتعظيم.

والإتهام الذي جاء مؤكداً بمؤكدين (إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ) كان لا بد من الرد عليه
برد مشفوع بالتوكيد، فقالوا تالله، هذا قسم يقل في لغة العرب وفيه غرابة
النكرة، وليس مما يكثر في استخدام اللغة لكن في سورة يوسف يتردد على
السنة إخوة يوسف.

قَالُوا تَاللَّهِ.

قالوا، حتى تظن أن لهم شفة واحدة ينطقون بها!

وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ، وهنا نفوا عن أنفسهم الاتصاف بالسرقة بأبلغ مما نفوا
به الإفساد عنهم، وذلك بنفي كونهم سارقين دون أن يقولوا وما جئنا لنسرق،
لأن السرقة وصف يُتَعَيَّرُ به.

وأما الإفساد الذي نفوه، أي التجسس فهو مما يقصده العدو على عدوه فلا يكون عارًا، ولكنه اعتداء في نظر العدو، تولي الكلمات ظهرها لكل هذا الإغراء في اعتراف سريع.

يمسحون عن أذهانهم رائحة الطعام، ويرفضون جميعًا جنة لم يقتربوها.

﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ (٧٦).

﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ (٧٥).

ومعنى {ما جزاؤه} ما عقابه.

وهو تحكيم، لأنهم لا يسعهم إلا أن يعينوا جزاء يؤخذون به، فهذا تحكيم المرء في ذنبه.

يا للأقدار، كيف ترتدي الأحداث نهايات المشهد؟

وتستنطق المخبوء، وتأول إلى تأويل المعاني إلى حقائقها.

ها هم يسمعون الحكم، فمن الذي ملأ رحل القافلة بيوسف بثمن زهيد!

وبقوة العدالة تتم الإجابة، كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ.

لا شيء غريب هنا سوى أن الحكم أقيم، والمكان حافل بمحاكمة قدرية بتوقيت إلهي عجيب!

ودومًا نحن في أتون قيظ ابتلاء قاتل يشد فينا أزيز أفكار متضاربة.

من ولماذا ومتى؟

كيف تتناسل الأسئلة في فوضى غير متوقعة؟

دع ما ترى وانظر إلى الخطوط الخفية في القصة، ومن أولها إلى أقاصيها أبصر ما تشع به من تدابير.

وفي فوضى ما تراه ثمة سر ومعنى.

وفي انتشار الحرائق تشيع الحقائق، وفي سواد الألوان اختمار
أقدار خفية.

وفي الصمت مفردات كثيرة.

وفي إشراق ما يطوي الله من غيب يخفي الله ما يشاء مما يشاء، والله الأمر
كله من قبل ومن بعد.

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ
كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ
نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾.

والكيد فعل يتوصل بظاهره إلى مقصد خفي.

والكيد هنا هو إلهام يوسف عليه السلام لهذه الحيلة المحكمة في وضع
الصواع وتفتيشه وإلهام إخوته إلى ذلك الحكم المصمت.

كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ، بنون العظمة الإلهية، ومن أعالي العلو تنزل.

﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ
وَلَمْ يَبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾﴾، وبكلماتهم
كانوا يذرون على جرحه ملح الذكريات!

إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ!

قطعت الكلمات حالة الذعر.

وبدت الأعشاب باهتة، وامتلات فجوة زمنية طويلة برائحة تسللت من
ثيابهم.

تلوك ألسنتهم يوسف بصلفٍ مقيت، تتقدم أقدامهم نحوه، ويُوغِلُون في
البعد.

ولا يملون من مطاردة يوسف بالظلم.

ولا يتعب يوسف من يقين النجاة!

إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ.

سرف وجهه كي لا تنزف الذكريات في عينيه.

جامعة هي الكلمات التي تستمد أنفاسها من الذاكرة، فتلزم الصمت.
لكنها النبوة.

يا الله! كيف تثير اللغة الغريبة رياحًا هوجاء في روحك؟

كيف تبقى الكلمات في أمكنتها؟

كيف تفقد صوتهها؟

وكيف تظل تنتظر توقيتًا يثار لها؟

وإذا علقت الكلمات في الحناجر، اتضح صوت الألم!

قَالَ: «أَنْتُمْ سَرُّ مَكَانًا».

«سَرُّ مَكَانًا»، وليس مكانة.

إذ بعض الآلام تخلق مسافةً لا تداويها السنون!

أنتم شر مكانًا!

ويا الله! كيف يصبح الإنسان هو الشر، وهو المكان، وهو المسافة،

وهو البعد والبعاد!

نحن عندما ننضج، ينضج معنا وعي الألم، فكان التعبير: «أنتم شر

مكانًا!».

ثمة لغة لا تعرفها الكلمات، وغالبًا ما يصمت المرء إذا تحدثت الذاكرة.

وأيما التفتت الذاكرة، ثم يوسف.

كان يراقب اللحظة، ثم تركها تمضي، فقد كان منهمكًا فيما هو أسمى!

هذا التوازن صنعته رحلة طويلة، شاء الله تفاصيلها!

و{شرُّ} اسم تفضيل، وأصله أشرُّ، و{مكانًا} تمييز لنسبة الأشرُّ.

وأطلق المكان على الحالة على وجه الاستعارة، والحالة هي السرقة، وإطلاق المكان والمكانة على الحالة شائع. وهو تشبيه الاتّصاف بوصف ما بالحلول في مكان.

كيف للغة العربية أن تنطق بكل هذه المعاني؟

﴿قَالُوا يٰٓأَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدًا مَّكَانَهُ ۖ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٧٨).

قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ! فالبشرية كلها مأخوذة باكتماله!

ملكوت شاسع من العطاء يتجول في كلمة، يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ.

ويا للعجب، كيف تهزّمهم اللحظة، والكلمة، فينطقون بما أراد الله لا ما أرادوا!

وثمة ما لا يراه الآن إلا يوسف.

إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا.

بعض الكلمات تبُلُغ بك قَمَّةَ الحُزَنِ.

تمرُّ بيوسفَ صورةٌ قديمةٌ لأبيه.

يعقوبُ في جلالِ نبوّته، وفي عباءةٍ مهيبَةٍ تشتدُّ قامته، ترى، كم مضى من الوقتِ حتّى صارَ شيخًا كبيرًا؟

وهل بعد التباعد من تدانٍ؟

تكاد تهزّمه الكلمة، لكنَّ يوسفَ، بذخيرةِ إعدادِ ربّاني، يتماسكُ.

إِنَّ لَهُ، وقد كان لي، ثمَّ ماذا؟

ثمَّ صارَ مملوءًا بالفراغ!

ومن أوّلِ العصبيةِ إلى آخرها، لم يقلْ أحدٌ منهم شيئًا عن قلبِ يعقوب.
عن مظلمةِ يوسف.

عن عمّةِ الغيابِ في الجُبِّ.

عن فداحةِ الخسارة.

ولم تكتبِ الحياةُ كُلُّها أَنَّ ثَمَّةَ عشرةً أو يزيدون اجتمعوا على قتلِ
أخيهم الصغير!

وأنَّهم عادوا إلى أبيهم على أحصنةٍ غرائزهم الفاسدة.

الثيابُ الصفراء.

الوجوهُ المليئةُ برمالِ السَّيرِ الآثم.

يُوغِلُونَ في الليل، حتَّى لا يرى يعقوبُ غسقَ وجوههم!

ظلالُهم شاهقة، يختالون، ومِثْلُ أطامٍ متعالية، يغيبُ عن يعقوبَ يوسف.

ويوسفُ هناك، في القوافلِ المتعبة، مبتلٌ بخوفه، ويمضي إلى غير اتجاه.

تتحركُ القافلةُ على منعطفاتِ الطريق، ويزدادُ السفرُ سفرًا.

إِنَّ له أَبًا.

يا للمفارقة!

كيف تذكَّرتُم أَنَّهُ أب؟!

وعلى زمنِ الصَّمْتِ الطويل، وباتِّجاهِ انتظارِ حزين، تركتم يعقوبَ ينهشُ

الهرم.

يَتَهَدَّمُ رويدًا رويدًا.

يَمُدُّ بصره، ويبيدُ مرتعشة، يُحاولُ استجلاءَ أفقٍ لا ينجلي عن الصغير.

(وقد وصفوا أباهم بثلاثِ صفاتٍ تقتضي الترقيق عليه:

حنانُ الأبوةِ.

وشيخوخةُ الجسد.

واستحقاقُ جبرِ الخاطر.

لأنَّه كبيرُ قومه، أو لأنَّه بلغَ أقصى مآلاتِ الكِبَرِ).

يا خيبة اللُغة في المحاولاتِ البائسة!

فَحُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ، يا الله، كيف يلفظُ الكذبُ أنفاسَه الأخيرة!
حُذْ أَيُّ واحدٍ من العصبَةِ مكانَ الصغير، فإنَّ الشَّيخَ الكبيرَ لا يحتملُ
فراقَ أصغرنا!

هنا، ثمَّةُ ما سقطَ سهوًا من ذاكرةِ الظُّلم!
أَيُّهَا العصبَةِ، هل يوجعُكم فقدُ الصغير؟
لقد كانتِ الكلماتُ كَمَنْ يكتُبُ نصَّ اعترافٍ أخير، ويُعلنُ أنَّ مكانَ الصغيرِ
هو حضنُ يعقوب.

لا غيابَةُ البُعد!

يا للحقائقِ الغافية في زمنِ النسيان!
كيف يبعثُها الله على ألسنةٍ من وأدوا يوسف في مقبرة الغياب!
هكذا تأتي الكلماتُ من بعيد، ويأتي معها الفجر.
فَحُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ، ترى، كيف سَمِعَهَا يوسفُ، وهو يتذكَّرُ أخذَهم
له!

ويا الله!

إلى أين يمضي الهاربون من ذاكرةِ الألم؟
ويا للظُّلمِ إذْ يُدَثِّرُهُم بعباءتِه السوداء، يتوارى بصرُهم، ولا يرونَ كيف
يُدبِّرُ الله الأقدار.
ودائمًا..

يختالُ الظُّلمُ في نصِّه الرديء، ويغفلُ عن كلمةِ الله، وهي تكتبُ سطرَ
الانتقام!

هل ندري؟

أنَّ الأقدارَ تمتطينا في رحلةِ التدبير؟

ويا الله، كم هو الغيبُ شاسع، وكم نحنُ فقراءُ البصيرة!

﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ﴾ (٧٩).

(والمعنى الامتناع من ذلك، أي نلجأ إلى الله أن يعصمنا من أخذ من لا حق لنا في أخذه.

أي أن يعصمنا من الظلم لأن أخذ من وُجد المتاع عنده صار حقاً عليه بحكمه على نفسه لأن التحكيم له قوة الشريعة.

وأما أخذ غيره فلا يسوغ إذ ليس لأحد أن يسترقّ نفسه بغير حكم، ولذلك علل الامتناع من ذلك بأنه لو فعله لكان ذلك ظلمًا. ودليل التعليل شيآن، وقوع {إن} في صدر الجملة، والإتيانُ بحرف الجزاء وهو {إذن}.

قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ.

يتشبث يوسف بالقرار فالحكاية في طريقها للاكتمال.

وبهدوء لا متناهٍ وأمام أفق الوعد الشاسع يقول: معاذ الله.

ما أشدَّ عظمة الجزاء الإلهي، إذ يعلن يوسف أن وضع أحد مكان الآخر فعل الظالمين.

أو ليس هذا فعلهم يوم أخذوه وقالوا يخل لكم وجه أبيكم، ووضعوا أنفسهم مكان يوسف!

(في هذا المشهد تكشف اللغة عن يوسف لا كعزیز في قصر، بل كقلبٍ مطعونٍ ما زال يرتجف حين تذكره الكلمات بحمى الإخوة، وبشظايا الغياب. تتكثف طبقات السرد من خلال التكرار الرمزي للفظ «أخ» مقابل «أب»، كأنَّ اللغة تعترف بعدد الطعنات وتوزيعها.

تتردد كلمة «أخ» كأنها نزيـف لا يندمل، وكأنَّ الجرح يُعيد تعريف ذاته في كل تكرار.

ويتحوَّل «الصُّواع» من إناء مادي إلى آلية قَدَرِيَّة لبدء المحاكمة الروحية للأحداث، إذ تتقاطع العدالة الإلهية مع الحكمة النبوية.

يتجَلَّى المشهد كساحة لعودة المعاني إلى أصولها: الأخ يُستعاد، الجرح يُستدعى، والذاكرة تُستفَز.

وتتدحرج الكلمات في محكمة قَدَرِيَّة تُعلن بصمتٍ أن الزمن يُمهل ولا يُهمَل.

أما يوسف، ففي ذروة الحنين والتمكين، يحتفظ بالسكينة. لا يردُّ الجرح بالجرح، بل بالعدالة.

يعود «الكيد» ليُعلن أنَّ الله هو الذي دبر، وأن يوسف ما كان ليأخذ أخاه لولا أن القدر رتَّب له ذلك.

المشهد مشحون بفلسفة القرب بعد طول الاغتراب، بلغة تنقَّب في طبقات النفس البشرية، وتعيدنا إلى أن الحكاية في جوهرها ليست فقط عن فقدان يوسف، بل عن فقدان الأخوة والعدالة، ثم عودتهما بإرادة الله، في اللحظة التي ظن فيها الجميع أنهم كتبوا النهاية).





﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ (٨١)

**بُكَاءُ النُّبُوَّةِ، بَيْنَ احْتِرَاقِ الصَّبْرِ فِي مُحَرَابِ الْفَقْدِ
وَحُزْنِ مَأْهُولِ الْبَالِقِينَ**



ثُمَّ تَنَاجَوْا، فَصَارُوا هُمُ النُّجُوى

﴿فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ (٨٢)

﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِيَ أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (٨٣)

والسَّيْنُ والتَّاءُ للطلبِ، وتوحي لك كم كانت الكلمات في محاولة إطلاقه مُنْهَكَةً.

فقد يثسُّوا بعد أن حاولوا.

والتعبيرُ: (استَيْسَسُوا مِنْهُ)، أي من إطلاق أسرِهِ، لكنَّ القرآنَ يأخذُك إلى معنى عميق، حيثُ منتهى الفقدِ، وفجأةً يجدون أنفسهم في مَنْفى اليأسِ، وهو في فَقْدٍ مفتوحٍ على كلِّ الاحتمالاتِ.

و(اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ)، حيث التعبيرُ في بلاغتهِ يَحْمِلُكَ إلى فوضى الغيابِ
في طُرُقَاتِ مجهولةٍ، ويأسٍ ما!

وفي المُقابِلِ، ثَمَّةُ ما هو خفيٌّ في المشاهدِ يَحْمِلُكَ إلى قافلةِ غابَ يوسفُ
في رحلتها المجهولةِ.

فَأَيَسَ حينها اليأسُ!

يا لله كيفَ تُصْبِحُ كُلُّ لحظةٍ هي زمنُ القِصاصِ لِمَا كَانَ منسياً!

وعلى مقربةٍ من فداحةِ اليأسِ، (خَلَصُوا نَجِيًّا)!

ثُمَّ تراهم في همسِ نجواهم مثلَ من يُغْلِقُ صوتهُ على نفسه، يخشى ما
لم يبدأ بعدُ.

أو رُبَّما بدأ!

خَلَوْا نَجِيًّا لِلْمُنَاجَاةِ فيما بينهم، ثُمَّ تَنَاجَوْا، حَتَّى صاروا هُمُ النَّجْوَى!

استيأسوا ثم انفردوا من كل شيء وخلصوا من ذواتهم وتحولوا إلى نجوى،
فتحولوا إلى مصدر الفعل بقدر ما كان الأمر يهتمهم، تحولوا إلى نجوى.

إذ لم يبق شيء من ذواتهم إلا هذه المسألة فكأنما تحولوا إلى الحدث ذاته.

وَنَجِيٌّ بصيغةٍ فعيلٍ للمبالغةِ، وبمعنى مفاعلٍ، فهو النَّاجِي والنَّجْوَى، من
شِدَّةِ ما أفاضوا فيه.

وفي لحظةٍ من غفلةٍ، صاروا هُمُ الكلماتِ، والهِمَسِ، وتَنَفَّسُوا النَّجْوَى!

قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ.

أعد السورة آية فآية لن تجد كبيرهم في كل ما أهدروا من عمر يوسف.

ترى، أين كان؟!

وفي ارتجاف اللغة.

قَالَ كَبِيرُهُمْ: أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ، وَمِنْ

قَبْلُ مَا فَرَطْتُمْ فِي يُوسُفَ.

يَنكَمُشُ ظِلُّ أَحَدِهِمْ، يُطَالِعُ كَفَّهُ الَّتِي تُشَبِّهُ الْغِيَابَ.
يَرْتَفِعُ صَوْتُ الْفَوْضَى، وَيَرْتَجِفُ أَحَدُهُمْ مِنْ وَطْأَةِ السَّقُوطِ، وَتَسْمَعُ صَدَى
انكسارٍ ما.

ربما كان صوتُ الطريقِ الفارِغِ من يُوسُفَ.
ثَمَّةُ اعترافٍ ما في ارتجافِ اللغة: وَمَنْ قَبْلُ مَا فَرَطْتُمْ فِي يُوسُفَ.
«فَرَطْتُمْ».

كَمْ تَخْتَرُنُ هَذِهِ الْكَلِمَةَ مِنْ وَجَعٍ دَفِينٍ!
الطَّاءُ والتَّاءُ تتعاقبان كأنهما شهقتانِ مُتَقَطَعَتَانِ، يَمُرُّ بِهِمَا النَّدَمُ بَيْنَ
صَمْتَيْنِ.

الطَّاءُ تَكَادُ تَذُوبُ فِي التَّاءِ، تَنْزَلُقُ نَحْوَهَا كَمَا يَنْزَلُقُ الْخَوْفُ إِلَى اللِّسَانِ.
وَحِينَ تَهْبِطُ الْكَلِمَةُ عَلَى الْمِيمِ، تَكُونُ الشَّفَتَانِ قَدْ أُطْبِقَتَا، كَأَنَّ الاعْتِرَافَ
قَدْ وُثِدَ لِلتَّو.

وَيَكَادُ صَوْتُ الْحُرُوفِ لَا يَجِرُّ عَلَى الصَّدَى، «فَرَطْتُمْ».
حَذَارٍ مِنَ الْكَلِمَاتِ الَّتِي نَحَاوِلُ إِنْكَارَهَا، فَهِيَ تَحْفَظُنَا فِي ذَاكِرَتِهَا، وَتَسْعُدُ.
وَذَاتَ يَوْمٍ، سَنَقُولُهَا نَحْنُ، بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ!
«مِنْ قَبْلُ»، فَالْلَّحْظَةُ لَا تُؤَلِّدُ مِنْ فَرَاغٍ، كُلُّ الْبَدَايَاتِ خُيُوطٌ تَمْتَدُّ مِنْ «مِنْ
قَبْلُ».

حَيْثُ تَلْتَفُّ الْحِكَايَةُ عَلَى نَفْسِهَا، وَتُعِيدُ النِّهَايَةَ رَسْمَ وَجْهِ الْبَدَايَةِ.
وَفِي تِيهِ الْحَلِّ يَصْرُخُ كَبِيرُهُمْ:
«فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ»، أَيُّ أَرْضٍ؟

هِيَ مِصْرُ، نَعَمْ، لَكِنَّهَا فِي قَلْبِ الْفَاجِعَةِ صَارَتْ كُلُّ الْأَرْضِ، وَفِيهَا تَتَسَّخَّرُ
الْمُفْرَدَةُ لِتَشْمَلَ جُغْرَافِيَا الْحُزَنِ كُلَّهُ، وَفِي ضَيْقِ الْحَادِثَةِ يَشْعُرُ بِجَسَدِهِ كَأَنَّهُ لَا
يَقِفُ عَلَى رُقْعَةٍ أَرْضِيَّةٍ، بَلْ فِي فَوْهَةِ غِيَابٍ.

وحشة تَتَّسَعُ كالأبد، قَيْنَدُ لَا يُرَى، لَكِنَّهُ يُحَسُّ.

كَأَنَّ ظُلْمَةَ البِئْرِ التي أرادوا أَنْ تَكُونَ قَيْنَدُ يَوْسُفَ، انْقَلَبَتْ لِتَصِيرَ قَيْنَدًا فِي أَرْضِهِمْ هُمْ!

والأَرْضُ التي امتلأتْ بِأَقْدَامِهِمْ، صَارَتْ ضَيْقَةً كَكَفِّ نَادِمٍ.

لَا شَيْءَ يُنْسَى عِنْدَ اللَّهِ.

لَكِنْ لِلَّهِ تَوْقِيَّتُهُ فِي الْقِصَاصِ.

وَحِينَ تَفْتَحُ سَجَلَاتِ الْقِصَاصِ، تُكْتُبُ التَّفَاصِيلُ عَلَى اتِّسَاعِ الْيَقْظَةِ.

«فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ»، دَوَارٌ خَفِيفٌ كَأَنَّ الْأَرْضَ تَنْهَارُ مِنْ تَحْتِ قَدَمِيهِ، وَلَا شَيْءَ يَسْتَنْدُ عَلَيْهِ، يَنْطَوِي عَلَى أَلَمِهِ.

وَفِي مُحَاوَلَةٍ لِإِنْقَادِ الْمَشْهَدِ يَقُولُ، ازْجِعُوا إِلَيَّ أَبِيكُمْ فَقُولُوا:

يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ.

وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا.

وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ.

وَأَسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا.

وَأَنَا لَصَادِقُونَ.

وبين بلاغة الإنكار، وصبر العارف

جاء التعبير (شَهِدْنَا).

وهنا ذُكِرَتِ الْكَلِمَةُ مَرَّةً وَاحِدَةً، لِأَنَّ الْمَوْقِفَ هُنَا أَحَادِي فِي الشَّهَادَةِ، فإِخْوَةُ يَوْسُفَ قَدْ رَأَوْا صُوعَ الْمَلِكِ عِنْدَمَا أَخْرَجَهُ يَوْسُفُ مِنْ رَحْلِ أَخِيهِ بَنِيَامِينَ، فَالْمَوْقِفُ لَا يَحْتَمِلُ إِلَّا شَيْئًا وَاحِدًا، وَهُوَ الشَّهَادَةُ بِسَرْقَتِهِ لِلصُّوعِ.

وفي الآيَةِ تَرَاهُمْ وَهُمْ يَحْشِدُونَ الْأَدْلَةَ عَلَى صِدْقِهِمْ.

فيا للمفارقة!

كَيْفَ يَزِدُّهُمْ النَّصُّ بِكُلِّ الْأَدْلَةِ، وَيَكَادُ يَخْتَنِقُ صَوْتُ كَبِيرِهِمْ بِكَثْرَةِ الشَّوَاهِدِ:

﴿وَسُئِلَ الْقَرْيَةُ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ ﴿٨٢﴾

يا لهذا الاستجماع اللغوي لكل أدوات التأكيد!

ويا مجد اللغة، وهو يشهد هذا الطوفان من الألفاظ، حيث لا فوضى في التعابير!

ويبدأ بقوله:

﴿أَرْجِعُوا إِلَيَّ أَيْبَكُمْ فَقُولُوا﴾ ﴿٨١﴾، وهم ذات حين، لم يملكوا إلا قميصاً سالمًا من أنياب ذئب البادية!

لكن التعبير: ابنك يخلو من قولهم: أخانا، وكأن السرقة لصيقة بما منك. والتعابير تفيض بما في قلوبهم.

يشيخ يعقوب بقلبه عنهم.

فهذا الأسى يُثقل ما تبقى من قلبه، يُفاجئهم ويُعلن ما استقر في قلبه:

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ ﴿٨٠﴾.

ما أقسى الألم المغموس في بقطة الوعي!

وفي مساء ثقيل، يتسلل إليه الحزن ناهشاً وهنَ انتظاره، وفي السويداء تراكم غياب كثير.

«بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا»، يا ليعقوب، فعذابه من بنيه!

ربما ستحتاج الحياة إلى ألف عام كي تتسلق إلى تعبك.

إلى الوجع المُنخوق في وجهك.

إلى مدى القهر في عينك، فقد كانوا بنيه!

يغادرهم وفي فمه، ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿٧٩﴾.

كَيْفَ لِيَعْقُوبَ أَنْ يُرْسَلَ كُلُّ هَذَا الْقَلْقِ إِلَى السَّمَاءِ؟ وَكَيْفَ لِرُوحِهِ أَلَّا تَتَاكَلَ فِي هَذَا الْمَجْهُولِ؟

كَيْفَ اخْتَمَلَ أَلَّا يَنْهَزِمَ، وَأَنْ يُكْمَلَ الطَّرِيقَ لِأَجْلِ اللَّحْظَةِ الْآتِيَةِ!
وَكَيْفَ لَمْ يَتَعَبْ مِنْ غَدٍ يَأْتِي أَنْ يَأْتِي؟ وَكَيْفَ اخْتَمَلَ بَطْءَ الْإِيَّامِ، وَمَشَقَّةَ الْإِنْتِظَارِ؟

لَقَدْ ظَلَمُوهُ كُلَّهُ.

يَوْمَ تَرَكُوهُ يَعْبُرُ كُلُّ هَذِهِ اللَّيَالِي بِصُورَةٍ كُلَّمَا كَبُرَ، بِهِتَتْ فِي عَيْنَيْهِ.
بَانْهِيَارِ الذَّاكِرَةِ مِنْ شَيْخُوخَةٍ تَفْقِدُ صَوْتَ يُوسُفَ، وَصُورَةَ يُوسُفَ، وَرَائِحَةَ يُوسُفَ.

يَا لِقَسْوَةِ مَا فَعَلُوهُ!

وَفِي نَدَاءِ الْأَسَى الْأَخِيرِ: يَبْكِي الْعُمَرُ حِكَايَةَ لَمْ تَكْتَمَلْ:

﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاسَافَى عَلَى يُوسُفَ﴾ ﴿٤١﴾

ثُمَّ حَقَائِقُ لَا تُحْكِي إِلَّا لِلَّهِ!

رَبِّمَا كَانَ صَوْتُهُ وَاهِنًا، لَكِنَّ كَلِمَاتِهِ كَانَتْ تَعْرِفُ طَرِيقَهَا إِلَى اللَّهِ.

يُوسُفَ، يَا أَوَّلَ الْمَوَاجِعِ، وَيَا جَرَحًا كُلَّمَا حَاوَلَ رَتْقَهُ انْفَتَقَ.

هَا هُوَ الْعُمَرُ يَنْقَضِي، وَيُوسُفُ لَا يَجِيءُ، تُرَى، كَيْفَ هُوَ الْخَوْفُ مِنْ نِهَايَةِ الْعُمَرِ دُونَ أَنْ تَنْتَهِيَ الْحِكَايَةُ؟

وَفِي الْعِظَامِ الْوَاهِنَةِ، وَالْأَهَامِ الثَّقِيلَةِ، وَذِكْرَى تَفْقِدُ -مَعَ كُلِّ عَامٍ- مَلَامَحَ الصَّغِيرِ..

كَانَ الْأَلَمُ كَثِيفًا!

«يَا أَسَافَى عَلَى يُوسُفَ»، سُبْحَانَ مَنْ يَخْتَبِرُنَا فِي أَعَمِّ الْحُبِّ فِي قُلُوبِنَا!
(نَزَلَ يَعْقُوبَ الْأَسَفَ مَنْزِلَةً مَنْ يَعْقِلُ، فَيَقُولُ لَهُ: احْضُرْ، فَهَذَا أَوَانُ حُضُورِكَ.

وَأَضَافَ الْأَسْفَ إِلَى ضَمِيرِ نَفْسِهِ، لِأَنَّ هَذَا الْأَسْفَ جُزْئِي مُخْتَصٌّ بِهِ، مِنْ بَيْنِ جُزْئِيَّاتِ جِنْسِ الْأَسْفِ).

فَقَدْ كَانَ الْعُمُرُ بَعْدَهُ هَكَذَا.

أَيَّامُ الْحُزَنِ الْأُولَى، ثُمَّ أَيَّامُ الْفَقْدِ، ثُمَّ صَارَتْ أَيَّامُ دُمُوعًا.

وَفِي ظِلِّ الذَّاكِرَةِ: لَا يُنْسَى مِنْ تَفَرَّدَتْ بِهِ الْأَحْزَانُ.

وَيَقِينًا لَا يَدْرِي يَعْقُوبُ كَيْفَ تَجَمَّعَتِ الْأَحْزَانُ كُلُّهَا فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ، ثُمَّ انْتَبَرَتْ.

كَيْفَ لِلْأَمْسِ أَلَا يَنْتَهِي؟ وَكَيْفَ يَظَلُّ الْحَاضِرُ مُعْلَقًا بِهِ؟

وَكَيفَ لِأَخِيرِ الْمَشْهَدِ أَنْ يُصْبِحَ أَوَّلَهُ!

تَتَقَادَمُ الذِّكْرِيَّاتُ، ثُمَّ تَكَادُ تَغِيبُ، وَاجِدَةٌ تَلَوُ الْأُخْرَى.

إِلَّا يُوسُفَ.

وَقُرْبَ الْجُمْلَةِ الْأَخِيرَةِ مِنَ النَّسِيَانِ، تَتَخَلَّى الذَّاكِرَةُ عَنْ تَفَاصِيلَ كَثِيرَةٍ، إِلَّا يُوسُفَ!

أَشْيَاءٌ كَثِيرَةٌ كَانَتْ تَلْتَمِعُ فِي عَقْلِهِ، وَتُؤْلِمُهُ بِشَدَّةٍ.

رَتَمَ مِنْ رَتَابَةِ الْقَهْرِ وَالْأَسَى، يَتَسَّعُ وَلَا يَتَوَقَّفُ كُلَّ يَوْمٍ!

لَكِنْ قَلْبُهُ دَوْمًا، هُوَ رِهَانُهُ فِي مَعْرَكَةِ الْحَيَاةِ، وَكَانَتْ هَذِهِ الْعَصْبَةُ الْبَائِسَةُ، تَتَسَلَّلُ إِلَيْهِ بِالْهَزِيمَةِ كُلِّ لَيْلَةٍ!

حَاحِلُ أَنْ يَتَوَهَّجَ كَثِيرًا، فَالْمَكَانُ مُهَيَّأٌ لِلانْطِفَاءِ!

«وَتَوَلَّى عَنْهُمْ».

كَانَتْ تِلْكَ لَحْظَةً حَزِينَةً، أَنْ يَتَوَلَّى عَنْهُمْ.

كَيْ يَتَوَقَّفَ الْجَزْرُ!

يَنْتَهَادِي اللَّيْلُ فِي سَيْرِهِ، وَلَا يَنْتَهِي، وَكُلَّمَا أَقْصَى يَعْقُوبُ الْقَلْقَ، وَجَدَهُ فَجَاءَةً فِي انْتِظَارِهِ!

تَتَّسِعُ وَحَدَّتُهُ، وَيَتَّسِعُ الضَّجِيجُ.

ولقد كَانَ يَتَشَارِكُ الغُرَبَاءَ مع يُوسُفَ، وكِلَاهُمَا كَانَا فِي وَحْشَةٍ اغْتَرَابٍ مَا.

فَهُوَ كَظِيمٌ، إِذْ كَانَ الْقَلْبُ يَخْتَنِقُ بِلَا دُمُوعٍ

﴿وَقَالَ يَأْسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ٨١

تَرَى، هَلْ كَانَ الْعَمَى احْتِجَاجًا أَخِيرًا عَلَى اتِّسَاعِ اللَّيْلِ؟

أَمْ أَنْ يَعْقُوبَ لَمْ يَجِدْ دَمْعًا يَتَّسِعُ لِهَذِهِ الْكَثْرَةِ مِنَ الْأَلَمِ؟

ولقد حَاوَلَ يَعْقُوبُ الْخَلَاصَ عَبْرَ الْبُكَاءِ، ثُمَّ جَفَّتِ الدُّمُوعُ بَغْتَةً، مِثْلَ غَيْمَةٍ

انْهَمَرَتْ بِغَرَارَةٍ.

ثُمَّ فَقَدَتْ كُلَّ مَائِهَا!

وَاللُّغَةُ تُخْبِرُكَ أَنَّ «كَظِيمًا» تَعْنِي: أَنَّهُ كَاطِمٌ لِلْحُزَنِ، لَا يُظْهِرُهُ بَيْنَ النَّاسِ،

وَيَبْكِي فِي خَلْوَتِهِ،

أَوْ أَنَّهُ فَعِيلٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ، أَي: مَحْزُونٌ!

وَكِلَاهُمَا يُشِي بِأَنَّهُ كَانَ مَلِيئًا بِالدُّمُوعِ.

وَدَوْمًا، الْأَحْزَانُ الْعَظِيمَةُ صَامِتَةٌ، وَأَقْسَى أَنْوَاعِ النَّحِيبِ، النَّحِيبُ الصَّامِتُ!

قُلْ لِي:

كَيْفَ يَفْعَلُ الْمَرْءُ حِينَ يَفْقِدُ دُمُوعَهُ؟

وَحِينَ يَشَبْتُ الدَّمْعُ فِي عَيْنَيْهِ وَالْوَمِضُ؟

لَقَدْ تَعَبَ يَعْقُوبُ.

وَتَعَبَ الْمَخَاضُ.

وَتَعَبَ الْإِنْتِظَارُ.

وَلَا رُؤْيَا فِي تَأْوِيلِهَا!

«فَهُوَ كَظِيمٌ».

يَا لِلْأَسَى، حِينَ يَخْتَارُ الْقَلْبُ أَنْ يَبْتَاعَ الصَّرَخَاتِ، إِذَا صَارَ الْوَجَعُ كُلُّكَ!
 (وابيضاض العينين ضعف البصر. وظاهره أنه تبدل لون سوادهما
 من الهزال. ولذلك عبرَ بـ {وابيضت عيناه} دون عميت عيناه. ولم يكن
 ابيضاض عينيه إلا في مدة طويلة، و{من} في قوله {من الحزن} سببية أي
 ابيضت بسبب الحزن، والحزن عادة على شيء مؤقت والأسى يكون على ما
 فات وانتهى).

كَأَنَّ شَيْئًا مَا مِنْ وَرَاءِ الْحُزْنِ أَفْرَغَ عَيْنَيْهِ مِنَ الضِّيَاءِ.
 لَقَدْ حَدَّقَ سَنِينَ فِي انْتِظَارِ ظِلِّ فَارِغٍ، وَكَانَ ذَلِكَ أَشْبَهَ بِاحْتِضَارِ بَطِيءٍ!
 فَرَاغٌ يَتَسَّعُ كُلَّ يَوْمٍ.
 وَمَعَ كُلِّ غَسَقٍ تَتَوَهَّجُ جِرَاحُ الذُّكْرَى، وَفِي الْاِخْتِبَارِ تَبْدُو اللَّحْظَةُ قَرْنًا
 وَدَهْرًا.

وَعَلَى خَارِطَةِ أَسْئَلَةٍ تَتَسَّعُ بِاتِّسَاعِ الْاِحْتِمَالَاتِ.
 كَانَ يَعْقُوبُ يَبْحَثُ عَنْ يُوسُفَ.
 وَكُلَّمَا تَبَدَّدَ الْاِحْتِمَالُ، بَحَثَتِ الْخُطَى الْوَاهِنَةُ عَنْ اِحْتِمَالٍ جَدِيدٍ!
 وَفِي انْتِظَارِ يُوسُفَ، كَانَ كُلُّ يَوْمٍ اِحْتِمَالًا، وَكَانَ الْأَمْسُ عَصِيًّا عَلَى النَّسْيَانِ
 وَالْغَدِ.

تَشْتَدُّ الْعَاصِفَةُ فِي الْخَارِجِ.
 يُرَاقِبُ يَعْقُوبُ أَشْبَاحًا بَعِيدَةً، ثَمَّةَ خَوْفٍ خَفِيٍّ يَتَدَثَّرُ بِقَلْقٍ مَا.
 يَنْهَمُرُ الْمَطَرُ بِقَسْوَةٍ، وَتَتَغَيَّرُ مَلَامِحُ الشَّيْخِ!
 طُيُورٌ مُهَاجِرَةٌ فِي مَوْسِمِهَا.
 وَغَرِيبٌ فِي بُقْعَةٍ مَا، وَمَعَ صَوْتِ الرِّيحِ، يُغْلِقُ قَلْبُهُ عَلَى الْأَمَلِ، وَيَتِمَاسَكُ!
 أَيُّ أَوْجَاعٍ هَذِهِ الَّتِي يَتَسَاقَطُ فِي مَرَارَتِهَا الْوَقْتُ؟
 وَكَيْفَ خَذَلُوهُ؟

وَاللَّهِ لَقَدْ كَانَتْ مَلَامِحُهُ الصَّامِتَةَ لَا تَقْوَى عَلَى كُلِّ هَذَا الْحُزَنِ.
 وَلَقَدْ حَاوَلَ الدَّمْعُ حَتَّى آخِرَ مَا يُمَكِّنُ أَنْ يَذْفِنَ الْمُتَعَبَ فِيهِ تَعَبَهُ، لَكِنَّ الْفَقْدَ
 كَانَ أَكْبَرَ مِنْ أَنْ يَمْضِيَ.
 كَانَ الْفَقْدُ اسْمُهُ يُوسُفُ!
 وَكُلَّمَا زَادَ الْعُمْرُ، كَانَ الْحُزْنُ يَتَوَاطَأُ مَعَ الْأَلَمِ، فَيَحْفِرُ لَهُ أَخَادِيدَ لَا هِيَ
 الْمَوْتُ وَلَا هِيَ الْحَيَاةُ.
 وَيَا لِلْوَهْنِ إِذْ يَجْعَلُ الرُّوحَ أَقْلًا تَمَاسُكًا. وَإِنَّمَا تَشِيخُ الْقُلُوبِ مِنْ شِدَّةِ
 الْوَجَعِ!

وفي النص المبارك جاء التعبير بـ (بني - حزني - الحزن - كظيم، وسبب
 اختيار القرآن لهذه الكلمات أنه يربط بينها رابط دلالي واحد، وهو اشتراكها
 في الحزن وصعوبة التحمل لكثرة المشاق والمتاعب.

الجو النفسي يسيطر على القصة في أكثر من موقف، فنجد به بارزاً في
 موقف حزن يعقوب عليه السلام على ما فعله بنوه في يوسف بادعائهم كذب
 أن الذئب قد أكله. ويتضح هذا في قوله تعالى (قال إني ليحزنني أن تذهبوا
 به وأخاف).

ثم يستمر هذا الجو النفسي في تتابعه ونسج خيوط هذه القصة إلى أن
 تنتامي أحداث القصة فتبلغ العقدة ذروة النص في قوله تعالى (وتولى عنهم
 وقال يا أسفي ويبضت عيناه من الحزن فهو كظيم).

حيث ابيضت عيناه عليه السلام حزن على يوسف حتى صار في درجة
 أكثر من الحزن، هو أنه صار كظيماً أي كاتماً لحزنه وغضبه وهذا أشد من
 التنفيس عن غضبه).

وبين القسم والصمود والهزيمة:

﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوْا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ
 الْهَالِكِينَ﴾.

ها هم يقرعون قلبه بخذلانٍ جديدٍ.

تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ.

كُلُّ كَلِمَةٍ كَأَنَّهَا سَلَسِلٌ وَأَقْفَالٌ.

وعلى شفاههم تَمَادَى الحَرِيقُ، ومثل جرف هار كانَ ما يَقِيّ منهم يَتَسَاقَطُ في الكلماتِ.

والمُقَسَّمُ عليه بالتاءِ يَكُونُ نادرَ الوقوعِ، لأنَّ الشَّيْءَ المُتَعَجَّبِ منه لا يَكْتُرُ وقوعه، ومن ثَمَّ قَلَّ اسْتِعْمَالُ التَّاءِ إلَّا مع اسمِ الجلالة، لأنَّ القسمَ بِاسْمِ الجلالة أقوى القسمِ.

والتاءُ فيها زيادةٌ معنَى، وهو التعجُّبُ، وكأنَّهم يَرَوْنَهُ الصمودَ الواهِي!

ومعنى {تَفْتَأُ}: تَفْتَرُ، والمعنى: لا تَفْتَرُ في حالِ كَوْنِكَ تَذْكُرُ يُوسُفَ.

ومن معانيها (سَكَّنَ) بمعنى مستمر لأنه عندما لا يسكن فهو مستمر، وأطفأ النار (يقال فتئ النار) ومن معانيها نسي (فتئت الأمر أي نسيته). فكلمة (فتأ) لها ثلاثة معانٍ: سَكَّنَ وأطفأ النار ونسي.

كأنما هناك نار تحرق جنبيه لم تنطفئ مع مرور الأيام ولا ينسى.

أتساءل، كيفَ للأبناء أن يُرسلوا آباهُم إلى كُلِّ هذا الحُزَنِ العميقِ؟

ما أقسى أن تَكْتَبَ الحياةُ كُلَّ ذلك!

نحن نَسْتَعِيرُ أَيَادِي مَمَّنْ لَنَا كِي نَفُكَّ بِهَا ضَفَائِرَ الحُزَنِ، لكنَّ الهَزِيمَةَ إذا

كانت أيديهم هي الهَلْعُ كُلُّه!

وفي سوء أدب قالوا توبيخًا لعاقبة حزنه:

حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ، وَأَنْتُمْ مَنْ تَرَكْتُمُوهُ عَلَى نَارِ

الشُّوقِ حَافِيًا!

و{حَرْضًا} مَصْدَرٌ هُوَ شِدَّةُ الْمَرَضِ الْمُشْفِي عَلَى الْهَلَاكِ، وَهُوَ وَصْفٌ
بِالْمَصْدَرِ، أَيِ حَتَّى تَكُونَ حَرْضًا، أَيِ بَالِيًا لَا شُعُورَ لَكَ. وَمَقْصُودُهُمُ الْإِنْكَارُ
عَلَيْهِ صَدًّا لَهُ عَنْ مُدَاوِمَةِ ذِكْرِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى لِسَانِهِ.

لأنَّ ذِكْرَهُ بِاللُّسَانِ يُفْضِي إِلَى دَوَامِ حُضُورِهِ فِي ذَهْنِهِ.

فَهَلْ يَفْهَمُونَ أَنَّ مَوْتَ التَّفَاصِيلِ أَوْجَعُ لِلْقَلْبِ، وَنَبْضُهَا أَوْجَعُ لِلذِّكْرِ؟

وَبَيْنَ يَعْقُوبَ وَبَيْنَ الْعَصْبَةِ.

يَشْتَدُّ الصَّقِيعُ فِي حَاضِرِ الْأَسَى، وَلَا يَدُّ دَافِئَةً تَطُوقُ هَذَا الْأَلَمَ.

وَفِي جَعْلِهِمُ الْغَايَةَ الْحَرْضَ أَوِ الْهَلَاكَ، تَعْرِيفُ بَأَنَّهُ يَذْكُرُ أَمْرًا لَا طَمَعَ فِي
تَدَارُكِهِ، فَأَجَابَهُمْ بَأَنَّ ذِكْرَهُ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَوْجَّهٌ إِلَى اللَّهِ دُعَاءً بَأَنْ يَرُدَّهُ
عَلَيْهِ. لِأَنَّهُ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ يُوسُفَ لَمْ يَهْلِكْ وَلَكِنَّهُ بِأَرْضٍ غَرِبَةٍ مَجْهُولَةٍ.

وَحِينَ يَتَقَاتَلُ الْحُزْنَ وَالْيَقِينَ يَقُولُ:

﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٨١).

وَرِغْمَ خَوَاءِ الْوَاقِعِ وَثِقَلِ التَّشَبُّثِ بِالْأَمْرَيْنِ مِنَ الْيَقِينِ، ظَلَّ وَجْهَ يُوسُفَ
يَلُوحُ مِنْ بَعِيدٍ.

كَانَ يَعْتَرُ عَلَيْهِ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ مِنْ حَيَاتِهِ، وَفِي ثَرَاءِ الْحَنِينِ لَهُ كَانُوا يَغِيبُونَ.

تَرَى مَا هُوَ الْأَلَمُ؟

هَلْ هُوَ الْوَعْيُ بِهِ حَتَّى الصَّمْتِ؟

وَلَقَدْ بَقِيَ يُوسُفَ ذَاكِرَةً وَوَجَعًا وَأَلَمًا، وَفِي اللَّيْلِ الْكَالِحِ كَانَتْ الْعَتَمَةُ تَزِيدُ

سَوَادَ الْمَشْهَدِ.

وَبِقَرَارِ الْوَهْمِ أَرَادُوهُ مَنْسِيًّا، وَفِي وَهْمِهِمْ شَأْوُهُ سَرَابًا.

(وَفِي هَذَا التَّتَابُعِ وَالتَّدْفِقِ الْحُضُورِيِّ لِمَادَّةِ (الْحُزْنِ) فِي الْمَشْهَدِ، مِنْ
خِلَالِ عَنَاقِيدِهَا الدَّلَالِيَّةِ، يَشْتَدُّ التَّمَاسُكُ بِرِبَاطِ مَتْنَيْنِ يُشَيِّعُ بَيْنَ ثَنَائِيَا النَّصِّ،



﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بِنِي وَخِزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾

فتسمعُ صوتًا بلا صوتٍ، صوتًا يختفي فيه الصوتُ، ويتجاوزُ إلى ما وراء الصوتِ، وهو يقولُ: إنما أشكو بثي!).

يتوسدُ ذكرياته.

وعلى يقينِ الوعدِ الشاهقِ: لا خسارات في الطريقِ إلى الرؤيا.

وفي همسٍ طويلٍ، يتمُّ يعقوبُ مناجاته، يا مولاي وإلهي، حنانيك على الوجع!

يا الله، (أنت وحدك من تُنجي من به غرق).

نحن هنا نشارك يعقوب يقينه أننا بالدعاء نشدُّ كلَّ ما نأى عنا، ندعو ثم ننتظر ميلادَ الأشياء.

ولا أحدٌ يقدرُ أن ينقصَ مسافةَ الحزنِ، قدرها أنها تزيدُ ولا تنقصُ إذا لم يطوها قدرٌ من غيبِ الدعاء!

(والشكوى بهذا القصدِ ضراعةٌ، وهي عبادةٌ، لأنَّ الدعاء عبادة.

وصار ابيضاضُ عينيه الناشئُ عن التذكرِ الناشئُ عن الشكوى أثرًا جسديًا ناشئًا عن عبادة).

صمتَ يعقوب، وفي ضيقِ الصمتِ يقرضُ الكتمانُ منسأةَ القلبِ.

وفي رجفةِ الأطرافِ التي يَبَسَتْ في انتظارِ الفرَجِ.

تتوهجُ لماذا؟!

رُبَّما هذا هو سؤالنا في الأحداثِ الغامضة.

لماذا؟!

نحن في مرحلةٍ ما.

تبحثُ عن الحكمةِ فتتوه في فراغِ الإجابة.

نتساءلُ، لماذا نُقيمُ في الحُزنِ طويلًا؟

ولماذا تتماذى الدموعُ في أوجاعنا كأنه لا شفاءَ منها؟

ويا ظمًا السَّرابِ حينها إذا فَقَدْنَا الأملَ.
نحن نتوقف عن الأملِ إذا تسَلَّلَ شلالُ اللاجدوى إلى قلوبنا.
إذا امتلأَ الأفقُ بفراغِ الغيابِ، وإذا امتلكتنا معنى لا أدري وأكادُ لا أرى!
لذا كان الأملُ هو حصانةُ الروحِ في مواجهةِ ألمِ الفقدِ.
وأن نبقى في الآمالِ التي تستهلكُ العمرَ خيرًا من أن يصطفَ الحزنُ
بجانب الحزنِ، ثم تباغتتنا انهياراتُ الفاجعةِ.
فيا مولاي..

نَعُوذُ بِكَ مِنْ ذبولِ السعيِ في مُنتصفِ الطريقِ.
ونعوذُ بِكَ مِنْ انطفاءِ الروحِ بِخَفْيِ اليأسِ.
ونسألكَ عَيْنَ اليقينِ.
حتَّى نرى وعدَكَ بارزًا، ونسمعَ صوتَ السُّقيا في أباريقِ الفرحِ.
حتى كأنَّ الحُجَبَ ما كانتْ، ولا مَنَعَتْ أَعْيُنُنَا من رؤيةِ ما ينتظرُ المُتعبونَ
في نهايةِ الطريقِ.

أنت اليقينُ إذا ما استفاضَ على القلبِ الشكُّ!
(والبثُّ هو الهمُّ الشديدُ، والتفكيرُ في الشيءِ المسيءِ.
والحزنُ الأسفُ على فائتِ).

فبينَ الهمِّ والحزنِ العمومُ والخصوصُ الوجهي، وقد اجتماعا ليعقوب عليه
السلام لأنه كان مهتمًّا بالتفكيرِ في مصيرِ يوسف عليه السلام وما يعترضه
من الكربِ في غربته، وكان أسفًا على فراقه.

وقد أعقب كلامه بقوله: {وأعلم من الله ما لا تعلمون}.
لينبِّههم إلى قصورِ عقولهم عن إدراكِ المقاصدِ العَالِيةِ، وليعلموا أنهم
دون مرتبةِ أن يَعْلَمُوهُ أو يَلُومُوهُ.

أي أنا أعلم ما عند الله علَّمني إياه لا تعلمونه، وهو علم النبوة).



وعلى بساطِ المناجاة، دَنَا يَعْقُوبُ ورَأَى من ربه ما رَأَى.
وَشَكَا لَهُ كُلَّ الوجَعِ.

كان يَعْقُوبُ زَمَنَ فقرنا جميعًا يومَ نَبِئْتُ لله شَوْقًا خَفِيًّا.
يومَ تُخْبِرُهُ وأنتَ تخشى البوحَ لسوَاهُ، أَتَوَقُّ إلى لَحْظَةٍ، وحدَكَ تَعْلَمُ مداها،
أَشْنَهِي فرحها..

وأدعو بها، فالدعاء جَنَّةُ الذينَ لا مَأْوَى لهم!
أَعْلَمُ أَنَّ لديَّ من الفقرِ ما يَمْنَعُنِي من الحُلمِ، ولكنَّ الدعاءَ وسادةَ الْمُتَعَبِينَ!
رُبَّمَا في الصَّمَتِ تزدادُ الأمنياتُ تَغْلَغَلًا، مثل حُزْنٍ عَتِيقِ.
لكنَّ الهمسَ الخَفِيِّ لك، يَحْمِينِي من انهيارٍ ثَقِيلِ!
سَاعِدْنِي..

أَنْ يَظِلَّ البِساطُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ مَمْدودًا، وَعَنِ النَّاسِ مُغْلَقًا!
حَنَانِيكَ..

فإِنِّي أَحْسَبُ يَدِي إذا امْتَدَّتْ إِلَيْكَ، مَلَأَى.
فلا تَخْذَلْنِي.

فالدُّعاءُ غِنَايَ الوَحِيدِ!

في هذا المشهد، يبلِّغُ الأُسى ذِروته، وتَتَكَثَّفُ المفردات حول عَتِيَةٍ من
الحزنِ لم تَطْطِها البشريَّةُ من قبل، حيث لا يُحْكَى الوجعُ إلا بالله، ولا تُنادى
الأَحْزَانُ إلا باسم يوسف.

هناك، في منعطفٍ موحِشٍ من العمر، يقفُ يَعْقُوبُ لا ليستسلم، بل ليختار
أَنْ يكونَ كَظِيمًا، يغلي قلبه ولا يبوح.

الحزن هنا ليس دَمْعَةً تنحدر، بل روحًا تَذْبُلُ حتى تَبْيِضَ العيون، لكن لا
يخبو الرجاء.

تتقاطع الحروف بين بثٍّ وشكوى وصمتٍ عظيم، يسكبها يعقوب في
سجادة الدعاء، فتُشرق من جهات النداء كلماتٌ لا يقدر عليها إلا نبيٌّ.

مشهد يشتبك فيه الصراع بين الأبوة والنبوة، بين القلب والبصيرة، بين
حزنٍ مأهولٍ باليقين، وصبرٍ لا يشكو إلا لخالقه. ما تزال الرؤيا حاضرة، وما
يزال الله حاضرًا في صمت العارفين، وفي صبر الأنبياء، وفي كل نداء خفيٍّ:
«إنما أشكو بثي وحزني إلى الله...».





﴿يَبْنِيْ اَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَآخِيهِ﴾ ٢٠٥

الحنين إذ يغدو فعلاً نبوياً موقناً



فتحسسوا، بنبض القلب، فلعن الحنين دليل للرؤية

﴿يَبْنِيْ اَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَآخِيهِ وَلَا تَأْنِسُوا مِنْ رَّوْحِ
اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْنِسُ مِنْ رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ ٢٠٥

تَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ، قالها بملء القلب.

فقد كان يبصره في كل الليالي الثقيلة، كأنه يقين الرؤيا، أو يكاد!

كانت الرؤيا، وكان عليه أن ينتظر أزمنة لم تصل بعد، ومن الدعاء غزل له
ثياباً للشتاء، واصطبّر لرحلة ليست قابلة للإيضاح.

تحسسوا، والتحسس: شدة التطلّب والتعرّف، وهو أعم من التجسس.

فهو التطلّب مع اختفاء وتستر.

والرّوح بفتح الراء: النفس.

استُعِيرَ لكشِفِ الكَرْبِ، لَأَنَّ الكَرْبَ وَالْهَمَّ يَسْكُنَانِ فِي ضَيْقِ النَّفْسِ، وَضَيْقِ
الصدرِ.

يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا، فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ.

فالقلبُ (إذا حَزَنَ استدعى أحزانه كُلُّها).

لكن، كيف لجرح أن ينزف من جرح مضى! وكيف يجتمع في الصوتِ
حُرْقَةُ ماضٍ وحيرته؟

كيف يُقاتِلُ الآباءُ عن أبنائهم حتى آخر نَبْضَةٍ، وآخر تنهيدةٍ، وآخر احتمالٍ؟

وكيف، في خيبة المسافاتِ، يَقِفُونَ مُتَعَبِينَ؟

وما كان أولَ الظنونِ، صارَ آخرَ اليقينِ، وكيف تصونُ الذَّاكِرَةَ نَبْضًا دُونَ

نَبْضِ؟

لا قُوَّةَ فِي الْأَرْضِ تُوقِفُ نَبْضَ قَلْبٍ تَوَسَّدَ فِيهِ يَوْسُفُ، ثُمَّ تَسَيَّدَا!

لقد كان في مكانٍ من القلبِ لم يُمسَّ قبلَهُ مُطْلَقًا، كان يوسفُ شاهقًا،

وكانت هذه مأساته!

وفي خضم الحسدِ، لم يُصْغِ أَحَدُهُمْ لِنَبْضِ يَعْقُوبَ!

ظَلٌّ يَنْتَظِرُ، تُرَى، كيف احتملَ قلبُهُ لِهَاتِ الجريِّ وراءَ كُلِّ الظلالِ المجهولةِ؟

كيف احتملَ صباحاتٍ ظَلَّتْ مَفْتُوحَةً عَلَى تَعَبٍ يَرْتَقِبُ؟

وبعدَ كُلِّ غروبٍ، كانتِ تَذوي المسافاتِ.

وَعَدَتِ الْإَيَّامُ بَعْدَهُ حُزْنًا عَلَى حُزْنٍ، وَشَوْقًا عَلَى شَوْقٍ، وَلَهْفَةً وَوَجَعًا.

ثُمَّ هَا هِيَ ضَعْفٌ عَلَى ضَعْفٍ، وَوَهْنٌ عَلَى وَهْنٍ، يَذْرِفُهُ كُلُّ يَوْمٍ دَمْعًا.

وبين الرؤيا والواقعِ، نَمَّةٌ قَلَقٌ، هل انتعلَ الموتُ خُطَاهُ؟!

وفي الليلِ، سؤالٌ جَرِيحٌ: مَنْ أَوْرَثَهُ كُلَّ هَذَا الْوَجَعِ؟

وفي قلبٍ لم يَعُدْ فِيهِ مُتَسَّحٌ لِلْأَلَمِ..

كان الصمتُ بينهُ وبينهم جدارًا شاهقًا، وهكذا كانوا يتسرَّبونَ من عينيه كلَّ ليلة!

ما أثقلَ الأثبوةَ في قلوبِ الأنبياء!

وعلى اتِّساعِ الابتلاءاتِ، شمالًا وجنوبًا، يَزِيدُ الأسى، حتى كأنَّ النبيَّ عزاءَ الحياةِ كُلِّها!

كان هذا هو النداء الأخير قبل ظهور الرؤيا، يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ.

فقد كان هُنا، قريبًا من القلبِ.

فقد كان في أمانِ الدعاءِ.

وفي حفيفِ التسبيحِ، وصوتِ الرُّوحِ تتوسَّلُ:

اللهمَّ جُدْ علينا بالصبرِ ريثما تمضي حكمتك.

وفي فوضى ما لا نفهمُ، أَنْتَ المرجوُّ يا الله، هَبْ لنا في العُمُرِ مُتَّسَعًا.

وهَبْ لنا معه الطمأنينةَ بعدَ الهَلَجِ.

ف ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِيَنَّكَ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿٢٠٧﴾.

فقد كان الممكنُ عندَ يعقوبَ يقينًا!

وفي الفراغِ منهم، كان قلبُهُ ما يزالُ سيِّدَ الموقفِ، فقال: تحسَّسوا.

و[إنَّ] للتعليلِ.

والمعنى: لا تياسوا من الظَّفَرِ بيوسفَ عليه السَّلامُ، ولو طالَتْ مُدَّةُ البُعْدِ التي يَبْعُدُ معها اللقاءَ عادةً.

فإنَّ اللهَ إذا شاءَ تفريجَ كُربةٍ، هيأَ لها أسبابها.

(في هذا المشهد تتكثَّفُ لحظة النداء الأخير ليعقوب عليه السلام، في نزوة الانتظار والألم، حيث يتحوَّل الحنين إلى فعلٍ نبويٍّ مُوقن: تحسَّسوا، طلبٌ ليس من العيون، بل من القلوب.

إنَّه نداء من رجلٍ صار قلبه مرآةً للرؤيا، يُبصر بالغيب، فالتحسُّس هنا فعلٌ روحي، تجاوز التَّجسُّس الحسيَّ إلى البحث بالبصيرة، بمجاهدة اليأس، وباستدعاء كلِّ ما في الرُّوح من أملٍ وصدق.

وبين جراح الأبوة النبوية، وضيق الصمت الذي أقامه الفقد بينه وبين أبنائه، ينبض هذا النداء كنورٍ أخير على عتبة الكشف. وفي بلاغة الآية: «إنَّه لَا يَيْئَاسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ»، علوُّ العقيدة على حساب المنطق الظاهر، إذ لا يؤمن بالمستحيل إلا من أيقن بالقدرة الإلهية، فاليقين هنا لم يكن عُكَّازًا للعجز، بل دليلًا لعودة النور من شقِّ الجراح).





﴿أَنَا يُوسُفُ﴾

سيد الغربة وسيد المنفى وسيد المشهد وسيد الكلمات



**لقد كانوا يعرفون الاسم الذي منحه يعقوب له،
لكنهم ينطقون بالاسم الذي وهبه الله له!
ووحده الله من تكتمل له الكلمات!**

تصطف القوافل ويبدو الازدحام مهولاً على أبوابٍ مِصْرَ، حتى كأنَّ
البشريةَ ترثي بقاءها.

فلقد كان العالمُ كُلُّهُ يتوسَّلُ خُبَرَ العافية من مِصْرَ!
السَّلاَلُ في الأيدي الواهنة فارغة، تَهِيْمُ في آمالِ العثورِ على خبزِ البقاءِ.
تَتَوَهَّجُ السَّنَابِلُ في خَزَائِنِهَا، وعيونُ الطوابيرِ مُعَلِّقَةٌ على سياجِ الانتظارِ.
تجتازُ القوافلُ، قافلةً قافلةً، أبوابَ القصرِ، فيظهرُ إيوانٌ واسعٌ، يَحْفُهُ
جمالٌ أخاذٌ، وفي توزيعٍ هندسيٍّ مهيبٍ، يقفُ على مقربةٍ من يوسفَ العزيزِ
حاشيةٌ تنتظرُ الأمرَ.

وكلّ القوافل التي تحرّكت منذ شَقْشَقَةِ الفجر، تنتظر لحظة الدخول عليه.
يهربون إليه من آلاف المخاطر.

الوجوه المحروقة بهجير الرحلة، والمسحوقة من شدة الجفاف.
طوفان بشريّ جاءه من الأعشاش المهجورة، من الأخاديد الجافة، والجدوع
الفارغة، والآبار المتعفنة.

الوجوه مُتعبة، شاحبة، طافحة بالخوف، منهكة من فراغ السّلال.
الملامح غارقة في صمت المجاعة، وعلى حافة الهاوية يحاولون التوازن؟
الحرس يُراقبون كلّ شيء، والجميع منهمك بسلال الحبوب، وصناديق
القمح.

كان البعض يحتشد بأقدام حافية في ساحات واسعة لأجل المؤونة، وفي
جلية العير والعربات المُنقلة، ويّباس الأوراق الجافة تحت حوافر الخيل، كانت
الطواير تخشى عدم اكتراث الأيام!

تصل العصبّة إلى الإيوان، وينطقون:

﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزَجَّلَةٍ فَأَوْفِ لَنَا
الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ ﴿٨٨﴾.

يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ.

لقد كانوا يعرفون الاسم الذي منحه يعقوب له.
لكنهم ينطقون بالاسم الذي وهبه الله له، ووحده الله من تكتمل له
الكلمات!

وبين أن تكون ملء أنين الجرح، مُنهدًا على ضفة مُتْهالكة.

وبين أن تكون أنت سيّد المنفى، وسيّد المشهد، وسيّد الكلمات!

وسيد القمح، وسيد الغفران!

وبين الأجنحة المكسورة، وبين القدرة على التّحليق.



كان يوسفُ هو القَدَرُ الفاصِلُ بين العجزِ والتمكينِ!
(والمُزجاةُ: القليلةُ التي لا يُرغَبُ فيها، فكأنَّ صاحبَهَا يُزجِيهَا، أي يدفعُهَا
بكلفةٍ ليقبَلَهَا المَدْفُوعُ إِلَيْهِ).

والمُرَادُ بِهَا مالٌ قليلٌ للامْتِيَارِ، ولذلك فرَّعَ عَلَيْهِ:
{فَأَوْفٍ لَنَا الْكَيْلُ}.

إِذِ الثَّمَنُ زَهِيْدٌ، بَخْسٌ، لا يَلِيْقُ بِالْمَطْلُوبِ!
يا للمفارقةِ!

أليس هذا هو قصاصُ ما مضى؟
يَوْمَ رَمَوْهُ لِيُبَاعَ بِثَمَنٍ بَخْسٍ، دراهمَ معدودةٍ؟!
وطلبوا التَصَدُّقَ مِنْهُ تَعْرِضًا بِإِطْلَاقِ أَخِيهِمْ، لَأَنَّ ذَلِكَ فَضْلٌ مِنْهُ، إِذْ صَارَ
مَمْلُوكًا لَهُ.

يوسف الشاهد والمشهود

يَتَمَلَّلُ الْعَزِيزُ عَلَى عَرْشِهِ، وَيَحْدَقُ إِلَى أَعْيُنِهِمْ وَيَهْدُوهُ شَاسِعٌ يَقُولُ:
﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ ﴿٨٩﴾.
(هل) هنا بمعنى «قد»، وهي للتوبيخِ والتَحْقِيقِ، وفي حرفٍ واحدٍ فقط،
يَجْمَعُ يَوْسُفَ التَّأَكُّيدَ والتوبيخَ.

كَأَنَّ الْحَرْفَ لِحِظَةَ الْقِصَاصِ الْكَامِلَةِ!
يَتَصَبَّبُ الْعَرَقُ بَارِدًا مِنْ وَجُوهِهِمْ.
يَتَوَزَّعُهُمْ خَوْفٌ مَسْعُورٌ، وَيَكَادُ الْخِيَالُ يَذْوِي مِنْ فَجِيعَةِ الصَّدْمَةِ.

يوسف؟!

هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ؟
ونصفُ المعنى يَقُودُ إِلَى طُوفَانٍ مِنَ الْأَسْئَلَةِ.
فجأة..

الأسرارُ الدفينة تُشعُّ مثلَ شرارةٍ مُلتهية، تنثالُ أشعةُ الحقيقةِ، ويُطبقُ على أعينهم ضبابٌ دَوَّارٌ غريبٌ.

ولا أحدٌ، لا أحدٌ مطلقاً يحتجُّ على التُّهمةِ، فهم يعلمونَ تماماً ما فعلوا بيوسف!

لماذا؟

لأنَّ يوسفَ وحده الشاهدُ والمشهودُ.

يوسف وحده من يعلمُ ما فعلوا بيوسفَ، يوسف فقط من يعلمُ ماذا فعلوا بيوسف!

تقودُهم الكلماتُ عبرَ أقبيةِ الذاكرةِ.

يَثورُ صَخْبٌ في أروقةِ النسيانِ، ويمتطيهم جنونُ اللحظةِ، هل يمكنُ أن يكونَ هو؟!

وفي صعودٍ مُتعبٍ، يَجُرُّ أحدهمَ نظراتِهِ.

يشعرُ كأنَّ قلبه قد فَرَّغَ من الدماءِ، وامتلأ بالرَّهبةِ والفرعِ.
فجأةً..

أصبحَ القاعُ أكثرَ برودةً ووحشةً، ومع البردِ، فيضُ من الأسى.
وبينَ الفراغِ والحيرةِ، ثَمَّةُ ارتباكٍ يملأُ العيونَ، كيف حدثَ هذا؟
فذاكرةُ العصبيةِ هناك.

هناك، على حافةِ بئرٍ مُتهدِّمةٍ، حيثُ خَفَتَ نبضُ يوسفَ.

صمت في قبضة الاعتراف

كم تبقى من صوتِهِم، لولا أنَّه منحهم مُتْكَأً (إذ أنتم جاهلون) عليه
يَسْتندون!

هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ؟ حيثُ يُثْبِتُ لهم العلمَ
في أولِ الكلامِ.



ثم الجهل في خاتمته!

تتعارك المعاني، كيف للعلم أن يكون هو الجهل؟ لأن كل علم مآله الفساد والظلم، فحقيقته: الجهل التام! وبأنفاس مُجهدية:

﴿قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ﴾ ﴿٥٠﴾

احتشد الماضي كله غصة في حُلوقهم، إنك ليوسف؟!

يتسلقون الجواب حرفاً حرفاً، فقد كان شاهقاً كثيراً، وعلى بساطِ القدر كانت خطاهم تسير.

يُنهِكُهم الهروب، وها هم أمام ما ظنوا أنه ضاع في النسيان.

إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ؟!

كان المشهد مرآة روحية عميقة، يتقاطع فيها الصوت والسكوت، العلم والجهل، الحضور والغياب، الذنب والتجلي، كان لحظة الانكشاف الكبرى ورغم الوعي واللاوعي، وفي تناقض وتقابل مُدهش، تمر آلاف التفاصيل. وكل في عين المقابل يرى الماضي في حاضره!

ما أشدَّ صَحَبَ هذه اللحظة!

أنت يوسف! كان فوق الواقع والخيال، وكل توقعات الانفعال!

ثمة ما يدركونه الآن: أن الأمس لم ينته!

حقول من الصمت تعصف بها رياح الدهشة، وفي ارتعاش أصواتهم تنكشف حُجُب الغيب.

وفي خلوة مليئة بضجيج رعبهم، استيقظوا على تراكم ما فعلوه!

يُحاول أحدهم أن يرتب ما بقي منه، ينهار أحدهم لحظة لحظة، ولا يد ترممه!

صمت هائل، وعينه تلمع في أعينهم.

إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ؟!

لا شيء يستطيع أن يملأ صوتهم، فقد كان الموقف فوق حدود الخيال!
 وإذا توارى المعنى، انكشف! وفي ذروة الغموض، يتبدى وضوح القدر!
 ظل أحدهم صامتاً، كأن الفجيعة سلّبت صوته إلى العدم.
 وبينما تزدهم الأنفاس في الكلمة الأخيرة، يلم بقايا انهياره بكلّ وهن
 روحه، وما تراه يلم شيئاً!

قَالُوا أَلَيْكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ؟!

تلك لحظة اشتعال وانطفاء في تناقض غريب، ترى من أين يأتي هذا
 البريق الهائل؟

تتخدر أجسادهم بوهن ثقیل، ثمة إرهاق، كأن أرواحهم تقطرُ زيتَ النهاية!
 وعلى مدى بعيدٍ يمتدّ صدى أنينٍ مكتوم.
 من غياية الجُبّ.

يتناقل نبض أحدهم شيئاً فشيئاً، يتهدّم في داخله غرورٌ قديمٌ.
 ويزدهم رأس أحدهم بتفاصيل صغيرة، عيناه مُقفرتان، وكلّ ما فيه يكتظُّ
 بصوت يوسف الصغير.

ثمة ذكريات تخرجُ واهنةً، مرتجفةً، باهتةً، لكنها تُشعُّ بقوة.
 ثمة لقطة تكسو ملامحه ونظراته، وفجأةً، أشياء كثيرة نهضت للحساب!
 (وتأكيد الجملة بـ {إنّ})، ولام الابتداء، وضمير الفصل، لشدة تحقّقهم أنه
 يوسف عليه السلام.

فلا أحد يعلم ما فعلوا بيوسف إلا يوسف! ثم أدخل الاستفهام التقريري
 على الجملة المؤكدة.

لأنهم تطلّبوا تأييده لعلمهم به. وكان جوابه بـ {أنا يوسف}، مجرداً عن
 التأكيد، لأنهم كانوا مُتحقّقين!).

أنا يوسفُ، لحظة الانكشاف الكبرى، ويا لكبرياء اللحظة!

تلك لحظة لا تُقاس، إنما تُسجلُ فقط!

واللغة فيها هي الشعور!

قَالَ: أَنَا يُوسُفُ، دونَ أداة تأكيد واحدة!

«يوسف»، كلمة كتبتها السماء بلون الحقيقة، وبصمتٍ نضجٍ طويلاً.

أنا يوسف!

فأنا الموعدُ، وأنتم النسيانُ.

وأنا الأمس واليوم، وأولُ الغد وما بعدَ بعدٍ، وأنتم بقايا الماضي.

تلك لحظة تجلُّ هاديٍّ نحو الأعلى، لحظة تمتلئُ بكلِّ الثنائيات:

فجأة، الدهشة، وقسوة الخيبة، نعم، ولا، انتصارُ العثورِ عليه، والهزيمةُ

بين يديه.

لحظة ممطرة بالغيث، وربما رعدٌ وبرق!

كَانَ كُلُّ وَجْهِهِ مِنْهُمْ يَخْتَرُّ انْهِيَارَاتِهِ الْخَاصَّةَ، وَهُوَ يَتَأَمَّلُهُمْ بِهَدْوٍ، فِي

مقارنةٍ ثقيلة!

أنا يوسفُ، كَيْفَ تُبَدِّدُ كَلِمَةً كُلَّ وَجْعِ الذَّاكِرَةِ؟!

ترى، كيف نظروا إلى عمقهم وأدركوا أنهم كانوا في غيابة جب الذات!

وأخبرني:

كَيْفَ يَبْدُو الْعُمُرُ دُونَ مَعْنَى الْمَعْنَى؟!

وها هم في المنتصفِ، بين الحقيقة والمحاكمة.

لِلْغِيَابِ صَوْتُ يُرَبِّكُ ذَاكَرَتَهُمْ.

أنا يوسفُ، وحيثما تمرُّ الكلمة، تُشعلُ معها فتيلَ الذكريات!

الذاكرةُ المكتظةُ أمامَ مرآةِ المآلِ، يرتفعُ ستارُ الماضي، وفي خيالاتٍ

شاحصة..

تسبحُ الصورُ الْمُغَيَّبَةُ وتوقظُها اللحظة.

ويستحيلُ بعدها الخروجُ من بوابةِ تلكَ اللحظة!

وكانت الكلمةُ على قياسِ بصرهم المحدودِ.

الذي يرى ما يرى.

ولا يرى ما لا يُرى!

لا يرى ما بعدَ الرؤى، لا يرى «عَمَّا قَلِيلٍ لِيُصْبِحَنَّ نَادِمِينَ!».

فجأة!

يأخذُ منهمَ القدرُ كرهاً، وكَرْهًا اعترافًا مهيبًا، ودفعةً واحدةً، يقفونَ على

أنقاضهم!

يقفونَ على بدءِ خريفٍ طويلٍ.

وفي عينيه الصامتتين، كانوا يرونَ جنازةَ أحلامٍ واهيةٍ.

يهرع الحاضر في مضمار الأمس، ومن البئر ينتبه للمسار، فقد كان البدء

هناك حيث سينتهي هنا!

﴿وَهَذَا أَخِي﴾ ﴿٩﴾

والقلبُ يشمُّ رائحةَ القلبِ.

فقط هو أخِي، من يُشاركني الأعباءَ، بل من أُنْقَاسُ معهُ صمَتَ السنينِ.

لا ظلٌّ للعابرينَ إليه، لا ظلٌّ للغائبينَ، فهذا فقط، هَذَا أَخِي!

وهذا أخِي، كأنها تقول: وهذا أخِي، أما أنتُم! فرغمَ ازدحامِ الوجوه، ظلُّوا

في القلبِ عُصبةً!

﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ ﴿١٠﴾

ها هو خيالُ الكلمةِ يطى وجودهم، وهم مثلُ علامةٍ تعجَّب امتلأت بالدهشةِ.

قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا، أمَّا هم، فقد بلغتْهم الهاويةُ!

﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿١١﴾

عمرٌ كاملٌ يا يوسفُ، معنى الكلماتِ، نبضٌ بعدَ نبضٍ، اللهفةُ الصابرةُ، الأحلامُ الجائعةُ.

وقميصٌ يلهثُ في براءتِكَ!

لكن، إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ، عاش في غُربةِ الثباتِ، وكان الثمنُ باهظًا!

وفي مناكِبِ الأيامِ، كان اللهُ في وَحْشَةِ الطريقِ.

الاعتراف على أعتابِ المجد

﴿لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ ﴿٢١٧﴾

هل كانتِ اللغةُ أداةً تحايلُ؟ أم أن المشهدَ لا يحتملُ سوى الاعترافِ؟

آه، إِنَّ إكمالَ الناقصِ من الحقوقِ، ليسَ اكتمالًا.

ها هم يمدُّونَ يدهم إلىه لينتشلَهُم من غيايةِ الفقرِ، وقد مدَّ لهم يده في غيايةِ الجُبِّ، فخذلوهُ!

يطويهم الله، وَيَبْسُطُ لَهُ.

يا أيها العزيزُ، ثُمَّ لَأَنْتَ يوسُفُ، وكان الإصغاءُ للشكلِ، خطيئةً!

ترتدي أرواحهم صمًّا ثَقِيلًا، مفعمًا بضجيجِ الأسئلةِ.

صمَّتْ مَفزَعُ.

تتعلقُ الكلماتُ في منتصفِ الحديثِ، فهُنا الكلماتُ الشاقةُ، والشاقةُ إلى حدِّ الذُّهولِ!

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ ﴿٢١٨﴾

كلمةٌ حرَّكتْ كلَّ الزمنِ الراكِدِ.

وخطأُ النتيجةِ، بعدَ كلِّ وعورةِ الإثمِ، أشدُّ فتكًا من مشقةِ المسافةِ!

لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ.

وكلُّ الذين علقوا في ذواتهم ذاتَ يومٍ، صاروا رماذًا.

هل سبقهم يوسفُ في حصادِ الزمنِ؟
 هل تجاوزَ الوقتَ، أم أنه كان يتضاعفُ، وكانوا هم يتلاشون؟
 هؤلاء الذين اقتسموا غنيمةَ ضياعه، ينظرونَ إليه في غبشِ الذهولِ!
 كلُّ خطوةٍ في وحدتهِ، كانت تُقَرِّبُه من تفردهِ، وعلى وجهه بدا شروقُ
 أقدارٍ كثيرةٍ.

مكتبة

t.me/soramnqraa

وعلى وجوههم كان الغروبُ داكنًا!
 فهل كانوا اللامعنى؟
 ثمة ما استيقظ من سباتٍ عميق، تبدو الوجوه مثلَ مرايا تختنقُ بالذكرياتِ.
 كيف أهدروا أعمارَهم في وهمٍ نسيانهِ؟ وكيف للفهمِ أن يُؤوَّلَ حزنًا؟
 ها هو شاهقٌ أكثرَ من خيالهم، وأحلامهم بدت بحجمِ ذواتهم!
 كانوا هم ملءُ الأمسِ.

وكان هو ملءُ الآن وما بعدَ الآتي!
 ما أشقَّ أن تُدركَ الروحُ مدى فراغها!
 كانت النهايةُ صامتةً، وتتسعُ لكلِّ الصخبِ الذي يُزلزلُ خيالاتهم.
 الهواءُ مأهولٌ برائحةٍ مخدولةٍ، بصورةٍ مُلقاةٍ على رِفِّ النسيانِ.
 وفي التدبيرِ، من الذي يملكُ رؤيةَ خفيِّ يدِ الله؟ ومعنى أن قيطَ الأيامِ زائلٌ،
 وغيثُ الرؤى آتٍ.

وإن كُنَّا لَخَاطِئِينَ، الآن.
 وإنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ.
 ثم، وإنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ، قبل، وبين الكلمة والكلمة، كان الخطُ خطيئةً.
 وإن كُنَّا لَخَاطِئِينَ، هذا حقيقةٌ كلُّ ما مضى.
 ووحدَه يعقوبُ..

كَانَ يَسْمَعُ نَبْضَهُمْ وَهُوَ يَقُولُ: فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا.

وعلى عرشِ التَّجَاوُزِ..

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ
الرَّاحِمِينَ﴾.

دعاء بأن يغفر الله تعالى لهم.

كَيْفَ مَنَحَهُمْ أَمَانَ الطَّمَأْنِينَةِ، وَيَدُهُ مَثْقَلَةٌ بِتَلْوِيحَةٍ ظَلَّتْ عَالِقَةً فِي غِيَابَةِ
الْجُبِّ؟

كَيْفَ تَوَقَّفَ عَنِ الِهَمِّ بِهِمْ، وَفِي خُطَاهُ خُطَى كَثِيفَةً؟

«لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمْ»، وَمَاذَا عَلَى الْقَلْبِ إِلَّا التَّخْلِي؟ وَمَاذَا عَلَى الْحَرْفِ إِلَّا
يَقُولُ؟

خَطُّ الْإِبْتِلَاءِ كَانَ يَقُودُ إِلَى التَّمْكِينِ.

فَمِنْ مَحَنَةِ الْبَيْتِ، إِلَى فَتْنَةِ الْقَصْرِ، إِلَى اخْتِبَارِ الْمُلْكِ.

وَكَلَمَا اشْتَدَّ الْإِبْتِلَاءُ، زَادَهُ اللَّهُ فِي التَّمْكِينِ.

إِذْ بَعْدَ الْبَيْتِ: «عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا».

وَبَعْدَ فَتْنَةِ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ وَالنِّسْوَةِ: سَجْنٌ يُبْلَغُهُ تَأْوِيلَ الْأَحَادِيثِ.

ثُمَّ بَعْدَ مَدْرَسَةِ السَّجْنِ: «اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ».

ثُمَّ بَعْدَ الْخَزَائِنِ: اخْتِبَارُ التَّجَاوُزِ.

وَكَلَمَا تَصَاعَدَ الْإِبْتِلَاءُ، وَدَقَّ الْإِخْتِبَارُ، اقْتَرَبَ يُوسُفُ مِنَ الْعَرْشِ.

فِي هَذَا الْمَشْهَدِ الْعَاصِفِ، تَتَكَشَّفُ الذُّرَى الْأَخِيرَةُ مِنْ مَشْهَدِ الْإِعْتِرَافِ
وَالْإِنْكَشَافِ، وَتَتَعَانَقُ ذُرُوءُ الذَّنْبِ مَعَ ذُرُوءِ الْعَفْوِ، عَلَى مَسْرَحٍ رُوحِيٍّ فَرِيدٍ.

يُنَادِي الْقَحْطُ الْقَوَافِلَ عَلَى أَبْوَابِ مِصْرَ، وَالْعَالَمَ يَهْرَعُ إِلَى «الْعَزِيزِ»، فِي

حِينَ يَهْرَعُ الْإِخْوَةُ إِلَى الْمَصِيرِ!

ما بين «يا أيها العزيز» و«أإنك لأنت يوسف؟» نَفَقُ من الدهول والدهشة،
ومن الجهل المتعالي إلى العلم المُهَيِّمِ.

اللحظة ثَقِيلَةٌ بأصداء البئر، تُطِلُّ من كلِّ زاوية فيها كلُّ تفاصيلِ الألم:
البضاعة المزجاة، التهمة الصامته، الدم المُراق، القميص، الاعتذار، والتثريب
المسكوت عنه.

إنه مشهدُ التصفية الروحية الكبرى، حيث يتبدَّى يوسفُ وقد صار نبياً
للعفو، وملكاً على ذواتهم.

لم يكن عفوه عاطفياً، بل تتويجاً لمسارٍ من الاختبارات، بلغت فيه النبوءةُ
أعلاها: من غياية الجُبِّ إلى عرش التمكين، ومن مؤامرة الإخوة إلى لحظة
القصاص الرحيم.

وهنا يُستكمل قوسُ الرؤيا، ويستقيم قَدْرُ يوسف، فكما أظهره الله في
الجُبِّ، أظهره فوق عرش الرحمة. الكلمة الفصل كانت: لا تثريب عليكم اليوم،
وهي ليست غفراناً فقط، بل إعلان نبوءة: أن الله هو أرحمُ الراحمين، وأنَّ
القلبَ حين يكتملُ، يغدو موطناً للعفو لا للحساب.





قميص الشفاء

﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا﴾ ١٧ -

وما القميص إلا رائحة المعنى في الرؤيا



قميص التأويل: حين تفوح رائحة الرؤيا

﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا
وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ١٨ .

كَانَ بَدْءُ الْحَزَنِ لِيَعْقُوبَ: ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ ١٩ .

وكانت نهاية الحزن: ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا﴾ ٢٠ .

و«القميص» باختلافِ مواقفه الثلاثة، مع دعوى الذنب، ودعوى الاعتداء،
وأمرِ الذهاب، أحدثَ تماسكًا نصيًا عجيبًا، فقد كان القميصُ هو «الدالُّ على
الحقيقة» في كلِّ مرَّة.

في الأولى: سُلِبَ قميصُه.

وفي الثانية: قُدَّ قميصُه.

وفي الثالثة: أرسلَ قميصَهُ كاملاً، كاكتمالِ الرحلة!

كان يوسفُ يُرسلُ بإشارةِ المعنى إلى يعقوبَ، ويختزنُ في سلامةِ القميصِ، سلامةَ يوسف.

ولأول مرة، يمتلكُ يوسفُ قميصَه، ويمتلكُ قرارَ الأمرِ فيه!

ورائحةُ الملكِ، ونعيمُ القصرِ وروائحُ العطور وبخور عتيق وحرير الفضل وملمس القميص، كل تلك كانت إشارة التمكين ومعنى الرؤيا، فإذا شمَّها يعقوبُ، أبصرَ يقينَ الرؤيا.

وكانَ هذا فهماً عالياً من يوسفَ، والملك لا يهب قميصه إلا لأهله!

قميصي هذا الذي أردتِ فيه رائحة الملك ومعنى الرؤيا.

ولقد كانَ يعلمُ أن يعقوبَ ينتظرُ إشارةَ التأويل، إذ ثمة سرٌّ غائرٌ في كينونةِ القميصِ، يختزنُ كلَّ التأويل.

كان يكفي أن يشم يعقوب القميص لكي يجد يوسف ويلتقط معنى الرؤيا، وبين يقينه في المرة الماضية حين رأى القميص مضرجاً بالدماء أنهم دبّروا أمراً، سيكون يقينه الآن أن القميص معنى المنتظر!

يهتز يعقوب، ويرتجف كله، فقد كان القميص هو المعنى.

يكاد الشيخ لا يتماسك تحت وطأة المفاجأة، تنهمر عيناه في دمع البصيرة.

ثمة بكاء في وقت ما لا ندري كنهه، ربما هو الفائض من حزن بلغ نصابه في عمرنا.

وحين يركم الحزن بعضه فوق بعض نصبح مهيبين لهطول لا نهائي.

أحياناً نحن ننتظر لحظة ما كي ننهمر في بكائية نغتسل فيها، ثم نبصر بها، ثم ندرك أنها دموع لا تشبه ما سبق، فارتد بصيراً!

ارتد بمعنى رجع إلى حاله الأولى.

فهل كانَ القميصُ هو الباحثُ عن يعقوب؟

أَمْ كَانَ هُوَ الْمَبْحُوثُ عَنْهُ؟!

ثم قال ﴿وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿١٣﴾ كانت الشق الثاني من الرؤيا.

فلا سجود ولا خضوع إلا باكتمالهم!

ولقد أدرك يعقوب كل ذلك!

كَانَ يَكْفِي يَوْسُفَ أَنْ يَطْلُبَ أَبَاهُ بِدَايَةِ، لَكِنَهَا لَحْظَةً الْفَضْلِ بَعْدَ الْعَدْلِ.

وكان في إحسانه فوق ما يظنون.

إِذْ مَا كَانَ لِيَفْرَحَ يَعْقُوبُ بِهِ فِي نَقْصَانِ الصُّورَةِ مِنْ إِخْوَتِهِ، وَكَانَ هَذَا إِحْسَانًا عَجِيبًا!

رِيحُ يَوْسُفَ: أَوَّلُ الْحُضُورِ بَعْدَ الْغِيَابِ.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ ﴿١٤﴾.

يبدو الوقت مليئاً بملحمة أسطورية، يعجز العقل عن فهمها.

ثُمَّ اتِّصَالَ غَامِضٌ بِسِرٍّ غَامِضٍ، وَالرُّوحُ تَسْمَعُ مَا فَوْقَ الصَّوْتِ وَاللُّغَةِ!

وَفِي زَحْمَةِ الْأَسْرَارِ وَالْمَسَافَاتِ وَالْحُجُبِ، يَجِدُ يَعْقُوبُ رِيحَ يَوْسُفَ.

«إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يَوْسُفَ»، يَا إِلَهِي، أَمَا زَالَ فِي الْغَيْبِ مَا يَكْفِي مِنَ الْأَمَلِ؟!

تَفْيِضُ الْكَلِمَاتِ مِنْ فَمِ يَعْقُوبَ، تَسْمَعُ فِيهَا تَنْهِيدَةً، وَابْتِسَامَةً، وَتَوَجُّعًا.

الْمَكَانُ عَابَقَ بِرَوَائِحِ الْإِنْتِظَارِ، وَرَائِحَةُ مُلْحَةٍ تُوقِظُ الزَّمْنَ، وَفِي قُوَّةِ الْحُبِّ،

مَا يَطْوِي الْبُعْدَ!

هَلْ هُوَ هُوَ؟!

تُثِيرُ اللَّحْظَةُ طُوفَانَ التَّسْأُولَاتِ، أَنْفَاسَ الشُّوقِ، وَفَرَحًا مُؤَجَّلًا.

الْأَحْلَامُ الَّتِي احْتَشَدَتْ فِي الرَّمَقِ الْأَخِيرِ مِنَ الْإِنْتِظَارِ، آخِرُ احْتِمَالٍ لِلِقَاءِ كَادَ

أَنْ يَكُونَ مُسْتَحِيلًا.

الوهنُ في بقايا ذاكرةٍ اشتاقت كثيراً.

ينبضُ قلبه بقوة: «إني لأجدُ رِيحَ يُوسُفَ»، فقد كانت رِيحُ يوسفَ، لحظةَ النهايات.

«أجد»، وليس «أشم»! فالفاقدُ لا يعرفُ إلا مفردةَ «الوجد»!

وبطريقةٍ قلبٍ، هرولَ يعقوبُ نحوها.

وقال «ريح»، وليس «رائحة»، إذ الشَّمُ يكونُ بالأنفِ، أما الوجدُ، فبالعقلِ، والقلبِ، والحواسِّ كُلِّها.

وما يكونُ الوجدُ إلا بعدَ الفقدِ، وفي هذا إشارةٌ إلى أن يوسفَ اقتربَ حضوره، وأولُ ذلك، الريح.

فكانتِ الريحُ بدءَ وجوده!

وفي الريحِ، صوتُ خُطى الإياب.

لقد غابَ يوسفُ، وظلَّ يعقوبُ ثلاثينَ أو أربعينَ سنةً على صهوةِ الأملِ، ينتظرُ وعدَ الله.

«إني لأجدُ رِيحَ يُوسُفَ»، قالها مؤكِّداً، رغمَ خَوْفه من أن يُنسبَ إلى الخَرَف.

كانَ على ثقةٍ أن اللهَ سيجمعه بيوسفَ، تحقيقاً للرؤيا.

ولذلك أكَّدَ هذا الخبرَ بـ «إِنَّ» و«اللام»، لأنه مظنةُ الإنكار.

ولذلك أعقبه بـ {لولا أن تفنَّدون}، والتفنيدُ: هو اختلالُ العقلِ من الخرف.

﴿قَالُوا تَأَلَّهَ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ ﴿١٥﴾

يا لسوءِ الأدبِ مع أبٍ نبيٍّ وكبير!

القَسَمُ، وأداةُ التأكيدِ، واللامُ، وفي: كُلُّها لأجلِ وصفِ الحُبِّ بالضللالِ، وأنَّه ضلالٌ قديمٌ!

ومَعَ كَلِمَاتِهِمْ يَبْدُو الْمَكَانُ فَائِضًا؛ بِكُلِّ أَسْبَابِ الْوَحْشَةِ وَالْوَحْدَةِ.
وَفِي كُلِّ كَلِمَةٍ، نَمَّةٌ مَا يُشَوِّهُ الْإِنْسَانَ.

كَانَتِ الْعَصْبَةُ شَحِيحَةً بِالْحُبِّ، وَكَانَ الْمَكَانُ سَخِيًّا بِكُلِّ مَا يُؤْذِي الرُّوحَ.
وَفِي التَّعْبِيرِ بِالظَّرْفِيَّةِ مَجَازٌ فِي قُوَّةِ التَّلْبُّسِ، غَارِقٌ فِيهِ، وَتَائِهٌ فِي لَجَّةِ
الضَّلَالِ.

وَاللَّهِ لَقَدْ كَانُوا هُمْ بَيْنَ الشُّكِّ وَالرَّيْبِ، وَكَانَتْ كَثَافَةُ الذَّنْبِ تُبْقِيهِمْ فِي عَتَمَةِ
الْجَبِّ.

حَتَّى إِذَا الْغَيْبُ جَلَّى سِرَّهُ عَلَنَّا، أَدْرَكُوا أَنَّهُمْ كَانُوا فِي أُبْعَدِ الطَّرِيقِ!
وَمَعَهُمْ كَانَ الْمَكَانُ مُهَيِّئًا لِلانطفاءِ، وَكُلُّ الطَّرِيقِ الْمُؤَدِّيَةِ لِلنَّجَاةِ كَانَتْ
تَضِيعُ فَجْأَةً، كَأَنَّ يَدًا تَمْنَعُ الصَّخْرَةَ مِنَ الْانْفِرَاجِ، لَكِنْ يَقِينُهُ كَانَ دَوْمًا رِهَانَهُ
فِي مَعْرَكَةِ الْإِبْتِلَاءِ.

﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ
لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (١٦).

الْفَاءُ لِلإِسْتِثْنَاءِ، فَقَدْ اِمْتَلَكَ يَوْسُفُ عَنَانَ التَّأْوِيلِ، وَابْتَدَأَتْ خَاتَمَةُ
الرُّؤْيَا!

وَإِذَا مَضَى الْأَسَى، أَقْبَلَتِ الْبُشْرَى عَلَى الْبُشْرَى، فَسَبْحَانَ مَنْ أَسْرَى عَنِ
الْقَلْبِ مَا أَسْرَى.

وَمِنْ أَقَاصِي الْهَوَاجِسِ إِلَى لَحْظَةِ انْتِهَاءِ تَضَارِيِسِ الْغِيَابِ.
تَدْنُو الرُّؤْيَا، وَتَتَنَفَّضُ عَنْ مَلَامِحِ الرُّوحِ كُلِّ الْأَسَى.

و[أَنْ] بَعْدَ {لَمَّا} التَّوْقِيتِيَّةُ لِلتَّأَكِيدِ، وَفَائِدَةُ التَّأَكِيدِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ تَحْقِيقُ
هَذِهِ الْكِرَامَةِ لِيَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَيَلِيقُ بِهَا خُلُودُ التَّفَاصِيلِ، وَفِي مَعْنَاهَا:
(إِنَّ الْمَصْدُوعَ فِي رِيهِ جَبْرًا)، وَلِلظَّامَتَيْنِ مِنْ زَمَزَمِ الْوَعْدِ فَرْحًا!

وَعَلَى حَافَةِ الْغَفْرَانِ كَانَ الْوَعْدُ، سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ.

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا أَسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ (١٧).

يقفون أمامه والكلمات تشبههم، فكيف يشبه الإنسان كلمة فارغة تُحْدَقُ إليه من شدة هشاشتها؟

(وجاء اعترافهم هذا مؤكِّداً بمؤكِّدٍ واحدٍ: «إِنَّ»، في حين جاء اعترافهم أمام أخيه: «إِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ» بمؤكِّدين. وذلك لدلالة عميقة: فلقد كان يوسف هو المقصود بالإساءة، وهي إساءة متعمَّدة، جاءت إثر قرارٍ ظالمٍ، بينما لم يكن أثر ذلك على أبيهم مقصوداً لذاته. فلما وقفوا أمام من أرادوا إيذاءه، وقد أصبح ذا قوَّةٍ وسُلطانٍ، كانوا أشدَّ حرصاً على الاعتذار إليه، لذا جاء اعترافهم مؤكِّداً أكثر).

يعقوب وعدهم بالاستغفار أما يوسف فدعا لهم ابتداءً أن الله يغفر لهم.

وبينَ ما سبقَ وما لحقَ جُرْحُ يحاولُ أن يتعافى!

﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (١٨).

ينظر إليهم وهم يتوسلون العفو، وفي لحظة مباغتة، تجمَّعت أمام عينيه آلاف الخطوات الآتمة.

حواف النوايا السوداء، وبكامل يقظته قال: «سوف»، سوف وليس «سأستغفر».

كيف استطاعَ حرفُ أن يكتبَ شعورَ ماضٍ بأكمله؟

حرفٌ واحدٌ، هو أصدق ما يعبر عن كُنْهِ ذاك الأسى.

في لحظةٍ ما..

ربَّما يمضي الألم، لكن يبقى المذاق!

وسوف، كأنها موعدٌ مع القيامة!

يا للأبدية الأعمق، كيف يصبحُ حرفاً مدى لا منتهى لحدوده؟

سوف، قالها يعقوب، وتركهم عالقين في غياية الانتظار.

سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ، بلا أسماءٍ، وحافيةٌ منهم الحروفُ، كأنهم على سطرٍ حاشيةٍ هامشيةٍ.

وفي السورة، كلُّ الحروفِ، والكلماتِ، والمواقفِ، واللمحظاتِ.
تفاصيلُ قصاصٍ يحملُ كلَّ شخوصِ المشهدِ إلى أقصى مستوياتِ
المواجهةِ مع الذاتِ.

حيثُ الأحرفُ والأحداثُ خيوطُ رفيعةٌ تنسجُ شباكَ معنى ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا
لِيُوسُفَ﴾ ﴿٧٦﴾.

فتمتلئُ اللغةُ، وتحرُسُ المعاني، وتفيضُ طواعيةً بمرادِ الله!
(في المشهد، القميص ليس مجرد ثوب، بل نبوءة مرئية، وعنوان للحقيقة،
ينقلب فيه البصرُ إلى بصيرة، حين يلمسه وجهُ يعقوب.
لحظةٌ «إني لأجدُ ريحَ يوسف» تضيءُ المعنى المتعالي للحبِّ النبوي،
حيث شَمُّ الريحِ لا يكونُ بأنفٍ، بل بـ «وجدٍ» يضجُّ بالحواسِّ كلها.
ويأتي الردُّ من الأبناء مشبعًا بالجحود: {إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ}، لكنَّ
يقينَ يعقوب كان راسخًا في الله لا فيهم، في رؤياه لا في رؤيتهم.
ومع إلقاء القميص، تلقى على وجهِ العالمِ كلُّه رؤيا التأويل الأخيرة،
فيبصر يعقوبُ.

كان الحدث فصل النهايات الكبرى: حيث القميصُ يحسمُ التأويل، والريحُ
تبشِّرُ بالحضور، والبصيرةُ تُشفى من حُمى الغياب، والحروفُ تذوبُ في
معنى أعلى، في لحظةٍ واحدةٍ: نجا يوسف، وشُفي يعقوب، وانكشفتِ الرؤيا.





ورفع أبويه على عرش التاويل

ف ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ ١٣٠



مَدُ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا

فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبواه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمين. والأمن: حالة اطمئنان النفس وراحة البال وانتفاء الخوف من كل ما يخاف منه، وهو يجمع جميع الأحوال الصالحة للإنسان من الصحة والرزق ونحو ذلك، ولذلك قالوا في دعوة إبراهيم عليه السلام رب اجعل هذا البلد آمناً، إنه جمع في هذه الجملة جميع ما يطلب لخير البلد. وآوى، تَمَدُّ الألفُ صوتها الَّذِي كَانَ عَالِقًا فِي الْغِيَابِ، وَتُصْبِحُ فَعْلًا بعد أن صَمَتَتْ فِي الْإِنْتَظَارِ طَوِيلًا.

وتتكرر المفردة في مشهدين فقط، مع أخيه ومع أبويه فهم المأوى ومن يستحقون الإيواء والتكريم، والبقية كانوا عصابة! والتعبير بـ (إِنْ شَاءَ اللَّهُ) يُوحِي لَكَ بِالْمَعْنَى الْكُلِّيَّةِ. لا شيء يَجْرِي إِلَّا بِمَشِيئَةِ اللَّهِ، وَالْقِصَّةُ فِي كُلِّ النَّفَاصِلِ دَلِيلُ ذَلِكَ كُلُّهُ.

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَأْتِبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ
رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ (١٣٠).

وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا، كما رآها قبل بضعة وأربعين
الْمَا!

وفي الصورة تقابل رهيب، فالوالدان يرفعان والعصبة تخفض سجودًا!
وكان ذاك بعض الجزاء!

خروا له، وانخفضوا وكان مكانهم ما هبطوا إليه!

ها أنت يا يوسف في يقينِ الأثوابِ التي تَنْتَظِرُ مواعيدها، والأبوابِ
التي ظَلَّتْ في انتظارِها!

وها أنت على عرش التأويل كله!

وها هي..

الأفعالُ تُخْبِرُكَ أَنَّ الزَّمَنَ موجةٌ عميقةٌ، وعلى حينِ غِرَّةٍ ترى الماضي كأنَّهُ
حاضرُ اللحظة.

وفجأةً يَخْتَفِي الخطُ الفاصلُ بينَ الماضي والحاضرِ.

وترى برجًا شامخًا من الأوجاعِ قبلَ أن يَصِلَ إيقاعُ الألمِ إلى ذروته.

يَظْهَرُ الرَّاحِلُونَ والمُنْسِيُونَ والباقُونَ على مسرحِ الأحداثِ جميعًا.

وَيُعْلِنُ يوسفُ خِتَامَ المشهدِ.

وَيَحْتَشِدُ الزَّمَنُ كُلُّهُ في قولِ يوسف: قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا!

ويُنْتَهِي زَمَنُ كَادَتْ أَحْلَامُهُ في عَيْنِ الواقعِ على بابِ الأقولِ تَقِفُ.

وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا، تحيةً وتكرمةً له وتعظيمًا فإن السجود كان عندهم يجري

مجراها.

وكان هذا معنى الرؤيا.

وها هي الرؤيا رؤيا الحق وقد جعلها ربِّي حقًا.
هنا لحظتُنا جميعًا.

هنا نحنُ نتشاركُ مع يوسفَ ذِكرياتٍ خَلَّتْ، كان أصعبُ ما فيها:
أن تمرَّ بك النُّهارات، لا مبالية.
ويَهْزَمُكَ الصُّباح، إذ يجيءُ من الإجابة فارغًا!
تتضوّر حوائجك للإجابة جوعًا.
وما ترى الأسباب تمد جناحها!
والله..

إن بعض اللّيلالي لو تنطقُ، لقاتلَتْ: كم كانت النّوافذ في وجهنا حينها
خرساء!

كان الوقتُ يمضي عبر جراحنا، وكلّما توغلنا في الأيام، أخبرتكَ الأيام:
أنّه لا سبيل إلى الأحلام!
في زمنٍ ما من تاريخك، تَفْقِدُ الغيمات ظلّها، وتتعرف على مذاق الإحساس
البائس!
في زمنٍ ما من تاريخك، تبدو التفاصيل كلّها مخنوقة، وفيها حَشْرَجَة
الموت!

في زمنٍ ما من تاريخك، تحملُ انكسارك وتصدّع!
وفي لحظةٍ ما من المشيئة الإلهية يصبح هذا الزمن المنتهي ذكرى، إذا
مَسَّتْها هَزَّتْ فيك جذع الوجع طويلاً!

هل تذكر كيف كنت ترى الانتظار، باهتًا ممسوسًا بلون المَشيب!
كيف كُنْتَ تحرثُ الفَراغ، فلا ينبت لك إلا صَمْتُ الانتظار!
وكيفَ كان كُلُّ صوتك، غارقًا في التوسُّل لله!

وكيف كنت تَسهر على شِمْعةٍ يقينك، تُوقدها بتكرار الدعاء، وتخشى ذات ليلةٍ، أن تفقدها!

وكيف كنت تصرخ يا رب، لا تجعلني فريسةً لليأس!
تتوسل إليه، يا الله، أخاف أن يخذلني صبري.

مَنْ ذا الذي لا يخاف من ذاته؟ مَنْ تراكم جروحُه؟ مَنْ وخزِ الهزيمة؟
وَمِنْ صمت الفراغ القاتل!

ربما كنت تناجيه، لستُ نبيًّا يا مولاي.

ولنَّما أنا روحٌ تحاول الإيمان، وأخشى في اللحظات الدامية، الانزلاق!

يا رب الانتظارُ عتبه هُشةً، لا يثبت عليها إلا المُتصلون بك!

تَضجُ إليه فجأةً بكلِّ الجزع، فيُسلمك إليه!

لكنَّك لا تراه، فقط ترى دُعاءً لا يَكتمل، ترى دُموعك الحبيسة، خلف المآقي!

ترى نفسك تَتلو في كُلِّ خطوةٍ، طموحك الذي يحتضرُ بين يديك!

ما أقسى..

أن تكون واقفًا على وعدٍ عالق، لا تدري إن سَقَطَ كم سيتساقط منك معه!

لكن في عَيْنِ الله، المسافات قَريبة، وفي أعيننا نراها بعيدة.

﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۖ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ۚ﴾ ﴿٧﴾ المَعارج.

وبَيْنَ المُنْعَطَفِ الأخير، والشَّطر الأخير في الرِّحلة، قد تُردِّك شَطِيئةٌ، قد تُردِّك كلمة.

قد تُردِّك المسافة المُتبقية!

تلك المسافة قبل النُّقطة النهائية، تصبح فجأةً طويلةً جدًا.

كأنَّها زمن الكون كُلِّه!

ها أنتَ تقتربُ من حافة الانتهاء.

لكنك مسكونٌ بالخوف، من أن تصل، وقد صرت كومة أنقاض!
الاختبار هو أحلامنا المعلقة على جدران الأيام، وهو تواريخ ميلادنا
الحقيقية.

وعواصف القلق التي تغير نبضات القلب فجأة.

هل تدري..

أن تجربة النجاة لا يفهمها إلا من عاش التجربة؟
إلا من كان لا يملك إلا صوته في محارب المناجاة، في امتداد السحر!
من ينسى كل الأوقات التي أجبرتنا على البكاء.
كل الروائح الثقيلة التي كنا نخشى أن تلتصق بنا، كل الوجوه التي كانت
تحسن نعيق الألم!

الملامح التي تختزن كمًا هائلًا من الحزن المخبأ.
الرسائل التي عبرت الجهات، وما درى أحدكم كان مِدادها ينزف!
الذكريات التي عجزنا عن تدوينها، فقد كانت فوق اللغة!
والأحلام التي يأس الشوك من اغتيالها، كيف ظلت نديّة؟!
بل كيف تسلّقت من أخمص الصبر، حتى شاق الانتظار.
كيف يمتت نحو السماء.

وظلّت تخضب الأفق، بابتهالات الرجاء.

كيف أورقت من سلسبيل الدُموع!

يا لسرّ الأحلام!

إن جعلت سقياها من ماء الدُموع!

تظل في الانتظار وفجأة دون مقدمات..

يتدلّى لك التأويل.

فتنطقُ:

هذا تأويل الدعاء.

{قَدْ جعلها رَبِّي حَقًّا}!

فيا عَوْدَةَ الروح حينها..

ويا عَوْدَةَ المَفْقُود!

هل تعلم أنك تقطفُ صَوْتَك في الليل، حينَ يتعلَّق الإيمان بالمُسْتَحِيل؟

تقطفُ هَمْسَك الخَفِيِّ، حينَ تؤمن بِقُدَاسَةِ القُدرةِ الإلهية!

في هذه الذروة المتوجِّة من السرد، يُعلن يوسفُ خاتمةَ رؤياه وقد اكتملت أحداثُها: {قد جعلها ربي حقًّا}. لكن التأويل هنا لا يعني مجرد تطابق الحلم مع الواقع، بل يشير إلى اللحظة التي يُثمر فيها الصبرُ، وتغدو المشيئةُ الإلهيةُ مرئيةً كما لو كانت نصًّا مُنجزًا.

يُرفَع الأبوان على العرش، ويسجد الإخوة، ويصبح العرش تأويلًا للرؤيا. وكل التفاصيل السابقة تُستحضر هنا كثقلٍ رمزيٍّ: جراح الانتظار، وجوع الدعاء، وشحوبُ الصبَاحات، وسكونُ النوافذ الخرساء.

هذه اللحظة ليست مجرد «نتيجة»، بل هي انتصارُ الروح التي لم تَنزلق، ولم تُطفئ يقينها، التي ظلَّت تتوضأ بالرجاء حتى أ ورق الدعاء في مواسم الفرج.

ويُصبح التأويلُ هنا أكثر من تفسير، بل هو خلاصٌ، وتحققٌ، وتجلُّ للمشيئة التي رافقت يوسفَ في الجبِّ والسجن والقصر، حتى صارت ماثلةً في السجود والعرش، وفي الإيواء بعد التشريد.

وبينما نقرأ الآية، يتقاطع الزمن: الماضي يُطلُّ برأسه على الحاضر، والوجع يتراجع لصالح البصيرة.

وهكذا، تتدلى لحظةُ الإجابة فجأةً، بعد أن انكسرَ فيك كلُّ احتمالٍ، لتقول بدمعةٍ مذهولة:

{قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا}.

وتدرك: أن النجاة لا يفهمها إلا من ناجى، وأن التَّأْوِيل لا يُهدى إلا لمن
انتظر، وأن الحُلم إذا ارتوى من دمعك، أزهَرَ.





عفو يوسف

﴿لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ (٩٢) -

النبوة في تساميتها تمسح آثار الجراح



نور التأويل، وسمو العفو

﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ (١٣٠)

ولم يذكر نعمة إخراجِه من الجُبِّ، حتى لا يُجرح شعور إخوته، وقال:
قد أحسنَ بي إذ أخرجني من السِّجْنِ، و(الباء) في بي للملابسة، أي جعلَ
إحسانه مُلابساً لي.

~ وخصَّ من إحسانِ الله إليه إحسانين: يوم أخرجهُ من السِّجْنِ، ومجيء
عشيرته من البادية.

فـ {إذ} ظرفُ زمانٍ لفعلٍ أحسن، فهي بإضافتها إلى ذلك الفعل اقتضت
وقوعَ إحسانٍ غير معدود.

فذلك الوقتُ كان زمنَ ثبوتِ براءته من إثمِ امرأة العزيز، وتلك منة.

وكان زمنَ خلاصِهِ من السَّجْنِ، فالسَّجْنُ عذابُ النفسِ بانفصالِها عن الأحبَّةِ، وخلطةٍ من لا يُشاكِلُونَهُ.

ويُشغله عن خلوةِ التَّلَقِّي والتَّأمَلِ في الآدابِ الإلهيَّةِ.

وكان أيضًا زمنَ إقبالِ المَلِكِ عليه، ومبدأ رَفَعِ درجَتِهِ في الأرضِ.

وأما مجيءُ أهله، فزوالُ أَلَمِ نفسانيٍّ بوحشةِ الانفرادِ عن القرابةِ، وشوقِ اللقاءِ.

فأفصحَ عن كلِّ ذلكَ بذكرِ خروجهِ من السَّجْنِ، ومجيءِ أهلهِ مِنَ البَدْوِ إليه حيثُ هو مَكِينُ أمينٍ.

﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ ﴿٧٣﴾

وبأدبِ النبوةِ قالها، وجاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ.

وفي كلماتِهِ إظهارُ لتمامِ النُّعمةِ، فإنَّ انتقالَ أهلِ الباديةِ إلى المدينةِ ارتقاءٌ في سُلَّمِ الحضارةِ.

لكنَّهُ أَسَدَّ النُّعمةِ إلى اللهِ تعالى، وجعل استيطانَهُم في مصرَ منَّةً من الله، لا فضلًا منه عليهم.

رَمَوْهُ فِي الْبُئْرِ، فَأَسْكَنَهُم الْقَصْرَ، وقال: جاء بكم الله.

فلا منَّةٌ له عليهم!

أَيُّ سَمُوْهُ هَذَا يَا يُوسُفُ!

كان يعلمُنَا الإحسانَ بلا ضجيجٍ، ويُفَرِّقُ بَيْنَ التَّجَاوُزِ والتَّسَامِي، وتلكَ مرتبةٌ لا يَبْلُغُهَا إِلَّا مَنْ سارَ على خُطَى الأنبياءِ.

وحينها..

نُضِيءُ مِنْ دَاخِلِكَ، تَتَّسِعُ بِالطُّمَأْنِينَةِ، تَهْدَأُ رُوحُكَ، وتَكْمَسُ سَكِينَةُ تَغْمُرُ قَلْبَكَ، إِذَا غَفَرْتَ!

لك راحة، لا تُوازِيها كُلُّ ثارات الانتقام!

ثُمَّ ما هو خفيٌّ لا تدري مِنْ أين، وكيف؟!

لكنَّكَ تشعُرُ به، وهو يَهْبِكُ سَكِينَةَ العُبورِ للقُربِ!

لَهُمُ الأذَى.

ولكَ سَلامِ الجِوارِ!

لَكَ سَكِينَةُ سلامة الصِّدرِ، وَفَسْحَةُ العَفْوِ، {وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا}!

يَتَلَشَّى عبءٌ ثَقِيلٌ، لا تُطيقُه الروح.

الروح لا تَحْتَمِلُ كُلَّ هذا المَاضِي!

ثِقْ..

أَنَّ العَفْوَ أرحَمُ لك.

﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى، 40]، ولك الخيال

كله في معنى (على الله)!

تَسَامِي النُّبُوَّة: بَيْنَ نَزْعِ الشَّيْطَانِ وَنُورِ التَّأْوِيلِ.

ما المعنى هنا؟

وهل يَكْبُرُ بَقَاؤُنَا، يَوْمَ نَضَعُ أَمْسَنَا خَلْفَ غَدِنَا، وَنَرْتَفِعُ عَنْ لَحْظَةِ الثَّأْرِ؟

لقد كانت قِصَّةُ يوسف قُطُوفَ مَأْسَاةٍ.

لكنه كَتَبَ بِهَا حكايةَ النهارِ!

مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي.

من بعد أن أَفْسَدَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي، حَيْثُ حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ يُلْقُوا

بِي فِي الجُبِّ.

وأصل (نَزَعَ) مِنْ النِّزْعِ، بِمعْنَى النُّخْيسِ والدَّفْعِ. النِّزْعُ هو أَنْ يَحْمِلَ

بعضهم على بعض بِإِفسادِ بينهم.

يُقال: نَزَعَ الراكِبُ دَابَّتَهُ إِذَا نَحَسَهَا وَدَفَعَهَا لَتُسْرِعَ فِي سِيرِهَا. وَأُسْنَدَ النَزْعُ إِلَى الشَّيْطَانِ، لِأَنَّهُ هُوَ الْمَوْسُوسُ بِهِ، وَالذَّافِعُ إِلَيْهِ، وَلَئِنْ فِي ذَلِكَ سَتَرًا عَلَى إِخْوَتِهِ، وَتَأْدِبًا مَعَهُمْ.

كَانَ يُوسُفُ يُمِطِرُ مِنْ غِيَمَةٍ تَسْكُنُهُ، مَنِيْعًا ضِدَّ الْمَاضِي، وَفِي عَيْنِيهِ صَمْتُ جَلِيلٍ..

وَأَكْثَرُ تَسَامِيًّا مَنْ أَنْ يَخْضَعَ لِنَفْسِهِ، وَكَانَ فِي مُحَنَّتِهِ يَتَضَاعَفُ!
وَكَانَ اللَّهُ فِي رُوحِهِ الْمُنتَهَى.

يَا لَهَا مِنْ بَطُولَةٍ أَنْ تَعْتِقَ غَضَبَكَ، وَلَا تَنْكَأَ جُرْحَكَ.
أَنْ تَنْهَضَ مُعَافَى مِنْ ذَاتِكَ، مِنْ رَغِيَةِ الْإِنْتِقَامِ، مِنْ ثَأْرِ الْجُرْحِ.
وَأَنْ تَكُونَ وَحْدَكَ مِنْ يُحْصِي خَسَارَاتِهِمْ، أَنْ تَتَخَلَّصَ مِنَ الْبَقَايَا الشَّائِكَةِ مِنْ مَاضِيكَ.

قَدْ تَكُونَ بَقَايَا أَلَمٍ، لَكِنْ إِنْ لَمْ تَتَسَامَ عَنْهَا، سَتَهْزِمَكَ.
لِذَا قَالَ: مَنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي.
فَقَدْ كَانَ بِكَلِمَاتِهِ يُرْمِمُ الْخَسَارَاتِ رَغْمَ الشَّيْطَانِ، كَانَ يُوسُفُ كَيْنُونَةً وَاعِيَةً، وَيَعْرِفُ مَا لَا يَعْرِفُونَ!

وَأَشَارَ إِلَى مَصَائِبِهِ السَّابِقَةِ، مِنَ الْإِبْقَاءِ فِي الْجُبِّ، وَمُشَاهَدَةِ مَكْرِ إِخْوَتِهِ بِهِ، بِقَوْلِهِ:

{مَنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي}، فَكَلِمَةُ «بَعْدَ» اقْتَضَتْ أَنْ ذَلِكَ شَيْءٌ انْقَضَى أَثَرُهُ!

وَقَدْ ذَكَرَهُ إِجْمَالًا، اقْتِصَارًا عَلَى شُكْرِ النُّعْمَةِ، وَإِعْرَاضًا عَنِ التَّذْكِيرِ بِتِلْكَ الْحَوَادِثِ الْمُكَدَّرَةِ لِلصَّلَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ إِخْوَتِهِ، فَمَرَّ بِهَا مَرَّ الْكِرَامِ، وَبَاعَدَهَا عَنْهُمْ بِقَدْرِ الْإِمْكَانِ، إِذْ نَاطَهَا بِنَزْعِ الشَّيْطَانِ.

هَذَا أَدَبٌ عَالٍ، لَا تَبْلُغُهُ أَرْوَاحُنَا الْمُثْقَلَةُ بِالْأَنَّا!

ها هو يوسف يَقْتَرِبُ من نِهَايَةِ الرُّؤْيَا، وَيُورِقُ المعْنَى فِي ذَاتِهِ، وَقَدْ اسْتَحَقَّ أَنْ يَكُونَ سُورَةً فِي اللُّوْحِ الْمَحْفُوظِ أَبَدًا.

ثم يَخْتَمُ بِأَدَبٍ لَا نَبْلَغُهُ:

﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾ (١٣).

يُوصِلُ بِهِ وَإِحْسَانَهُ إِلَى الْعَبْدِ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ، وَيُوصِلُهُ إِلَى الْمَنَازِلِ الرَّفِيعَةِ مِنْ أُمُورٍ يَكْرَهُهَا.

﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ (١٣)، الَّذِي يَعْلَمُ ظَوَاهِرَ الْأُمُورِ وَبَوَاطِنَهَا، وَسِرَائِرَ الْعِبَادِ وَضُمَائِرِهِمْ.

﴿الْحَكِيمُ﴾ (١٣)، فِي وَضْعِهِ الْأَشْيَاءَ مُوَاضِعَهَا، وَسَوْقِهِ الْأُمُورَ إِلَى أَوْقَاتِهَا الْمَقْدَرَةِ لَهَا.

(وَاللَّهُ، بِطُولِ الْمَسَافَةِ، يَعْبُدُ الطَّرِيقَ لِلْغَايَةِ، فِي لُطْفٍ لِّمَا يَشَاءُ).

كَأَنَّهُ يَعْتَذِرُ لَهُمْ أَنْ مَا جَرَى قَدَرًا!

يَا رَبِّ، كَانَتْ الرُّحْلَةُ بِكَ، وَالْهَدَايَةُ عَلَيْكَ، وَاللُّطْفُ مِنْكَ.

وَهَا هُوَ الْإِيَابُ إِلَيْكَ.

﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (١٤).

- وَتَنْتَهِي الْقِصَّةَ بِيُوسُفَ فِي مِحْرَابٍ الْاعْتِرَافِ لِلَّهِ.

يُسَائِلُ قَلْبُهُ عَنِ النِّعَمِ، فَيُحْصِيهَا، وَيُحَمِّدُ اللَّهَ عَلَيْهَا.

وَيَقِفُ يُوسُفَ فِي مِحْرَابٍ النِّعَمِ الثَّلَاثِ.

اِثْنَتَانِ دُنْيَوِيَتَانِ:

نِعْمَةُ الْوَلَايَةِ عَلَى الْأَرْضِ.

ونعمة العلم وتأويل الأحاديث.
وثالثة، هي النعمة العظمى.
نعمة الدين الحق، المعبر عنها بالإسلام.
وفي عظيم أدبه النبوي..
جعل الذي أُوتِيَهُ «بعضاً» من الملك، و«بعضاً» من التأويل.
إشعاراً بأن ما بين يديه، في جانب مُلْكِ الله.
وفي جانب علمه.
ليس سوى قطراتٍ من بحر.
وبوادرٍ من فيضٍ لا يُحْدُ.
هذه لحظة قطف الثبات وإنَّ مَنْ يَعُودُونَ مِنْ مُنْتَصَفِ الطَّرِيقِ، لَا تُمْكِّنُ
لَهُمُ الرَّايَاتِ!
والطُّرُق لَا تَفْتَحُ إِلَّا بِقُوَّةِ الْيَقِينِ.
إِلَّا بِقُوَّةِ الصَّبْرِ.
إِلَّا بِحِكْمَةِ الْإِنْتِظَارِ!
رَبُّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ.
وكانت إجابة الدعاء عظيمة، وكأنَّها تَمْحُو كُلَّ مَا آذَانِي!
أَنْظُرُ الْيَوْمَ وَرَائِي، فَيَغْمُرُنِي الْأَمَانُ، وَأَرَاكَ وَأَنْتَ تَبْدُلُ النِّقَمَ نِعَمًا.
وَتَسْمَعُنِي وَأَنَا أَنَادِيكَ: هَبْ لِي يَا إِلَهِي مِنْكَ عَوْنًا، فَقَدْ صَعِبَ الْمَسِيرُ!
كُنْتُ أَهْرُولُ إِلَيْكَ، وَبِيقِينِ الْوَعْدِ كُنْتُ أَهْزِمُ كُلَّ الْهُمُومِ.
وبعدها، كُنْتُ أَرَى يَدَكَ وَهِيَ تَمْنَحُنِي قَمَحَ الْخَزَائِنِ فِي سَنِينَ الْجَفَافِ!
وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ، أَنْتَ وَحْدَكَ يَا اللَّهُ.
وَأَنَا رَأَيْتُ فَضْلَكَ كَثِيرًا!

رَأَيْتَكَ يَا مَوْلَايَ، وَأَنْتَ تَحْمِي طُمَأْنِينَةَ قَلْبِي، وَتَحْرُسُ خَطَوَاتِي مِنْ خَسَارَةِ السَّعْيِ!

طالما بكيت بين يديك، ألا ينطفئ الحُلم، وكنت رحيماً بكل أمنيّاتي! سبحانك.

يَا مَنْ رَزَقْتَنِي لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى عِطَاءِ الدَّعَاءِ! سُبْحَانَكَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَأَنْتَ مَنْ سَمَعَنِي عَلَى أَرْضٍ مَمْدُودَةٍ فِي غَسَقِ اللَّيْلِ، وَقَلْبِي لَا حِيلَةَ لَهُ إِلَّا أَنْتَ!

أَحْبَبْتُكَ يَا اللَّهَ.

وَسَمِعْتُكَ مُجِيبًا، وَأَحْبَبْتُكَ كَرِيمًا!

لك الحمد..

يَا مَنْ رَزَقْتَنَا عِطَاءَ الْإِجَابَةِ!

ولك الحمد..

وَأَنَا أَنْتَظِرُ إِجَابَةَ مَا بَقِيَ مِنَ الدَّعَاءِ، تَوْفَّقْنِي مُسْلِمًا وَالْحَقِّقْنِي بِالصَّالِحِينَ! في هذا المقطع الختامي من سورة يوسف، تتبدى أنوار النبوة في أعلى مقامتها: مقام العفو الكامل، والانتصار على الذات لا على الإخوة، ومقام ردّ الفضل كلّهُ إلى الله. لا يذكر يوسفُ الجبّ، الذي هو القاع الحقيقي للجراح، بل يختار السجن كنايةً عن الابتلاء، كي لا يُخرجهم، وهنا يتجلّى تأويل الأخلاق، لا تأويل الأحلام فقط.

ويبلغ التسامي قَمَّتَهُ في قوله: {من بعد أن نزع الشيطان بيني وبين إخوتي}، حيث يُسند الأذى إلى وسوسةٍ لا إلى فعلهم، فيصعد بمشاعره من مرارة الانتقام إلى فسحة الغفران، حتى يُصبح العفو في ذاته مقامًا، وسكينةً، وتفسيرًا جديدًا للنبوة: أن تنتصر لا في الخصومة، بل في الصّفح.

وفي عتبة هذا الصفح، تتفتح الأبواب للنعمة الكاملة: أن يؤتيه الله من الملك، ومن التأويل، ومن الإسلام، ويطلب الموت في ظلّها، لا نشوةً بالتمكين، بل كَمَن ذاق المعنى، واستكمل الحكاية، وأيقن أن النهاية: بداية جوار الله.

تجتمع في دعائه الأخير كل مقامات المحراب: الملك، والعلم، والولاية، والدعاء، والخشوع. ويتحوّل الخطاب من الإخوة إلى الربّ، ومن المواجهة إلى المناجاة، ليعلن يوسف أن النبوة ليست حكاية انتصارٍ على بشر، بل مسار انتصارٍ على النفس، وارتقاءٍ حتى الاصطفاء الأبديّ: {توفّني مسلمًا وألحقني بالصالحين}.

هكذا يُنهي يوسف القصة كما بدأها: في حضرة الله، لا في حضرة العرش؛ في نور التأويل، لا في ظلال الفجيرة. وبين {يا أبتِ إني رأيتُ} و{قد جعلها ربي حقًا} تقف حكاية الإنسان إذا آمن، وصبر، وانتظر، وعفا.

السورة تحكي قصة طريق الدعوة.

لكن، لا بأس رغمَ وعورة الطريق.

فإنَّ المَبَادِي تَسْتَحِقُّ كُلَّ التَّعَبِ!

تَعَبٌ تَبْتَسِمُ له السماء!

تَعَبٌ يُشْبِه أَوْسَمَةَ فرح علوية!

هذا تَعَبٌ شَرِيفٌ.

تَعَبٌ يَلِيقُ فقط بِمَن لم يتوقّفوا عند السّفح، واختاروا القِمّة.

اختاروا تاريخًا لا يليق إلا بهم.

واختاروا طريقًا لا تطيقه المدن الغائبة في زمن الرداءة.

طريقًا..

لمن لا تُطيق أقدامهم الخَوْضَ في وَحْلِ المُسْتَنْقَعَاتِ!

لمن لا تعرف أقدامهم إلا المعارج نحو السماء.

ربما ما زال أمامنا رحلة طويلة لكتاية الحقيقة.

لكن هذه سنن التاريخ وسنن الصراع، التي لا تُحابي أحداً.

والعمر قد لا يُسعفنا، كي نشهد الخاتمة!

لكن حسبنا أننا كنا سطرًا كُتِبَ بحبر الحق.

وحسبنا أن تلقى الله ولم نكن نقطة صامته في صحيفة الظلم!

ولقد كان نزول السورة في عام الحزن على وفاة خديجة رضي الله عنها، وأبي طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم الذي كان يحميه، وهي فترة اشتد فيها أذى المشركين للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه حتى إن النبي صلى الله عليه وسلم أذن لأصحابه بالهجرة إلى الحبشة، فقد بلغت الشدة والأذى والابتلاء والتعذيب مبلغها من كفار قريش لصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل لمحمد صلى الله عليه وسلم واجتروا عليه لوفاة عمه، ولم تعد معه الزوجة الصالحة التي كانت تسليه وتواسيه، فكان بحاجة إلى سماع ما يخفف عنه ما يلقاه من الأذى وما يعانيه من الحزن.

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ (٣١) وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٣٦﴾ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا

أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ
 نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَقَدْ كَانَ
 فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ
 الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ ﴿٤٢﴾

صدق الله العظيم





الخاتمة التأويلية

من الرؤيا إلى العرش -

خريطة المعنى: الإنسان في سورة



هذا الكتاب عن يوسف عليه السلام أيقونة الإنسانية.

عن كلِّ إنسانٍ مرَّ به الظلم، وسقط في قاعٍ لا يُرى، وخرج منه معنى لا يُنسى.

فـ «سورة يوسف» ليست سردًا، بل بنية كونية عميقة، تكتفُّ الحُزن كي تصقلَ الحُلم، وتُرَبِّي النفس في دهشة التأويل، لا في وضوح النتائج.

وفي كل آية، تُمتحن الذات: هل تختار أن تكون «الفاعل»، أم «المنفعل»؟
هل تمضي رغم الجُبِّ والافتراء والنسيان، نحو «التمكين» كروية تغيرية
إصلاحية؟

في يوسف، اجتمع ما تفرَّق فينا:

جمالٌ يُفتن، وقلبٌ لا ينكسر، ووعيٌ يرى العالم كأنه رؤيا قيد التأويل.
وفيه فهمنا أن الوجد لا يُنقص النور، بل يدلُّ عليه.

وفي الخاتمة، حين يسدل الزمنُ ستار الحكاية، ويبلغ يوسف عرشه، لا يُنهي القصة بذكر الغلبة، بل بدعاءٍ هادئٍ فيه استواء الروح على سكينَةِ الرضا: {توفني مسلمًا وألحقني بالصالحين}.

هنا ندرك أن التمكين الحقيقي ليس في الملك، ولا في موقعٍ على خزائن الأرض، بل في أن تُسلمَ قلبك للتدبير الإلهي، دون أن تفقد نُبُكَ، ولا عَفوك، ولا تأويلك.

لقد كتب القرآنُ يوسفَ سورةً للإنسان الكامل، كملاً ليس بمعايير القوة، بل بالوعي، وامتلاك سنن القوة، والصفح، والصبر الطويل.

وفي كل مشهد، كُنّا نحن، وفي مرآة هذه الخاتمة كان المراد:

أنك إذا نجوت بالمعنى، فقد بلغت التأويل.

وإذا أتقنت مفاتيح الحكم، فقد بلغت العرش.

وإذا سامحتَ من كادك، فقد ارتقيت فوق الحدث.

وإذا أتمَّ الله عليك النعمة، فاحفظها أن تكون أنتَ سببَ نسيانها.

هكذا يصبحُ العمرُ «سورة»، والإنسانُ «رسالة»، و«يوسف» ليس اسمًا، بل مقامًا في رحلة الروح نحو مقام الاجتباء، والدرس الواسع لكل سنن التمكين.

أبرز الكلمات الجامعة والأقوال المأثورة التي اختصت بها سورة يوسف، دون سواها من السور القرآنية

- ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ ١٦.
- ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ ١٨.
- ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ ١٩.
- ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ ٢٠.
- ﴿إِنَّ كَيْدَ كُنَّ عَظِيمٌ﴾ ٢١.
- ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ ٢٢.
- ﴿الَّذِينَ حَصَّصَ الْحَقُّ﴾ ٢٣.
- ﴿وَمَا أَتَرَىٰ نَفْسِي إِلَّا النَّفْسَ لَأَمَّارَةً بِالسُّوءِ﴾ ٢٤.
- ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ﴾ ٢٥.
- ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ ٢٦.
- ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ ٢٧.
- ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ ٢٨.
- ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ﴾ ٢٩.

- ﴿فَلَمَّا أَسْتَيْسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ (٨٠).
- ﴿وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ﴾ (٨١).
- ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ (٨٦).
- ﴿لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ (٩٢).
- ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾ (١٢٨).

مكتبة

t.me/soramnqraa

يوسف

أيها الصديق

من الاصطفاء أن يجعل الله غمرك آية.. ومن الاجتناء أن يجعل
الله غمرك سورة.

أن تكون أنت الزمن وفوق الزمن.

وأن يكون غمرك خارطة الطريق إلى التمكن.

وأن يجعل الله المراحل يوسف.. والتأويل عرش الخرائط.

ولقد كان يوسف وحده من بلغ أن يكون ملكا وملكا وفي توازن

مثالي بين الدنيا والاخرة ظل يحرس الحلم.

لذا كان يوسف قصة مكتملة.. تتوزع مشاهدتها على عداد

البشرية جمعا. وفيه تجتمع كلها!

ويوسف وحده من اجتمع فيه كل ما تفرق على البشرية كلها!

وفيه يصدق...

(إنما هو أنا).. (ويوسف هو القصة وحدها).

وكان لهذا أحسن القصص.



أعمال
أخرى
للكتابة

غلاف: محمود هشام

مكتبة
t.me/soramnqraa



www.aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
aseeralkotb
aseeralkotb
aseeralkotb